تتمة كتاب وليم الصوري لمؤلف مجهول والمنسوب خطأ الى روثلان

(١٢٢٩ ـ ١٢٦١م)

ترجمة وتحليل وتعليق

دكتور

اسامة زكي زيد

استاذ مساعد تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب ـ جامعة طنطا

١٩٨٩

تتمة كتاب وليم الصوري لمؤلف مجهول والمنسوب خطأ الى روثلان

(١٢٢٩ ـ ١٢٦١م)

ترجمة وتحليل وتعليق

دكتور

اسامة زكي زيد

استاذ مساعد تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب ـ جامعة طنطا

١٩٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم


http://www.al-maktabeh.com


مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان



فهرس المحتويات

(١) أوضحنا في المقدمة التحليلية سبب استبعاد هذه الفصول من الترجمة العربية ، راجع ص ٢٧ـ٢٨ من هذا الكتاب .

صفحة

صفحة

(١) أوضحنا فى المقدمة التحليلية سبب استبعاد هذه الفصول من الترجمة العربية ، راجع ص ٢٨ ــ ٢٩ من هذا الكتاب .

صفحة


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين


http://www.al-maktabeh.com


http://www.al-maktabeh.com


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

هذه ترجمة كتاب

Continuation de Guillaume de Tyr dite du manuscrit de Rotehlin (1229 - 1261) Ed. R. H. C. H. occ., t. 11, paris, 1869 (pp. 489 - 639).


مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

هناك اعتقاد سائد بين كثير من الباحثين المعنيين بتاريخ العصور الوسطى بوجه عام والحركة الصليبية على وجه الخصوص أن روثلان هو مؤرخ كتاب « تتمة تاريخ وليم الصورى » المعروف بأسم Continuation de Guillaume de Tyr dite du manuscrit de Rothelin ولكن بعد البحث والتدقيق اتضح أن مؤرخه مجهول الشخصية من الغرب الأوروبى وليس من الفرنجة المقيمين فى فلسطين أو بلاد الشام . وكان روثلان يعيش فى القرن السابع عشر الميلادى واقتصر دوره على جمع ونشر عدة مخطوطات لمؤلفين مجهولين أحدها تلك المخطوطة التى تحت أيدينا[١] .

ولأهمية هذا المصدر للباحثين والدارسين فى تاريخ الحروب الصلبية ، رأينا نقله من لغته الأصلية المدون بها وهى الفرنسية القديمة الى اللغة العربية . اذ تضمن أحداثا هامة احتلت فترة غير قصيرة تجاوزت الربع قرن فيما بين عامى ١٢٢٩ و ١٢٦١ (٦٢٦ ــ ٦٥٩هـ) وجدير بالذكر أن هذه هى المرة الأولى التى ينقل فيها هذا المصدر الى اللغة العربية .

وكان اهتمامى بأمر ترجمته يرجع الى سنوات عديدة مضت ولاقت هذه

(١) R.H.C. H.OCC., t. II, PP. IX - X. Morgan, M., Chronicle of Ernoul and the Continuation of William of Tyr, London, 1983, p. 20

الفكره ترحيبا كبيرا من استاذى الفاضل العالم الجليل دكتور جوزيف نسيم يوسف ، وأخذ يشجعنى على تنفيذها عندما كنت أعد ابحاث الترقية الى استاذ مساعد جزاه الله كل خير وأدام عليه موفور الصحة . فعكفت مدة من الزمن ادرس اصول وقواعد اللغة الفرنسية القديمة على يد أحد آباء الكنيسة الذين رحلوا الآن من عالمنا . وبدأت بعد ذلك أخوض غمار ذلك المشوار الطويل ، وكنت أقرأ الكتاب حينا متمعنا كل كلمة فيه ، وأتركه أحيانا لأنشغالى عنه بأعمال علمية أخرى ، وفى كل مرة كنت أرجع اليه اتأكد من أهميته الكبيرة كمصدر أساسى لتاريخ الحركة الصليبية فى الفترة المعاصرة له . وكان بودى اتمام هذا العمل منذ سنوات مضت ، ولكن الوقت لم يسعفنى فى تقديمه بالصورة العلمية اللائقة ، فتحولت عنه للكتاب فى بحوث اخرى . ثم عدت من جديد لاستكمال ترجمة ماتبقى من صفحاته حتى انتهيت منه بفضل الله ليصل بهذه الصورة الى ايدى قرائه .

ولايسعنى هنا الا أن اتوجه بالشكر العميق الى استاذى الفاضل دكتور جوزيف نسيم يوسف لما قدمه لى من نصح وارشاد وأراء سديده . وكذلك اشكر زميلى وصديقى الأستاذ الدكتور محمد محمد مرسى الشيخ للأستنارة بأرائه البناءة فى مواضع عديدة . كما أتوجه ايضا بالشكر الى الاستاذ ب . و ادبيورى استاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الاداب بجامعة ويلز بكارديف بالمملكة المتحدة لتفضله بتوجيهى الى حقيقة صاحب هذا المخطوط .

وبعد ، فالكمال لله وحده ، وأتذكر قوله عز وجل « ربنا لاتؤاخذنا ان نسينا أو اخطأنا وأدعوه سبحانه وتعالى أن يلهمنا لما فيه الخير والصالح العام لمصرنا الحبيبة .

والله ولى التوفيق ،،،،

اسامة زكى زيد

الاسكندرية ١٩٨٩



مقدمة المترجم

يلقى المؤرخ المجهول فى كتابه هذا نظرة موضوعية شاملة على الأوضاع السياسية التى كانت سائدة فى منطقة الشرق الأدنى فى الثلث الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى (القرن السابع الهجرى) ، وذلك من خلال المجتمعات الاسلامية الموجودة وقتها ، من أيوبيين فى مصر والشام ، وسلاجقة الروم فى آسيا الصغرى ، وخوارزمية بعد أن قضى المغول عليهم فى بلادهم الأصلية وشتتوا شملهم واضطروا النزوح الى هذه المنطقة . كما أنه يوضح علاقة هذه القوى الثلاث بالصليبيين الموجودين فى الأراضى المقدسة ، وانعكاس ذلك على الغرب الأوربى .

ورأينا الا نخوض فى سرد أحداث تلك الفترة الزمنية حتى لايكون ذلك ترديد لما هو معروف تماما فى مختلف المراجع العربية والأجنبية المتعلقة بتاريخ الحركة الصليبية ، وتاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصر الوسيط . وأكتفينا بما جاء على مر صفحات هذا الكتاب ، فهو يوضح تماما ما كان سائد فى العصر الذى أرخ فيه مؤرخنا .

وكان بودى أن أتناول بعرض مركز لحياة مؤرخنا ونشأته والعصر الذى عاش فيه من واقع ماجاء فى بطون المراجع التى أفاضت فى تفاصيل عديدة عن مؤرخين آخرين معاصرين له ، ولكننا لم نستدل على أى شيء عنه على الأطلاق . ولذا كان علينا أن نسد هذه الثغرة معتمدين على الاجتهاد والاستنباط من خلال قراءتنا لنصوص الكتاب وتحليلنا لما كان يعنيه المؤرخ بين السطور .

على أيه حال ، على الرغم من أننا لم نعثر على معلومات تحدد الفترة الزمنية التي عاشها المؤرخ المجهول مؤلف هذا الكتاب ، الا اننا نرجح أنه كان معاصرا للفترة التي أرخ أحداثها والتي تقع بين عامي ١٢٢٩ و ١٢٦١م (٦٢٦ ـــ ٦٥٩هـ) . ويأتي في مقدمة الشواهد على ذلك ما أشار اليه من أحداث عديدة تتصل بحملة القديس لويس على مصر عام ١٢٤٧م/٦٤٧هـ لم يرد ذكرها عند جان دى جوانفيل مؤرخ هذه الحملة والذى شارك فيها وكان شاهد العيان لها . فضرب مثلا لذلك بموافقة الفرنسيين على تخصيص عشر التبرعات التي تمنح للكنائس الفرنسية للمساهمة في نفقات واعداد الحملة لمدة ثلاث سنوات متتالية . وما طلبه الملك لويس من البابا انوسنت الرابع بشأن ارسال مندوب عنه الى فرنسا للتبشير بالحملة بين شعبها وحثه على المساهمة فيها . فضلا عن سرده لتفاصيل الاستعدادات التي أجراها لويس قبل ابحاره ، وتحديد خط سير الحملة من ليون الى اجمورت[1] . هذا ، بجانب التفصيلات العديدة التي أوضحها عندما تعرض للجهود التي بذلها المسلمون لافساد محاولات الفرنج الخاصة بتشييد جسر يساعدهم على عبور بحر اشموم . بينما نجد جوانفيل لايوجه اهتماما كبيرا لهذا الحدث الذى مر عليه مرور الكرام[2] . كما أنه أسهب في ذكر تفاصيل حملة ثيبود الرابع ضد الشرق عام ١٢٣٩م/٦٣٧هـ والحملة الصليبية السابعة على مصر عام ١٢٤٩م/٦٤٧هـ باعتباره معاصرا لهما .

---

(١) انظر ص ١٣٩ـــ١٤٠ من الترجمة العربيه .

(٢) انظر ص ١٧٠ـــ١٧٢ من الترجمة العربيه

وان كنا لاتعرف على وجه التحديد تاريخ وفاته ، كذلك لانعرف متى بدأ كتابة مؤلفه ، وكم من الوقت استغرق فى اعداده . كل هذه النقاط لاتزال بحاجة الى مزيد من البحث والدراسة للبت فيها برأى قاطع .

أما بالنسبة لموطنه الأصلى فالأرجح أنه من اصل فرنسى ، لأنه وضع مؤلفه باللغة الفرنسية القديمة من ناحية ، ولمعرفته التامة بأسماء الكونتات والنبلاء الفرنسيين الذيم شاركوا فى حملتى كونت شامباينا تيبود الرابع على بلاد الشام عام ١٢٣٩ م / ٦٣٧هـ فلويس التاسع ملك فرنسا على مصر عام ١٢٤٩م م/ ٦٤٧هـ من ناحية أخرى فأخذ يعدد اسماءهم الواحد تلو الأخر وكأنه على صلة وثيقة بهم . كما أنه أورد اشارات عن فرنسا وأقاليمها وباروناتها واساقفتها امتازت بوفرتها ودقتها . هذا بجانب العبارات المنغمة بالحزن والعاطفة التى أوردها عندما تحدث عن مرض القديس لويس قبل مغادرته فرنسا فى طريقه الى مصر[١] . كما أنه خص الجانب الأكبر من كتابه عن حملتى هذا الملك على مصر والشام[٢] .

وبالأضافة الى ذلك ، هناك من الدواعى مايؤدى الى رفض الزعم بأنه من اصل انجليزى أو ايطالى أو المانى . فيما يتعلق بأنجلترا فأنه كان متحاملا على رتشارد دوق كورنوول شقيق الملك هنرى الثالث ملك انجلترا عندما عارض المعاهدة التى عقدها ثيبود الرابع مع المسلمين[٣] ، فى الوقت الذى كان فيه العداء على اشده بين انجلترا وفرنسا .

---

(١) راجع ص ١٣٧ـــ١٣٨ من الترجمة العربية .

(٢) راجع ص ١٣٧ـــ٢١٨ من الترجمة العربيه

(٣) انظر ص ١١١ من الترجمة العربيه .

أما الزعم بأنه من أصل المانى أو ايطالى فأن يفتقر الى دليل لأن ميوله واتجاهاته لايدلان على ذلك . فكان يكره الأمبراطور فردريك الثانى ويحقر من أفعاله واتهمه بأنه خارج عن تعاليم الدين المسيحى[1] . كذلك لم يشر مؤرخنا الى من أقام فى زمنه بالاراضى المقدسة من النبلاء الألمان ، ودورهم فى قتال المسلمين . وكان يجهل اسم مقدم فرسان التيوتون .

ويتبقى بعد ذلك أن نشير الى المكان الذى دون فيه مؤرخنا كتابه . والأرجح أنه لم يكن شاهد عيان لما كان يجرى من أحداث فى مصر والشام طوال الفترة التى أرخ لها ، وانما كان مقيما فى الغرب الأوربى ، لأنه لم يتحدث على الأطلاق بصيغة المتكلم وانما كان يستخدم اسلوب الغائب . كما أنه ارخ لأحداث استيلاء الصليبيين على دمياط عام ١٢٤٩م /٦٤٧هـ من خلال الخطاب المرسل من جان بيير سارازان ، حاجب الملك لويس والذى شارك فى الحملة وكان شاهد عيان لأحداثها والذى بعث به الى صديقه نيقولا هارود[2] . فلو كان موجودا فى المنطقة لأرخ من واقع مشاهداته هو دون اللجوء الى كتابات جان سارازان . وفضلا عن ذلك ، كان مؤرخنا فى بعض الاحيان لايجد تفسير لحادثة بعينها وقعت فى الشام ، مثلما أشار الى سفارة شيخ الجبل الأسماعيلى الى القديس لويس أثناء اقامته فى الشام معلقا عليها بأنه لايعلم سببها[3] . ونضيف الى هذا عدم المامه باسم الاشرف الذى تولى سلطنة مصر بعد مقتل توران شاه . فكان يشير اليه دائما باسم « سلطان مصر الجديد » فلو كان موجودا فى المنطقة عندئذ لعلم اسمه ، ولكن وجوده فى الغرب الاوربى وقصر مدة حكم الأشرف موسى جعله جاهلا به .

---

(١) انظر ص ١١٢ ــ ١١٣ من الترجمة العربية .

(٢) انظر ص ١٤٣ ــ ١٥٨ من الترجمة العربية .

(٣) راجع ص ٢١٤ من الترجمة العربية .

وفضلا عن هذا وذاك ، يلاحظ أن كتاباته عن أحوال الغرب الاوروبى ابان الفترة التى أرخ لها ، وما تخللتها من صراعات شديدة بين البابوية والامبراطور فردريك الثانى ، نزيد من الاعتقاد بأنه كان قريبا من مجريات تلك الاحداث[1] .

كان مؤرخنا مسيحيا مخلصا لعقيدته الكاثوليكية . ويتضح ذلك من حديثه القاسى عن الأفعال السيئة التى قام بها الأمبراطور فردريك الثانى فى حق رجال الدين المسيحى وداخل الكنائس والأديره[2] . ولاجدال أن كتابه يعتبر أحد المصادر التاريخية الهامة التى لاغنى عنها للدارسين فى تاريخ الحركة الصليبية خلال الثلث الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى (الثلث الثانى من القرن السابع الهجرى) . ووفقا لعنوانه يمكن اعتباره بالفعل متمما لتاريخ وليم الصورى . وهو عبارة عن مقتطفات من تاريخ الحروب الصليبية ، ويلقى الضوء على ماهية وطبيعة العلاقات الأسلامية الصليبية فى الفترة الواقعة بين عامى ١٢٢٩ و ١٢٦١م ، بعكس الحال عند بعض المؤرخين الذين حصروا كتاباتهم فى رواية واحده مثلما فعل جوانفيل فحدد نفسه فى نطاق حملة القديس لويس فقط . كما أنه يسد فجوات هامة وعديدة ، وخاصة فيما يتعلق بحملة لويس التاسع على مصر عام ١٢٤٩ م/ ٦٤٧هـ . فلولا كتاب جوا نفيل لاعتبرنا ذلك الكتاب الذى تحت ايدينا المصدر الاول لهذه الحملة الصليبية . وترجع أهميته ايضا بالمقارنة بينه وبين غيره من المؤرخين المعاصرين له من المسلمين والغربيين . اذ تتفق رواياته فى التفاصيل وفى النقاط الأساسية مع ما ورد فى المصادر الأخرى ، مما يدل على صدقه وامانته . كما أنه كان يتوخى الدقة فى كل ما يورده .

(١) انظر ص ١١٢ــ١٢٤ من الترجمة العربية

(٢) نفس الصفحات السابقة

أما بالنسبة للأصل الذى كتبه مؤرخنا المجهول ، فلم نتمكن العثور عليه ، ولكن هناك اثنتى عشرة نسخة لهذا المؤلف كتبها النساخ فى فرنسا فى بداية القرن الرابع عشر الميلادى (القرن السابع الهجرى)[1] . وقد عمد المحقق الناشر على المقارنة بينها وأخرج منها النسخة التى هداه تعمقه التاريخى واللغوى الى أنها أقرب النسخ الى الأصل . فضلا عن أنها مدونة بالفرنسية القديمة . فاتخذتها أساسا للترجمة . ومن المرجح أن هذه النسخ جميعها قد تم نسخها فى سواسون بفرنسا لأن الاسلوب الذى كتبت به هذه النسخ يتفق مع اللهجة التى يتحدث بها أهل مدينة سواسون[2] . وهذه النسخة التى اعتمدت عليها موجودة فى مكتبة جامعة الأسكندرية فى الجزء الثانى من « مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية (المؤرخون الغربيون) » ، كنص مستقل بذاته اعتنى بنشره وتحقيقه هيئة علمية فرنسية للتدوين والآداب عام ١٨٤٤ هى :

"L'Académie des inscriptions et Belles lettres".

والكتاب يقع فى مائة وخمسين صفحة من الحجم الكبير ، يسبقها ثلاث صفحات تتضمن محتويات الكتاب من ثمانين فصلا . وجدير بالذكر أن هذه هى المرة الأولى التى يترجم فيها هذا الكتاب الى اللغة العربية .

هذا ، وقد استبعدنا من الترجمة الفصول من الثانى الى الرابع عشر الواقع بين صفحتى ٤٩٠ ، ٥١٩ من الأصل الفرنسى القديم لأنها

(١) Morgan, M. The Rothelin Continuation of William of Tyr, cf. outremere, studies in the history of the Crusading Kingdom of Jerusalem, Jerusalem, 1982, (pp. 244-259), p. 244, 252.

(٢) R.H.C.-H. Occ., t. II, P.X.

تخرج عن الأطار العام المحدد للكتاب . فقد أفردها المؤرخ المجهول فى وصف الأراضى والأماكن المقدسة جغرافيا وطبوغرافيا فى كثير من الأسهاب الى جانب رواياته عن بعض النبؤات من خلال ما ورد فى الكتب القديمة . وكذلك كان الحال بالنسبة للفصول الواقعة بين الخامس والأربعين والسادس والخمسين (من صفحة ٥٧١ حتى صفحة ٥٨٢ من الأصل) فقد آثرنا استبعادها من الترجمة لما تضمنته من اساطير وخرافات تتعلق بالخوف الذى ينتاب ركاب البحر بسبب الرياح والعواصف ووحوش البحر ، وقد ذكر مؤرخنا صراحة أن هذه الروايات استقاها من كتب المؤرخين القدامى الذين سبقوا عصره بمئات السنين مثل كتاب فرسال Pharsal للمؤرخ لوسان Lucain . ويدعم وجهة نظرنا فى استبعاد هذه الفصول أن هناك نسختين من نسخ الكتاب لم تشر اليها(١) .

ولعل السبب فى اصرار مؤرخنا على ادراج هذه الفصول الأربعة عشر فى موضعها ، هو الرغبة فى تشويق القراء الذين كانوا يتلهفون لسماع اخبار الشرق الممزوجة بالمغامرة والتسلية والخيال ، تلك السمات التى كانت تتفق مع عالم العصور الوسطى . ومن هنا اختلف المؤرخون فى طريقة كتاباتهم . فالبعض كان يكتب بقصد التسلية ، والبعض الآخر بهدف التعليم والأرشاد ، بينما قصد فريق ثالث اثارة الحماسة فى نفوس الناس وحثهم على الاشتراك فى الحروب الصليبية(٢) .

(١) Morgan, op. cit., p. 246

(٢) Idem, p. 253.

وقد استبعدنا ايضا ما ورد بالفصلين ٥٧ ، ٥٨ (من صفحة ٥٨٣ حتى صفحة ٥٨٩) . لأن المؤرخ قصر الحديث فيهما عن طبيعة نهر النيل وفيضانه ومنابعه وفروعه فى العصور القديمة تمهيدا للحديث عن حملة القديس لويس على مصر .

وفى ضوء ما تقدم ، اذا أعدنا ترتيب فصول الكتاب طبقا لمفهوم المنهج العلمى للدراسات التاريخية بعد الأخذ فى الأعتبار أن مؤرخنا المجهول ليس مؤرخا بالمعنى المفهوم من هذا المصطلح فى العصر الحديث ، وإنما كان يسجل الأحداث دون النظر الى الحبكة والتماسك والتسلسل الزمنى فيكون من الأفضل أن نقصر الحديث فى الفصول الواقعة بين الثانى والرابع عشر على وصف بيت المقدس وشوارعها وطرقها واماكنها المقدسة فى الوقت المعاصر لأحداث الكتاب دون التعرض لحالها فى الفترات الغابرة السابقة لعصر المؤرخ . ويكون موضعها فى فاتحة الكتاب لتكون مدخلا لتلك الاحداث التى يؤرخ لها على امتداد صفحات المؤلف وحتى لا نفصل بين تسلسل الأحداث . وكان من المناسب أيضا أن نقدم الفصول من الخامس عشر حتى الثامن عشر على احداث الفصل الأول ، لأن هذه الفصول تتعلق بأحوال البيت الايوبى بعد وفاة صلاح الدين ، وأوضاع الخلافة العباسية فى بغداد ، ثم نواصل بعد ذلك الحديث عن عناصر الفصل الأول الخاصة باخبار الامبراطور فردريك الثانى .

كيفما كان الأمر ، لقد حذفنا ايضا من الترجمة العربية اغنيتين أوردهما المؤرخ فى الفصلين الثلاثين والحادى والثلاثين[1] . الأولى ألفها

---

(١) تقع الأغنية الأولى فى صفحتى ٥٤٨ و ٥٤٩ أما الأغنية الثانية فهى موجودة فى صفحتى ٥٥٠ و ٥٥١

فيليب دى نانتيويل اثناء اسره فى مصر مع بعض رفاقه الذين جاءوا فى حملة ثيبود الرابع عام ١٢٣٩ م ، والثانية لشاعر مجهول ألفها وهو مقيم فى المعسكر الصليبى ، رثى فيها الحال التى وصل اليها الصليبيون بعد هزيمتهم فى مصر . وهاتان الاغنيتان لم يرد ذكرهما فى نسختين من نسخ المخطوطة الأصلية(١) .

ونظرا لأن ناشر هذا المخطوط له آراء خاصة وتعليقات فى هوامش الكتاب فقد التزمنا بترجمتها بنفس الترتيب الذى أعده هو . وللتمييز بينها وبين ما أعددناه من شروح وتعليقات فى الهوامش ، فقد رأينا اثبات كلمة المترجم بين قوسين .

وجدير بالذكر ، أن مؤرخنا ترك فجوات كثيرة فى التسلسل الزمنى لبعض الأحداث التاريخية . فأغفل تأريخ ما جرى فى الفترة الواقعة بين عامى ١٢٣٠ و ١٢٣٨ ، وعامى ١٢٤١ و ١٢٤٣ م دون أن يعطى مبررا لذلك . وهناك اكثر من احتمال يمكن أن نضعه نصب أعيننالتعليل ذلك . إما أن تكون صفحات المخطوطة الأصلية التى تحتوى على هذه الأحداث فقدت أو تعرضت للتلف . أو أن يكون مؤرخنا قد تردد فى كتابتها فأرجأها الى وقت آخر ، ثم سها عنها فيما بعد . أو يكون قد تعمد اغفالها اعتقادا منه بأن احداث تلك الفترة لا تشكل أهمية كبيرة . ونحن نميل الى الأخذ بالاحتمال الأخير لأن السنوات الواقعة بين عامى ١٢٣٠ و ١٢٣٨ تتفق مع فترة الهدنة التى عقدها السلطان الكامل محمد مع الامبراطور فردريك الثانى لمدة عشر سنوات اعتبارا من عام

---

(١) Morgan, op. cit., loc. cit.

١٢٢٩ م ولم يكن للصليبيين خلال تلك المدة نشاطا ملحوظا فى الأراضى المقدسة . كما كان المسلمون مشغولين فى منازعاتهم الداخلية بسبب عدم استقرار الأوضاع داخل البيت الأيوبى فى مصر والشام .

أما فيما يتعلق بالسنوات الثلاث الأخرى الواقعة بين عامى ١٢٤١ و ١٢٤٣ م والتى لم يتعرض لها مؤرخنا فى مؤلفه ، فيبدو أنها كانت لا تمثل أهمية خاصة فى تاريخ العلاقات الاسلامية الصليبية ، من وجهة نظره على الأقل ، لأن الأمور كانت قد استتبت بالفعل لصالح الصليبيين بالشام بعد المعاهدة التى ابرمها ثيبود الرابع ملك نافار مع السلطان الصالح نجم الدين ايوب عام ١٢٤٠ م/٦٣٧ هـ وحصل الصليبيون بموجبها على بيت المقدس وعسقلان وطبرية وشقيف ارنون وغير ذلك من المدن والحصون الاسلامية[1] . وباتت الأوضاع فى المنطقة تتسم بالهدوء النسبى باستثناء تلك المناوشات التى كانت تقوم بين الطرفين من حين لآخر ولعلها لم تبلغ من الأهمية ما يسمح له بتأريخها. أما الصراعات الأخرى التى كانت قائمة فى المنطقة خلال تلك الفترة بين الصليبيين بعضهم البعض وعلى وجه الخصوص بين جماعتى الفرسان الداوية والأسبتارية ، فقد اعتبرها المؤرخ وصمة عار فى جبين الغرب الأوروبى بصفة عامة والصليبيين فى الأراضى المقدسة بصفة خاصة ، وأنها بالتالى لا تستحق التأريخ . وركز تدوينه لذلك الحدث الكبير الذى وقع عام ١٢٤٤ م/٦٤٢ هـ وفاقت اهمية ما تم خلال السنوات السابقة ، وهو استعانة الصالح ايوب بالخوارزمية ضد عمه الصالح اسماعيل والقوى

---

(١) راجع ص ١٠٣ـــ١٠٦ من الترجمة العربية

الصليبية المحالفة له فى الشام ، ومما نتج عن ذلك من زحف الخوارزمية ضد بيت المقدس وأعمال الذبح فى أهلها من الصليبيين والاستيلاء عليها ومواصلة تقدمهم حتى غزة حيث الحقوا الهزيمة بالصليبيين وامراء الشام من بنى ايوب[١] . ولم يدخر مؤرخنا وسعا فى أن يمدنا بتفاصيل عديدة لما جرى من أحداث بما يتفق مع ما جاء فى المصادر الاسلامية والغربية على حد سواء .

كيفما كان الحال ، يبدو أن مؤرخنا لم يكن ملما الماما تاما بكتابات المؤرخين السابقين عنه ، فوقع فى خطأ عندما نشر خطاب روبرت بطريرك بيت المقدس الموجه الى البابا انوسنت الثالث دون أن يتحقق من صحة المعلومات الواردة به . اذ خلط البطريرك بين أولاد كل من السلطان صلاح الدين وأخيه العادل سيف الدين[٢] . كما أنه كان لا يتحرى الدقة فى بعض الحالات ، عندما حدد عام ١٢٤٠ م/٦٣٨ هـ تاريخا لزواج الامبراطور البيزنطى يوحنا فاتاتزيس بعد وفاة زوجته من ابنة الامبراطور فردريك الثانى رغم أنه من الثابت أن زوجته الأولى ايرين ابنة الامبراطور السابق تيودور الأول لاسكاريس قد توفيت عام ١٢٤١ م وأن ذلك الزواج قد تم عام ١٢٤٤ م/٦٤٢ هـ وفقا لما ذكره المؤرخ البيزنطى جريجوارس من أن « الامبراطور لم يعد قادرا على تحمل وحدته بعد وفاة زوجته فأقبل على الزواج »[٣] .

---

(١) انظر الترجمة العربية ص ١٢٧ــ١٣٠ .

(٢) انظر الترجمة العربية ص ٥٠ــ٥١ ..

(٣) اسمت غنيم : زواج التحالف فى العصور الوسطى ، الاسكندرية ١٩٨٦ ، ص ٦١ ، ٦٤ . راجع كذلك الترجمة العربية ص ١١٤ــ١١٥ .

ويؤخذ على مؤرخنا كذلك بأنه لم يكن ملما أحيانا بتفاصيل بعض الأحداث ، فيشير اليها فى جمل مبهمة لا يتفق تفسيرها مع الواقع . ويتضح ذلك فى اشارته الى رفض الملك لويس التاسع مضمون المعاهدة التى عرضها عليه الناصر يوسف سلطان حلب . فوصفها بالفشل دون أن يوضح للقارىء الظروف المحيطة بهذه الهدنة وما تضمنته من بنود فى صالح الصليبيين . فكان هذا العرض الايوبى يتضمن عقد التحالف بين الايوبيين والملك لويس مقابل منحه بيت المقدس . ومن المفروض أن مثل هذا العرض يحوز رضاء الصليبيين ، ولكن لويس وجد نفسه بين الايوبيين فى الشام والمماليك فى مصر ، كل طرف من الطرفين يخطب وده ويحاول محالفته ضد الطرف الآخر ، فأراد أن يستفيد من هذا الموقف . ولذا عندما وصله عرض سلطان حلب آثر التريث حتى يفى المماليك بوعدهم السابق له ويطلقوا سراح اسرى الصليبيين ، لانه كان لا يستطيع أن يقبل هذا العرض ويضحى بأرواح اثنى عشر الف أسير صليبى كانوا لايزالون فى مصر . فقدم اعتذاره لسلطان حلب ، ووعده بالتحالف معه اذا رفض المماليك الافراج عن الاسرى . ولذلك لا يجوز أن نصف المفاوضات بالفشل على حد قول مؤرخنا وإنما تأجل البت فيها[١] .

ويظهر تعصب مؤرخنا لبنى جلدته أحيانا فى مواضع متفرقة من مؤلفه ، وبدا ذلك على سبيل المثال عندما اشار الى انتصار المسلمين على الفرنج فى موقعة غزة عام ١٢٣٩ م/٦٣٧ هـ ، وارسال الأسرى الى سجون مصر . فزعم أن المسلمين قاموا بجمع روث الخيول والحيوانات

(١) لمزيد من التفصيلات عن هذه الهدنة راجع سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، القاهرة ١٩٨٢ . جـ ٢ ، ص ٤٠ ، وكذلك

Crousset, Histoire des Croisades, 3 vols, Paris, 1948, t. III, p. 502

المختلفة وأخذوا يحرقونها أمام اولئك الأسرى ليلحقوا بهم اضرارا معنوية وصحية ناجمة عن استنشاقهم هذه الروائح الكريهة كوسيلة من وسائل التعذيب[1] . ولاشك أن مثل هذا التصرف لا يمكن أن يصدر من المسلمين لتنافيه مع مبادىء وتعليم الشريعة الاسلامية التى تحث على الطهارة والنظافة الدائمة . كما اننا لم نعثر فى المصادر ما يؤكد هذا الزعم الناتج عن حقد وكراهية المؤرخ وتأثره بالهزيمة التى حلت بالفرنج عند غزة . فأراد أن يحقر من شأن المسلمين فى معاملتهم لأسرى الصليبيين ليشوه عقيدتهم وانظمتهم امام الاجيال التالية ، وفى نفس الوقت ليبث روح الحماسة فى نفوس مسيحى الغرب لازدياد مساهمتهم فى الحروب الصليبية المقبلة ضد المسلمين .

ويظهر هذا التزمت ايضا بصورة جلية اثناء وصفه لمعركة غزة عام ١٢٤٤ م/٦٤٢ هـ بين الصالح أيوب وحلفائه من جموع الخوارزمية من جانب ، وامراء الشام والصليبيين من جانب آخر ، فقال « لا يمكن لأى فرد أن يصدق ما فعلته الفئة القليلة من مقاتلى الفرنج ضد الأعداد الغفيرة للمسلمين »[2] ، ولا يدل ذلك إلا على رغبة المؤرخ فى تمجيد الصليبيين وارجاع هزيمتهم فى النهاية الى كثرة جموع الخوارزمية فى الجيش المصرى وليس الى مهارتهم فى القتال وتفوقهم الحربى . رغم أنه من الثابت أن المعركة منذ اللحظة الأولى لقيامها كانت تتسم بالشراسة والضراوة ، ولم يتمكن الفرنج من احراز أى نصر امام شدة ضربات اعدائهم من

---

(١) راجع ص ٩٧ من الترجمة العربية .
(٢) راجع ص ١٣٢ من الترجمة العربية .

الخوارزمية والمصريين معا وفقد الصليبيون اعدادا غفيرة من رجالهم[1] . وكذلك كان الحال عندما حدد المؤرخ عدد قتلى الصليبيين بفارسين اثنين فى احدى المعارك التى فاجأهم فيها المسلمون اثناء تقدمهم عن طريق البر من دمياط الى المنصورة مقابل ثلاثمائة فارس من المسلمين[2] . هذا فى الوقت الذى دون فيه مؤرخنا قبل ذلك بعدة اسطر أن جيش المسلمين كان يتكون فى هذه المعركة من ستمائة من أمهر وأشجع الفرسان حتى ظن الصليبيون منذ الوهلة الأولى انهم سوف يلاحقون حتفهم من شدة ضربات المسلمين . فلا نعتقد بعد هذا الوصف أن تسفر المعركة عن مقتل فارسين فقط اللهم اذا كان هناك تزمت أو تحيز واضح من المؤرخ لبنى جنسه أو التخفيف من هول الهزيمة التى لحقت بالفرنج .

وحدد ايضا مؤرخنا عدد القتلى اثناء احدى المعارك التى دارت بين قوات القديس لويس والمماليك فى مصر بألفين من المسلمين دون أن يفقد الصليبيون أيا منهم[3] . ولا يدل ذلك إلا على محاولة المؤرخ تزييف بعض الحقائق بما يتمشى مع مصلحة الصليبيين ليشفى غليلهم ويعوضهم معنويا عما فقدوه فى معاركهم السابقة .

وفضلا عن هذا وذاك ، نرى أن الكتاب يفتقر فى جملته الى مراعاة التناسب والتوازن التاريخى ، فيتناول احيانا فى اسهاب شديد بعض

(١) لمزيد من التفصيلات عن معركة غزة انظر اسامة زيد : الخوارزمية ودورهم فى الصراع الصليبى الإسلامى فى عصر بنى ايوب ، مجلة كلية الآداب ـــ جامعة الاسكندرية ، العدد ٣٠ لسنة ١٩٨٣ ، ص ٢٧٦ـــ٢٧٨ .

(٢) راجع ص ١٦٦ من الترجمة العربية .

(٣) راجع الترجمة العربية ص ١٦٧ـــ١٦٨ .

الحوادث والشخصيات مثل حملة ثيبود الرابع على الشام وعلاقة الأمبراطور فردريك الثانى بالبابوية ، وحملة القديس لويس على مصر ، بينما لم تحظ منه بعض الأمور والاحداث الهامة أو فترة غير قصيرة الا بكلمات قليلة ، مثل روايته عن مقتل سيف الدين قطز على أيدى الظاهر بيبرس ، وعلاقة شيخ الجبل الاسماعيلى بالملك لويس التاسع ، وغارات المغول ضد بغداد والمدن المحيطة بها . فضلا عن أحداث سنة ١٢٦١ م التى توقف عندها الكتاب ، وكنا نود لو تضمن تأريخه الهدنة التى عقدها سلطان مصر الكامل محمد مع الامبراطور فردريك الثانى عام ١٢٢٩ م/٦٢٦ هـ لمعاصرته لأحداثها . ولكن يبدو أن كرهه للامبراطور كما هو واضح من حديثه عنه جعله يخفى ايجابيات الامبراطور التى عادت بالفائدة على مسيحى العالم ، وبصفة خاصة على الصليبيين فى الأراضى المقدسة . لأن نجاح فردريك فى اكتساب صف السلطان المصرى الى جانبه وعقد الهدنة معه وتسلمه بيت المقدس كان ضربة موجهة للبابوية فى الغرب .

وكان مؤرخنا متحاملا كثيرا على المماليك عندما اسند اليهم وقائع بعينها لم يرد ذكرها فى المصادر الاسلامية المعاصرة لتلك الفترة الزمنية أو المتأخرة عنها ، ولا تتناسب مع ماجاءت به الشريعة الاسلامية من احكام الحث على العفو والتسامح وعدم الاكراه فى الدين . ولكن عدم فهم المؤرخ لتلك الأمور جعله يتمادى فى الصاق الاكاذيب بهم . ومنها الادعاء بأنهم يسلطون السيوف على رقاب واجساد الاسرى الصليبيين بعد رحيل القديس لويس من دمياط الى عكا حتى يجبروهم على اعتناق

الاسلام . ويلقونهم داخل اكياس ثم يشعلون فيهم النيران[1]. وليس هناك مجال للشك فى أن هذه الأكاذيب هى من نسج خيال مؤرخنا ، قصد من ورائها تمجيد بنى جنسه كشهداء وقديسين ، وفى نفس الوقت تشويه صورة المسلمين امام الاجيال التالية زيادة فى الحقد والكراهية التى بدت من كتاباته كرد فعل لهزيمة الملك لويس التاسع وعودته الى عكا يحمل معه اذيال الخيبة والفشل .

على أية حال ، رغم تلك الانتقادات الموجهة الى مؤرخنا فهناك جوانب عديدة طيبة جاءت فى كتابه ، فى مقدمتها الأمانة والصدق بصفة عامة فى سرد الوقائع التاريخية بما يتفق مع ماجاء فى روايات المصادر الأخرى بشقيها الاسلامى والغربى . وخير دليل على ذلك تدوينه معظم احداث الحملة الصليبية السابعة على مصر معتمدا فى ذلك على نص الخطاب الذى ارسله حنا سارازان الذى كان شاهد عيان للحملة الى صديقه نيقولا دون أن يقتبس ذلك وينسبه الى نفسه[2] . كما أن حديثه عن موقف فردريك الثانى من امراء انجلترا وفرنسا المشتركين فى حملة ملك نافار الصليبية تؤيد امانته فيذكر صراحة « .... ولكن البارونات عقدوا اجتماعا فيما بينهم وانتهوا الى أن الامبراطور يهدف من وراء التأجيل عدم اخراج هذه الجيوش الى ما وراء البحار حتى لا يحاربوا المسلمين لصداقته لهم »[3] .

(١) راجع ص ٢٠٨ــ٢٠٩ من الترجمة العربية .

(٢) راجع الترجمة العربية ص ١٤٣ــ١٧٢ .

(٣) ".... Li baron Parlerent ensemble bien virent et aparcurent et distrent a leur conseil que li emperierez de Rome mandoit Pour ce qu'il ne vouloit mie que li Pelerin Passassent Outre mer a son Povair pour guerroier les mescreanz Mahommetoiz, qui estoient si ami" راجع هذا النص ص ٥٢٨ من كتاب مؤرخنا .

وعلى الرغم من أن ذلك ينتقص من قدر الامبراطور فردريك كرجل مسيحى اذ أوضح مدى تخلى الأمبراطور عن بنى جنسه وعقيدته وتعاونه ضد الصالح العام للصليبيين ، والى أى حد كانت البابوية على حق عندما اصدرت قرار الحرمان ضده فى السنوات السابقة لامتناعه عن مساعدة وحماية الصليب . ومع ذلك فاننا نرى أن فردريك كان يمثل نوعية خاصة من الرجال الذين يحافظون على رد الجميل ، ويفهمون ويقدرون معنى الصداقة ويتمسكون بها ، ويعملون على تخليد ذكرى من ساعدهم . فاذا الكامل محمد قد مد يد العون الى فردريك وهو فى محنته الكبرى ، فلا أقل من أن يرد فردريك الجميل وينقذ المسلمين من الهجوم الصليبى على بلادهم رغم أنتهاء مدة الهدنة المبرمة بينه وبين المسلمين . ولم يقتصر دوره على الامتناع عن مشاركة الفرنج فى حملتهم ، وإنما أخذ يماطلهم حتى يتملكهم السأم والملل ويؤجلوا خروجهم . ولم يكتف بذلك إنما استمر فى صداقته للأيوبيين ، وأخبر الصالح ايوب باستعدادات حملة القديس لويس على مصر .

وهناك ما يدل ايضا على امانته فى الكتابة عندما نص صراحة على الاهانات التى وجهها اهالى حصن شقيف ارنون عام ١٢٤٠ م/٦٣٨ م الى الصليبيين معتبرين أنهم « كلاب وخنازير لا يعتقدون فى وجود الله »(١) . وذلك عندما حاول سلطان دمشق الصالح اسماعيل تسليم الحصن الى الفرنج . وكذلك ذكر مؤرخنا ما كان يردده المسلمون من عبارات السب فى حق الصليبيين بعد وصولهم دمياط بقولهم « حضرت الخنازير »(٢) .

---

(١) "a ces porciaux, chienz crestienz mecreanz quine croient en Dieu"

راجع هذا النص ص ٥٥٢ من كتاب مؤرخنا .

(٢) انظر الترجمة العربية ص ١٥٥ .

وفضلا عن ذلك ، امتاز مؤرخنا بحرصه الشديد على تحديد جميع المشتركين فى الحملات الصليبية من كونتات ، وادواق وامراء . وقد اتضح ذلك بصورة جلية عندما كان يؤرخ لحملتى ثيبود الرابع ورتشارد كورنوول ، ومعركة غزة عام ١٢٤٤ م ، وحملة القديس لويس على مصر . فضلا عن المعارك الأخرى الجانبية . ولهذا اهميته التى لا يجوز اغفالها . اذ زودنا بمعلومات دقيقة عن اسماء الممالك والمقاطعات الموجودة فى الغرب الأوروبى فى فترات زمنية مختلفة ، ومن يقوم على حكمها ، مما يساعد الى حد كبير على الربط بين الاحداث التاريخية وفهم تطورات العلاقات السياسية بين تلك الممالك والمقاطعات .

وكان مؤرخنا يؤثر احيانا أن يتتبع موضوعا معينا منذ بدايته حتى نهايته دون أن يحفل بالزمن الطويل الذى يستغرقه ذلك الحدث ، مثلما فعل مع حملة ثيبود الرابع عام ١٢٣٩ م ، فأخذ يتتبعها منذ الاعداد لها حتى وصولها الى عكا ، ثم تحدث عن المعارك العديدة التى قامت ضد المسلمين وانتهت بفشل الحملة وهزيمة الصليبيين عند غزة ، ووقوع معظم قادتها فى الاسر . فاستغرق ذلك ستة عشر فصلا متتالية من مؤلفه[١] . وكذلك الحال بالنسبة لحملة القديس لويس على مصر عام ١٢٤٩ م ، اذ خصص لها ثلاثة وثلاثون فصلا تتبع خلالها احداث الحملة كلها منذ لحظة الاعداد لها فى فرنسا وخروجها الى قبرص والاستقرار بها زهاء ثمانية أشهر ورحيلها الى دمياط ، ثم فشلها وعودة لويس الى عكا ومنها الى

---

١) انظر ص ٦٤ــ١٠٦ من الترجمة العربية .

فرنسا[١] . وكذلك الحال بالنسبة لعلاقة الامبراطور فردريك الثانى بالبابوية[٢] .

وأحيانا اخرى كان المؤرخ يروى الحدث الواحد فى اماكن متفرقة من الكتاب ، فيشكل صعوبة على القارىء فى متابعته ليصل الى النهاية مثلما حدث فى روايته عن التتار . فأشار الى بعض اخبارهم فى الفصل الاربعين من مؤلفه ، ثم عاود الحديث عنهم مرة أخرى فى الفصلين الثمانين والحادى والثمانين . ونفس الحال ينطبق على حديثه عن الحشيشية ، فذكرهم فى الفصل السابع عشر ، ولم يعد اليهم إلا فى الفصل السبعين .

وكان مؤرخنا يقف أحيانا موقف المحلل الناقد للاحداث ، ويتضح ذلك بصورة جلية عندما اخذ يحلل الاسباب التى اعاقت الفرنسيين فى حملة القديس لويس على مصر من استكمال بناء الجسر الموصل بينهم وبين الضفة التى يقيم عليها المسلمون[٣] .

اضافة لما سبق ذكره رأينا عقد مقارنة سريعة بين ما أورده كل من هذا المؤلف المجهول وجوانفيل من احداث وتفصيلات تتعلق بحملة لويس التاسع على مصر . وقد تبين أن المؤرخان كانا يختلفان احيانا حول تفاصيل بعض الروايات مثل رواية تسلم لويس الصليب بعد شفائه من المرض الشديد الذى اصابه . فجاء فى رواية مؤرخنا المجهول أنه بمجرد أن عاد لويس الى وعيه أثر مرضه طلب من اسقف باريس أن يعطيه الصليب للذهاب الى ما وراء البحار . فأخذه فى الحال وأمر الملك

---

(١) راجع ص ١٣٧ حتى ص ٢٢٧ من الترجمة العربية .

(٢) انظر من ص ١١٢ حتى ص ١٢٢ من الترجمة العربية

(٣) راجع ص ١٧١ من الترجمة العربية .

بالاستعداد للحملة[1] . بينما ذكر جوانفيل أن احدى السيدات اللاتى كن يمرضنه ظنت أنه توفى فأرادت أن تغطى وجهه فعارضتها سيدة اخرى كانت موجودة حينئذ فى حجرة الملك ، واثناء تحاورهما عاد الملك لويس الى وعيه وطلب اليهما أن تأتياه بالصليب ففعلتا ، ثم أمر الملك بعد ذلك بتجهيز الحملة[2] .

وهناك اختلاف آخر بين هذين المؤرخين مثلما حدث عند سرد وقائع عبور الصليبيين المخاضة التى دلهم عليها أحد الأعراب . فأشار جوانفيل أن الملك لويس أمر بأن تتألف طليعة الجيش من فرسان الداوية وتليهم الفرقة الثانية بقيادة اخيه الكونت دارتوا الذى ما كاد يعبر المجرى حتى اندفع بمن معه على المماليك الذين فروا من امامه . فطلب منه الفرسان الداوبة الرجوع الى مكانه واتباع تعليمات الملك لويس ، ولكنه لم يعرهم اهتماما ، واخذ يواصل تقدمه . ولما رأى فرسان الداوية ذلك اخجلهم أن يكون للكونت دارتوا السبق ، فأخذوا يطاردون المماليك الذين كانوا يفرون امامهم تجاه مدينة المنصورة[3] . بينما ذكر مؤرخنا أنه بعد عبور معظم القوات الفرنسية المخاضة وفر امامهم المماليك ، أخذ الصليبيون يطاردون فلولهم . ولكن رئيس جماعة الفرسان الداويه طلب من كونت دارتوا أن يوقف تقدم اتباعه ويجمعهم سويا وينتظروا جميعا حتى يعبر الملك لويس وقواته النهر وينضمون اليه ويكونوا جيشا واحدا فى مواجهة قوات

---

(١) انظر الترجمة العربية ص ١٣٨ .

(٢) جوانفيل : القديس لويس وحملاته على مصر والشام ، ترجمة د. حسن حبشى القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٧٤ .

(٣) جوانفيل : المصدر السابق ، ص ١١٤ .

المسلمين . أما اذا واصلوا تقدمهم بمفردهم سوف يلم المسلمون شتاتهم من كل ناحية ويصبح الصليبيون قلة بالنسبة لهم ويلاقون الهزيمة . ولكن كونت دارتوا لم يعر اهتماما لهذا وواصل تقدمه وسقط صريعا وسط المعركة[1] .

وفضلا عن ذلك كان مؤرخنا يتعرض أحيانا لوقائع لم يرد ذكرها عند جوانفيل مثل روايته عن المغامرة التى قام بها بعض المقاتلين المسلمين يوم السبت السابق لعيد الشمعة عام ١٢٥٠ م/٦٤٨ هـ ضد بعض المراكب الصليبية فى فرع تنيس ، فقاموا بالاستيلاء على اربع ناقلات للبضائع وربطوها معا بسلاسل حديدية وشحنوها بكافة المواد المشتعلة ثم القوا النيران عليها واخذوا يجرونها تجاه باقى المراكب الصليبية الأخرى مما الحق بها خسائر فادحة[2] .

وعلى العكس من ذلك ، كان مؤرخنا فى بعض الأحيان يبخل عن ذكر بعض الاحداث التى افاض فيها جوانفيل مثل اسباب انسحاب المسلمين من البر الغربى لمدينة دمياط واتجاههم الى اشموم طناح .

على أية حال ، رغم وجود هذه الاختلافات فى روايات هذين المؤرخين فانها اختلافات غير جوهرية لأن كلا الروايتين متفقتا معا فى مضمونهما العام . ويمكن القول بأن كل منهما تكمل الأخرى . ولعل هذا الاختلاف يرجع الى أن كل مؤرخ روى حكايته من منظور رؤيته للاحداث أو سماعه لها . ورغم هذه المفارقات الموجودة بين هذين المؤرخين فى مواضع

---

(١) راجع ص ١٧٦ من الترجمة العربية .

(٢) راجع الترجمة العربية ص ١٧٢

مختلفة من كتابيهما ، إلا أنه جدير بالذكر أن ما رواه مؤرخنا عن لويس اثناء اقامته فى مصر والشام ومفاوضاته مع سلطانى مصر ودمشق لا يزيد عما كتبه جوانفيل ، ويعتبر مصدرا اساسيا لهذه الحملة

وبعد فأرجوا أن أكون قد وُفقت ، وما توفيقى الا من عند الله .



تتمة كتاب وليم الصورى لمؤلف مجهول
والمنسوب خطأ الى روثلان
(١٢٢٩ــ١٢٦١ م)


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الفصل الأول

سنة ١٢٢٩

كيف زحف المسلمون ضد المسيحيين[١] فى القدس ؟

ص ٤٨٩

ترك فردريك[٢] صليبى الأراضى المقدسة ببيت المقدس فى خطر كبير لأنه لم يعين حامية كبيرة تصد عنهم خطر المسلمين الموجودين على مقربة منهم . وكان المسلمون قد حطموا تحصينات مدينة القدس اثناء حصار المسيحيين لثغر دمياط ، فيما عدا برج داود[٣] . ولم يحاول الامبراطور

---

(١) المقصود بهم الصليبيين ، وقد اعتاد مؤرخو العصور الوسطى أن يطلقوا على الصليبيين سواء القادمين منهم من الغرب أو الموجودين فى الأراضى المقدسة بالشرق اسم المسيحيين . ولكننا سوف نشير اليهم بأسم الصليبيين (المترجم) .

(٢) هو الامبراطور فردريك الثانى (١٢١٢ــ١٢٥٠ م) (المترجم) .

(٣) عندما اشتدت مضايقة الصليبيين لثغر دمياط عام ٦١٦ هـ/١٢١٨ م وكاد يسقط فى أيديهم خاف الملك المعظم عيسى صاحب دمشق أن يصل جموع الفرنج من البحر وتستولى على بيت المقدس منتهزة فرصة انشغال المصريين بحصار دمياط فيتعذر استعادتها مرة أخرى ، فخرب اسوار وابراج بيت المقدس ، ولم يبق منها سوى برج داود فى غرب المدينة . وخرج معظم من كان بالقدس من الناس ولم يتبق فيها الا نفر يسير ، ونقل المعظم ما كان بالمدينة من اسلحة وآلات القتال . انظر : ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ٣١٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب ، تحقيق د. حسنين ربيع ، القاهرة ١٩٧٣ ، جـ ٤ ، ص ٣٢ ، المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر وتعليق د. مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٣٤ ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٤٠ (المترجم) .

سنة ١٢٢٩

فردريك أو حاكم المدينة اعادة ترميمها مره اخرى[١] . ومما كان المسلمون يدركون هذا الأمر فقد انتهزوا هذه الفرصة وشنوا هجوما عنيفا على القدس . ولم يستكن الصليبيون من أهلها لهذا الهجوم ، وإنما اخذوا يدافعون بشدة عن مدينتهم وقتلوا عددا كبيرا من المسلمين يزيد عددهم عن خمسمائة مقاتل ، بينما بلغت حملة ضحايا الصليبيين مائة قتيل كان بينهم بعض العناصر الأنجليزية[٢] .

---

(١) لعل هذا راجع الى احترام الامبراطور فردريك لنصوص المعاهدة المبرمة بينه وبين الملك الكامل محمد عام ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م والتى نصت على تسليم بيت المقدس الى الفرنج بشرط أن تبقى خرابا ولا تجدد اسوارها ، وأن يكون الحرم الشريف بما حواه من الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى للمسلمين ولا يدخله الفرنج الا للزيارة فقط . وأن يترك للفرنج عدد من القرى ، بين عكا والقدس . راجع ابن الأثير : المصدر السابق جـ ٩ ، ص ٣٧٨ ، ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ، ص ٢٤١ـــ٢٤٣ ، ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ ٨ ، ص ٤٣١ـــ٤٣٢ ، ابو الفدا : المختصر فى اخبار البشر جـ ٣ ، ص ١٤١ ، المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ، ص ٢٦٨ـــ٢٦٩ (المترجم) .

(٢) عن هذا الغزو انظر بارج هرفل ص ٣٨٣ ـ ٣٨٥

.... (١)

الفصل الخامس عشر

ص ٥٢٠

صلاح الدين وحرمان ورثته من إرث املاكه

نجح صلاح الدين فى استعادة مساحات شاسعة من الأراضى فاقت فى كثرتها ما استعاده غيره ممن سبقوه فى هذا المجال . وكانت الأمور فى الدولة تسير فى حياته على خير ما يرام . ولكن تغير الحال بعد وفاته اذ فقد ابناؤه معظم هذه الأراضى . واتضح ذلك من الخطاب الذى ارسله بطريرك بيت المقدس[٢] الى بابا روما انوسنت الثالث [٣] بناء على طلبه ، اذ كلفه بمهمة الكتابة اليه بكل دقائق الأمور وما يتعلق بعادات وتقاليد السكان المسلمين

(١) أوضحت فى المقدمة التحليلية للكتاب ص ٢٧ـــ٢٨ سبب استبعاد ترجمة هذه الفصول

(٢) هو البرت اسقف بيت لحم ، شغل منصب البطريرك عام ١٢١٤ م لمدة أحد عشر عاما . وكانت مدينة عكا مقرا للبطريركية منذ أن استعاد صلاح الدين بيت المقدس عام ١١٨٧ م/٥٨٣ هـ . لمزيد من التفصيلات راجع :

Du cange, Les Familles d'outre mer., Publiés Par M.E.G. Rey, Paris, 1864 pp. 724-725.

(المترجم)

(٣) شغل انوسنت الثالث منصب البابوية عام ١١٩٨ م حتى ١٢١٦ م (المترجم)

سنة ١٢٢٩

وبيان بأسماء حكامهم الأمراء لأتخاذ التدابير اللازمة لأعادة الأراضى مرة أخرى إلى ايدى المسيحيين[١] . وبعد أن انجز البطريرك هذه المهمة ارسل خطابا الى بابا روما ومضمونه الآتى[٢] :

« كان هناك أخوان مسلمين ، احدهما يسمى صلاح الدين ، والآخر سيف الدين[٣]

« وقد ترك صلاح الدين بعد وفاته خمسة عشر ولدا . وقد تخلص سيف الدين منهم جميعا ما عدا كورادين[٤] وبذلك آلت اليه كل الأراضى التى استردها صلاح الدين . واحتفظ كورادين بكل اراضى حلب والقلاع والأماكن والمدن التابعة لها ، ثم ما لبث أن اخذت منه بعد

(١) كان انوسنت الثالث حريصا على أن يكون لديه كافة البيانات التى تتعلق بالحكام المسلمين وطبيعة العلاقات بين بعضهم مع تقرير مفصل عن الحالة فى بلاد الشام وقد اسند هذه المهمة الى ايمار بطريرك بيت المقدس عام ١١٩٩ م وجماعتى الفرسان الداوية والاسبتارية عام ١٢١٣ م ، راجع محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة ، الأسكندرية ١٩٨٥ ، ص ١١٦ (المترجم) .

(٢) اكتفينا بالإشارة الى بعض محتويات هذا الخطاب ، وهو موجود فى مؤلفات جاك دى فيترى ، جـ ١ ص ١١٢٥ ، ورتشارد دى سانت جيرمان جـ ١ ، ص ١٨٨ ، وفينسنت دى بوفيش جـ ١ ، فصل ٤٠ .

(٣) المقصود به العادل سيف الدين (المترجم) .

(٤) لعل المؤرخ يقصد الأفضل نور الدين ابن السلطان صلاح الدين (المترجم) .

١٢٢٩
سنة

ذلك(١) . وكان لسيف الدين ثلاثة عشر ولدا(٢) ، منح سبعة منهم حكم أراضى عديدة ، بينما منح الستة الباقيين ايرادا سنويا كبيرا . وأعطى أكبر أولاده كمير ماليلينز Quemerz Malealinz (٣) كل اراضى مصر والقاهرة

(١) يبدو مما كتبه بطريرك بيت المقدس أنه لم يكن ملما بأفراد اسرة صلاح الدين وولاية بعضهم حكم الأقاليم والمدن . فالمعروف أنه بعد موت صلاح الدين استأثر ابناؤه بالاجزاء المختارة من الدولة . وتقاسم بقية افراد البيت الأيوبى الاجزاء الأخرى الأقل أهمية . فأحتفظ الملك الأفضل نور الدين (١١٩٣ـ١١٩٦ م) وهو اكبر ابناء صلاح الدين بدمشق والساحل والقدس وبعلبك . على أن يكون له السلطة العليا فى بقية انحاء الدولة الأيوبية . أما العزيز عثمان (١١٩٣ـ١١٩٨ م) فقد احتفظ بمصر . فى حين اخذ الابن الثالث وهو الظاهر غازى (١١٩٣ـ١٢١٥ م) حلب وشمال الشام . بينما حكم العادل سيف الدين أخى السلطان كل من الكرك والأردن والجزيره وديار بكر . أما بقية ابناء صلاح الدين واخوته واقاربه فكانت لهم اقطاعات ثانوية ولكن لم تلبث أن نشبت حرب الوراثة بين ابناء البيت الايوبى ـ وتفككت الدولة ثم نجح العادل سيف الدين فى النهاية ولّم شمل بنى ايوب من جديد واصبح سلطانا على البلاد جميعا معتمدا فى ذلك على اولاده الثلاثة وهم الكامل محمد فى مصر والمعظم عيسى فى دمشق ، والاشرف موسى فى الجزيرة . لمزيد من التفصيلات راجع : سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، القاهرة (بدون تاريخ) ص ٧٤ـ٨٤ (المترجم) .

(٢) ذكرت المصادر أن عددهم ستة عشر ولدا سوى الاناث . انظر ابن واصل : المصدر السابق ، تحقيق د. جمال الدين الشيال ، الاسكندرية ١٩٦٠ ، جـ ٣ ، ص ٢٧٣ ، الحنبلى : شفاء القلوب فى مناقب بنى ايوب ، تحقيق ناظم رشيد ، بغداد ١٩٧٨ ، ص ٧٣ . (المترجم)

(٣) هو الملك الكامل محمد

١٢٢٩ سنة

وبابليون والاسكندرية ودمياط وممتلكاتها . ولما مات سيف الدين خلفه الكامل وكل اخوته فى حكم البلاد .

أما الأبن الثانى لسيف الدين هو كورادين[١] فقد منح دمشق ومدينة القدس وكل ارض الميعاد وانحاء المملكة وما يتبعها[٢] . أما الأبن الثالث واسمه مشيبس Meschipes[٣] فقد منحه كل الأراضى التى كانت تعرف بأسم جيميل Gimelle[٤] وكل الأراضى المحيطة بها والتابعة لها . أما الابن الرابع مهمودوم Mehemodom[٥] فقد اعطاه كل مملكة آيس Ayse[٦] وممتلكاتها . وبالنسبة لأبنه الخامس

٥٢١ ص

(١) هو الملك المعظم سيف الدين .

(٢) لعل المؤرخ يقصد كل انحاء مملكه بيت المقدس التى كانت فى ايدى الصليبيين واستردها منهم صلاح الدين عقب موقعة حطين (المترجم) .

(٣) هو ابراهيم — ملك فايز ، انظر ابو الفدا ص ٨٠ ، وقد ذكره جاك دى فترى بأسم ملك فايز .

(٤) هى حمص ، وكانت هذه المدينة فى العصور الوسطى تعرف بأسم لا شامل La Chamelle أو لا كامل Camelle . أما النص اللاتينى لخطاب البطريرك الوارد فى كتاب رتشارد دى سانت جيرمان فقد ذكرها جاملا Jamella ، وعند جاك دى فترى تسمى جملا Gemella .

(٥) هو الملك الأشرف موسى مظفر الدين . وقد ذكره جاك دى فترى بأسم ملكيسنافات Melchisenaphat .

(٦) المقصود بها مملكة آسيا ويقصد المؤرخ بها العراق (ميزوبتاميا) .

مهلكيسمافات Mehelchissemaphat (١) فقد منحه مملكة سارو Saro (٢) أما الأبن السادس واسمه ملكيسنك Melchisench (٣) فقد أعطاه مملكة بوداس Bandas (٤) أما الأبن السابع واسمه سالافاز Salafaz (٥) وكان على اخوته الآخرين أن يقدموا اليه كل عام حصانين بسرجهما وألف بيزنط(٦) . وقد خصص سيف الدين لاثنين آخرين من اولاده الايراد السنوى الذى كان مخصصا للقبر المقدس ولمعبد المسيح ، وقد بلغت قيمته ثلاثين ألف بيزنط . أما

---

(١) هو الملك الحافظ نور الدين ارسلان شاه . انظر ابو الفدا ص ٨٠ وقد ذكره جاك دى فترى بأسم ملكيافات Melchis aphat .

(٢) اطلق عليها جاك دى فترى اسم « ساركو » Sarco .

(٣) ذكره جاك دى فترى تحت اسم « ماكومت » Machomet .

(٤) المقصود بها بغداد (المترجم) .

(٥) معروف عند جاك دى فترى بأسم « سالافات » Salafat .

(٦) البيزنط فى الأصل عمله ذهبية بيزنطية نسبة الى بيزنطة عاصمة الامبراطورية البيزنطية ، وتعرف هذه العملة فى أوروبا بأسم « صول » أو الصلدى Solidus وكانت متداولة فى أوروبا خلال فترة العصور الوسطى منذ القرن السادس حتى القرن الخامس عشر الميلادى تقريبا . وبسقوط الدولة البيزنطية فى القرن الخامس عشر أخذ البيزنط يفقد قيمته ويقل تداوله الى أن اختفى نهائيا خلال القرن السادس عشر . وليس من السهل تقدير قيمته الحقيقية لاختلاف وزنه بأختلاف الزمان والمكان ، ويمكن القول أن متوسط قيمته المتداولة وقتئذ كان يبلغ حوالى نصف جنيه انجليزى . راجع جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على بلاد الشام ، الاسكندرية ١٩٧١ ، ص ٢٠٤ ج ٢ (المترجم) .

١٢٢٩ سنة

ابناه العاشر والحادى عشر فقد منحهما الأموال المخصصة لمسجد مدينة مكة وبلغت قيمتها السنوية ثلاثين ألف بيزنط . أما الأبناء الثانى عشر والثالث عشر فكان نصيبهما الايراد السنوى الذى كان يجمع من وراء نهر النيل[1] وبلغت قيمته اربعين ألف بيزنط أو أكثر بقليل . وكان صلاح الدين قد نجح فى الحصول على هذه الايرادات من قبل . وساعده فى ذلك العادل سيف الدين . ولذلك كان العادل يطلب أن ينصبه افراد البيت الايوبى حاكما عليهم خلفا لصلاح الدين لأن مساعدته لصلاح الدين كانت تفوق مساعدة أبناء صلاح الدين انفسهم لأبيهم .

الفصل السادس عشر

سيف الدين وورثته

٥٢٢ ص

« كان سيف الدين عندما يمتطى صهوة جواده يغطى رأسه بعقال قرمزى ، وعندما كان يذهب لرؤية اولاده كانوا يخرجون لاستقباله ، وعندما يقتربون منه كانوا يطرحون انفسهم ارضا امام ارجل الحصان ثم ينهضوا وهم منحنيين قليلا لتحيته ، ويقبلوا يديه اربع مرات ، ثلاثة وهو فوق

(١) يبدو أن المقصود من هذه الايرادات تلك المكوس التى كانت تجبى من السفن التى تعبر نهر النيل (المترجم)

الحصان ، والرابعة بعد نزوله على الأرض . وكانوا يفعلون هذا مرة كل عام . وكان سيف الدين يزورهم فى أى وقت يشاء . ويجلب لهم هدايا قيمة ، ويعطى كلا منهم خاتما من الذهب الخالص نقشت صورته عليه ، وكان يقبلهم الواحد تلو الآخر . ولم يكن سيف الدين يرغب فى أن يروا وجهه أكثر من عشر مرات فى السنة . وعندما كان يصله مندوبون من قبل الملوك والأمراء كان يستقبلهم فى اليوم الأول فى صالة قصره . وبها عدد كبير من الحراس المسلحين من ذوى الرتب العالية لحماية مداخل القصر . يبلغ عددهم تقريبا مائتى أو اكثر بقليل . وكان أثاث القصر قيما مما يدل على الثراء والغنى . وفى اليوم التالى كان يأتى الترجمان ومندوب عن سيف الدين ليسألوا الرسل عن وظائفهم وسبب قدومهم . ثم يذهبوا الى سيف الدين ويعلنوه بما سمعوا منهم ويمثل المندوبون امام سيف الدين فى اليوم الثالث وليس قبل ذلك . وكان لسيف الدين عدد كبير من الحريم والخدم ولكنه مثل من سبقوه كان يطبق شريعة محمد[١] . وعندما يكون مسرورا ومعتدل المزاج يأتى بهن لينظر اليهن ويكلمهن ويلعب معهن . وفى كثير من الأحيان كان يفضل احداهن ممن انجبت له ولدا عن الآخريات . وكان سيف الدين يعهد الى بعض الخدم من الرجال لحماية حريمه وعادة ما يكونون

---

(١) المقصود بها احكام الشريعة الاسلامية (المترجم) .

سنة ١٢٢٩

من الخصيان . وكان لا يتجرأ أى رجل الدخول عليه الا بناء عن استدعاء منه والا تعرض لعقوبة شديدة » .

« كان سيف الدين وكل اولاده يرغبون فى تسليم بطريرك بيت المقدس والصليبيين كل الأراضى المقدسة التى فقدها الصليبيون . ومبلغ كبير من المال مقابل أن يحل السلام الدائم بين المسلمين والصليبيين . ولكن لم يعجب هذا الأمر الصليبيين اعتقادا منهم أن السلام لا يجب أن يكون مع الكفرة غير المسيحيين لأن هذا ضد ارادة الرب والعقل. » .

الفصل السابع عشر

حول تاريخ الحشيشية ورئيسهم

ص ٥٢٣

كان يوجد فى أرض دمشق وانطاكية قوم اسمهم الحشيشية[١] وكان سيدهم يسمى عجوز الجبل . وكان هؤلاء الذين لا يصدقون محمد ، يأكلون لحم الخنزير ويعاشرون بناتهم وامهاتهم واخواتهم مما يتنافى مع شريعة

(١) فيما يختص بالدعوة الاسماعيلية أو الحشيشية أنظر :

Jacque devitry, His Hier. I, ch. XIV, Bongars, t. I. p. 1062-1063, 1126; vincent de Beauvais, Speculum, I, XXXII, ch. LVI; Alberic de Trois Fontaines sous l'année 1186, p. 369.

والتفاصيل المذكورة بمعرفة مؤرخنا عن الاسماعيلية غير واضحة . وعلى الرغم من قلة اختلافها عما ذكره جاك دى فترى فأن اسم هذه الجماعة منقول تماما كما يتمشى مع الواقع .

محمد[١] . وكان الحشيشية يسكنون الجبال الشاهقة وفى القلاع والحصون المنيعة . وقد استفادوا من وجود الحيوانات المفترسة الموجودة بالمنطقة . وكان الأمراء وكل الناس المقربين منهم والبعيدين عنهم يخشونهم بسبب كثرة استخدامهم اسلوب القتل وأحيانا بدون وجه حق وبدون سبب . وكان لسادتهم قصور كبيرة مليئة بالكنوز الثمينة ولها ابراج عديدة مرتفعة عن اسوار القصر مخصص لحمايتها عدد كبير منهم . وكان هناك باب واحد مخصص للدخول منه . وكانوا فى هذه القصور يطعمون ابناء الجبال المحيطة بهم ولا يسمحوا لهم بالخروج من القصر ، وكانوا يعلمونهم مختلف الحرف واللغات وكيف يخشون سيدهم ويطيعون أوامره[٢] .

---

(١) المقصود به الدين الاسلامى (المترجم)

(٢) هم الفداوية ، وكان شيخ الجبل يحضر الشباب من صفوة ابناء الجبال المحيطة به ممن تتراوح أعمارهم بين الثانية عشر والعشرين وممن تتوافر فيهم الشجاعة والقوه البدنية ، ويربيهم على مبادىء المخاطرة والتضحية واحتقار الحياة البشرية ، فضلا عن اقناعهم بالطاعة العمياء لأوامر زعيمهم . وكانوا يتعلمون مختلف اللغات والعلوم واستعمال كافة انواع الأسلحة والتدريب على الفروسية . وكانوا دائما ملثمين بحجاب لا يمكن اختراقه وتلازمهم خناجرهم الحادة المسمومة التى كانوا ماهرين فى استخدامها ، ويرجع الفضل فى تكوين هذه الجماعة الى الحسن بن الصباح أول شيخ جبل لطائفة الأسماعيلية أواخر القرن الحادى عشر الميلادى (أواخر القرن الخامس الهجرى) ، لمزيد من التفصيلات راجع : =

وكان يقول لهم اذا نفذوا أوامره سوف يريهم الجنة ، ولذلك كانوا لا يترددون فى تنفيذ رغبة سيدهم فى التخلص من أحد الأفراد . وكان يجمعهم أمامه ويؤكد لهم ادخالهم الجنة اذا أطاعوه . وكان يقسمون أمامه بالآتى : « ياسيدى إنى أبذل كل الطاعة والولاء لك وفق ما ترغب وبأية طريقة » . وعندئذ كان سيدهم يعطى كل واحد منهم خنجرا حاميا للغاية . ويرسلهم فى شتى الأماكن للقيام بأعمال سيئة ولقتل أى رجل . واذا تمكن من الفرار والعودة الى سيده بعد هذا العمل يجد فى انتظاره مجدا كبيرا وشرفا وألقابا كبيرة وثروة كبيرة ويصبح مفضلا عن الآخرين . واذا قتل فأن روحه ستكون بكل تأكيد امام الله فى الجنة .

١٢٢٩ سنة

٥٢٤ ص

= Michaud, M., History of the crusades, London, 1852, t. II. p. 401, 422. 429; Guyard, M., Un Grand Maître des Assassins au temps de saladin, cf Journal Asiatique, 7 e series, t. IX, 1877, pp. 344-345; Browne, A Literary history of Persia, cambridge, 1957, p 208; Deffremery, M., Nouvelles Recherches sur les Ismaéliens ou Bathiniens de syrie, cf. Journal Assiatique, 5 e series. t. v, 1805 (pp. 5-66)

وتحدث [illegible] الصليبيون والاسماعيلية الشام فى عصر الحروب الصليبية ، الاسكندرية ١٩٥٠ ، ص ٥٦ وما بعدها (المترجم)

سنة ١٢٢٩

الفصل الثامن عشر

خليفة بغداد

سيد المسلمين خليفة لمحمد ومحل طاعتهم ويطلق عليه اسم خليفة بغداد[١] . وكل أتباعه من الأمراء يسيرون على قانون واحد[٢] . وهؤلاء الأمراء لا يرون الخليفة الا مرتين فى الشهر ، والخليفة إما أن يسامح ويغفر عن أى خطأ أو يطرد المذنب خارج المجتمع الإسلامى ، مثلما كان يفعل بابوات روما مع المسيحيين . واذا منح العفو للمسلمين الذين يحاربون المسيحيين كان يمحو عنهم كل خطاياهم التى ارتكبوها والتى سوف يرتكبونها لتصبح أرواحهم صالحة . وكان هذا العفو يمنح للذين يقيمون فى أرضه والخاضعين لنفوذه ولقوانينه . وعندما كان الخليفة يمتطى صهوة جواده ويذهب للحج فى مدينة مكة والأماكن الدينية الأخرى فى هذه المدينة ، والتى يعتبرها المسلمون أماكن مقدسة وطاهرة كان يقوم بشعائره على سنة محمد ، فكان يذبح الضحايا من الحيوانات ويأكل ويشرب هو ورجاله ، ثم يعود بعد ذلك الى بلاده متوجا بالمجد الكبير

(١) هذه التفصيلات توجد مع اختلاف بسيط عند كل من :
Jacque de vitry, I.I., ch, VII, p. 1061; Vincent de Beauvais, speculum histor, I. XXXII, ch LIV.
وانظر كذلك
Ducange, Gloss med et infflat au mot Chalifa

(٢) هو قانون الشريعة الاسلامية (المترجم) .

سنة ١٢٢٩

ومعه رجاله مسرورين كثيرا . وكان المسلمون يفخرون كثيرا بالخليفة وينحنون قليلا عندما يمثلون أمامه ويرتمون أرضا أمام أقدامه ويركعون أمامه بخضوع مثلما يفعلون لله[1] . وكان هذا يتم فى مدينة بغداد . مثل الحال فى روما حيث يقوم المسيحيون بتقديس البابوات . وفى مدينة مكة كان الحجاج المسلمون أتباع محمد يطلبون من الله أن يغفر لهم خطاياهم مثلما يفعل المسيحيون عندما يذهبون الى الأرض المقدسة بالقدس حيث مات المسيح ثم رفع . وقد تحدث الكتاب المقدس عن هذه الأشياء .

ص ٥٢٥

الفصل التاسع عشر

الاعمال السيئة لفردريك امبراطور المانيا

كان يوجد بالأماكن المقدسة التى حددناها من قبل ، اثناء خضوعها للصليبيين ، كنائس كبيرة ، وأديرة جميلة وغنية ، ومنازل دينية كبيرة جميلة وغنية ومزينة جيدا وهى مؤجرة للرهبان السود التابعين لدير برمونستر Premonstre

(١) هذه مبالغة من المؤلف لا نجد لها سندا فى الواقع (المترجم) .

سنة ١٢٢٩

وجماعة السسترشيان(١) ، وجمعية القديس أوغسطين(٢) ، ومن جمعيات أخرى ، فضلا عن ناس آخرين ممن يعيشون معيشة دينية . وعندما هزم المسلمون الصليبيين واستولوا على الأرض وفق ما أوضحنا من قبل قاموا بتدميرها كلها ماعدا كنيسة القبر المقدس وعدد قليل آخر . ولم يكن ذلك نابعا من حبهم للصليبيين وإنما من أجل الكنوز الكثيرة والخدمات الكبيرة والأموال التي

(١) اسس هذه الجماعة راهب فرنسي يسمى روبرت عام ١٠٩٨ م وكان نظامه ينطوى على العودة الى التعاليم البندكتية مع ادخال شيء من التصوف عليها وتجنب الملابس الفاخرة والتمسك بالبساطة فى كل شيء . وقد انقطع هؤلاء الرهبان عن العالم الى الجهات المقفرة ، راجع : جوزيف نسيم يوسف : تاريخه العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها ، الاسكندرية ١٩٨٤ ، ص ١٧٥ (المترجم) .

(٢) يعتبر القديس أوغسطين من الشخصيات الهامة فى تاريخ الكنيسة العربية — ولد فى ١٣ نوفمبر عام ٣٥٤ م ، تناول دراسته الأولى فى قرطاج واستمر بها حتى بلغ الثامنة عشرة من عمره فأرسل الى مدرسة قواعد اللغة فى مادورا ، وقد عين اسقفا لمدينة هيبو . ومن أهم اعماله كتاب « مدينة الله » الذى استغرق انجازه ثلاثة عشر سنة ، وكذلك كتاب « الاعتراف » وقد مات القديس اوغسطين عام ٤٣٠ م راجع :

Augustin, Confessions, London, 1976; p. 91; cf also: Donald attwater, Saints, London, 1978, p. 55; Jackson, History of the Christian Church, London, 1909, p. 490-491; Russel, History of Western Philosophi, London. 1979, p. 335.

راجع ايضا اسامة زيد : الأفكار السياسية للقديس اوغسطين عن مدينة الله ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، العدد ٢٩ لسنة ١٩٨١ ، ص ١٤٨—١٦١ (المترجم) .

١٢٢٩ سنة

كان المسيحيون يخصصونها لها فضلا عما كان يعود عليها من ايراد يومى كبير . ولما علم البطاركة والبابا بما حدث قرر عقوبة الحرمان(١) لكل اولئك الذين يقدمون الايجارات أو الخدمات الى هذه الأماكن المقدسة . ولذلك لم يحصل المسلمون على كل ما كانوا يتمونه .

٥٢٦ ص

أقام المسلمون مسجدا عند الكنيسة المقدسة لسيدنا ، وشيدوا عددا كبيرا من المساجد بمقتضى السلام الذى عقد بين فردريك والسلطان(٢) . كما سمعتم من قبل(٣) . ولم يعمل فردريك على ترميم كنائس الأماكن المقدسة أو المدينة المقدسة . وكان يكرم المسلمين ويقربهم اليه ، وأقام نوعا من الألفة معهم . فأشتغل البعض فى خدمته ، وجعل منهم حجابا له كما عين المخصيين منهم حراسا لنسائه ،

---

(١) تطورت قرارات الحرمان فى العصور الوسطى حتى اصبحت على درجتين : قرارات حرمان صغرى تحرم الفرد من أن يؤدى الشعائر والطقوس الكنسية ، وقرارات حرمان كبرى تبعد الفرد تماما من الايمان وتحرمه من جميع المزايا التى يتمتع بها المسيحيون . وفى كلتا الحالتين يكون الجحيم ومصير الفرد المحروم من رحمة الكنيسة وأى شخص يتعاون معه يكون هو الآخر معرضا لتوقيع قرار الحرمان عليه ، راجع ابن واصل : المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٢٤٥ حاشية رقم ١ (المترجم) .

(٢) هو السلطان الكامل محمد (المترجم) .

(٣) l'Estoire d'Eracles, Livre XXXII, ch. VIII, p. 74.

سنة ١٢٢٩

واقتبس كثيرا من عادات المسلمين[١] . وكان يرحب برسل السلطان ويستقبلهم بفرح كبير مما يثير دهشتهم . وكان يمنحهم هدايا كثيرة وقيمة . وغالبا ما كان يرسل الى السلطان هدايا قيمة . وكان السلطان يعامله بالمثل ويرسل له الهدايا مع رسله عندما يلتقى بهم[٢] . وقد أثار ذلك الأمر اشمئزاز بابا روما[٣] وكل المسيحيين . وساد اعتقاد بينهم بأن الامبراطور سوف يعتنق الدين الإسلامى . ولم

(١) يقال أن زملاء رتشارد أشاروا بأنه كان يعتقد فى الإسلام أكثر من اعتقاده بيسوع المسيح ، كما كان له بعض العشيقات من العرب ، انظر متى الباريزى ص ٣٢٦ .

(٢) ارسل سلطان مصر الى الامبراطور خيمة تعبر فى نقشها عن فن رفيع ، فكان منقوش عليها صورة الشمس والقمر وهما فى نظامهما الكونى ليلا ونهارا . وكان هذا النقش مصنوعا بطريقة مؤكدة غير قابلة للخطأ . وبلغ قيمة هذه الخيمة ٢٠ مليون مارك . وهى موجودة ضمن كنوز الملوك بفينسيا . وحدث أن دعا الامبراطور رسل السلطان الى مائدته يوم عيد ماريا المجدلية ، فضلا عن مجموعة من الاساقفة والنبلاء التيوتون واحتفل بهم جميعا ، انظر :
Tritheme, Chronicon Hirsaugiense, année 1232, M. Reinaue, Extraite des historiens arabes, pp. 435-436.
وهذا الكتاب الأخير يشير الى تفاصيل عديدة خاصة بالهدايا المتبادلة بين الامبراطور فردريك والامراء المسلمين .

وكان ضمن الهدايا المتبادلة بين الطرفين أن ارسل فردريك الى السلطان الكامل عدة خيول ومركب من الذهب مرصع بجوهر فاخر . فأراد السلطان أن يرد له هدايا مضاعفة فأرسل له تحفا من الهند واليمن والعراق والشام ومصر وفيها سرج من ذهب وجوهر بعشر آلاف دينار . راجع المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ، ص ٢٦٠ (المترجم) .

(٣) جريجورى التاسع (١٢٢٧ــ١٢٤١ م) (المترجم) .

يكن لأى منهم متأكدا من هذا لأن الامبراطور كان لا يعلم أى الديانات يفضل اعتناقها ، وكان دائما يردد أن موسى مرسل لليهود ، ويسوع المسيح للمسيحيين ومحمد للعرب[1] . فأعتبر المسيحيون أن دلك خيانة كبيرة منه .

الفصل العشـــرون

صليبية نافار وكل مسيحى فرنسا

سنة ١٢٣٩

ص ٥٢٧

أدرك البابا أن فردريك لن يعمل من أجل تخليص الأراضي المقدسة من أيدى المسلمين فأمر وأرسل الى فرنسا وانجلترا والى الأماكن المسيحية الأخرى لحثهم على انقاذ الصليب فيما وراء البحار[2] . وتجدد منح العفو والسماح والرحمة والغفران الذى كان يمنح للفرنج من قبل[3] . ولذا تواجد كثير من الرجال الشجعان والفرسان الماهرين فى

(١) يوجد هذا الاتهام ضمن الخطاب الذى اعلنه البابا جريجورى التاسع ضد فردريك فى أول يوليو عام ١٢٣٩ م . انظر رينالدى عام ١٢٣٩ رقم ٢٦ . وقد اعدت انشودة عن الأعمال السيئة التى فعلها فردريك ، وتم طبعها فى القرن السادس عشر الميلادى .

(٢) تم الدعوة لهذه الحملة الصليبية عام ١٢٣٥ . راجع

Rinaldi, an. 1235, n. 49

(٣) بدأت هده الظاهرة بعد مؤتمر كليرمونت عام ١٠٩٥ م عندما أحس البابا اوربان الثانى أن مشروعه الصليبى فى حاجة الى تأييد من القوى العلمانية فجمع الأساقفة واصدر المجمع قرارا بأن كل =

١٢٣٩ سنة فرنسا ضمن حملة ثيبو الصليبية Thiebauz (١) كونت شامبانى وملك نافار ، بطرس موكلير Pierrez Mauclerz كونت بريتانى ، حنا(٢) واخوته كونت ماسون وعمورى(٣) كونت مونفورت ودوق بورجوانى(٤) . وكونت بار وكونت جوانى(٥) وكونت جراند برى(٦) وكونت سانكير(٧) وسيمون كونت كليرمونت(٨) وراؤل واخوته وسادة بوفيز(٩) وراؤل اخو كونت سواسون ورتشار بيومونت(١٠)

= من يشترك فى الحرب المقدسة تغفر له ذنوبه فضلا عن أن ممتلكاته سوف توضع تحت حماية الكنيسة ورعايتهاطوال مدة غيابهم . راجع سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، القاهرة ١٩٨٢ ، جـ ١ ، ص ١٣٧ (المترجم) .

(١) ثيبود الرابع

(٢) حنا دى بران .

(٣) عمورى السادس .

(٤) هيو الرابع تولى هذا المنصب عام ١٢١٨ م .

(٥) هو وليم الثانى وتولى هذا المنصب عام ١٢٢٣ بعد وفاة اخيه بيير ، واشترك فى حملة القديس لويس على مصر ، ومات عام ١٢٥٥م .

(٦) هنرى السادس ابن هنرى الخامس ، وتولى الحكم عام ١٢٣١ وتوفى عام ١٢٨٧ م .

(٧) لويس الأول ابن وليم اصبح كونتا لسانكير عام ١٢١٨ ، ومات عام ١٢٦٣ م .

(٨) سيمون الثانى بن راؤل الأول كونت كليرمونت ، اختاره القديس لويس عام ١٢٧٠ لينوب عنه فى حكم المملكة اثناء غيابه ، وقد مات عام ١٢٨٦ فى احدى المعارك ضد المسلمين فى غزة .

(٩) اسمه روبرت ، وهو احد قتلة فلورنت الرابع كونت هولندا .

(١٠) اختلف المؤرخون فى تاريخ وفاته بين عامى ١٢٣٩ و ١٢٤٩ انظر : Anselm. t. v. p. 582

١٢٣٩ سنة

وروبرت ملزان ومتى دى مالى[١] وبوتيليه دى سانلى[٢] واتيان دى كويريم[٣] وفيليب دى نانتويل[٤] وجاى دى موفوازان[٥] وجيرار دى أوبفيل[٦] وجيل دى أرسيس . وقد اشترك مع كل هؤلاء معظم فرسان فرنسا الشجعان ، وعدد كبير من الفرسان الآخرين وعامة الشعب . كما ذهب من انجلترا فى هذه الحرب رتشارد أخى ملك انجلترا ، وكونت كورنوول فضلا عن بارونات آخرين وعدد كبير من افراد الشعب الانجليزى . وقد أيد بارونات فرنسا المشتركين فى الحملة الصليبية رأيهم بأن يتحركوا فى شهر أغسطس ، وطلبوا أن يجلب كل فرد معه كل ما يملك من أسلحة وخيول وأشياء أخرى . وعندما اقترب وقت الرحيل تلقوا رسالة من فردريك امبراطور المانيا يؤكد لهم

٥٢٨ ص

(١) متى الثانى دى مارلى ابن متى الأول حاكم مونتمورنسى وسيد مارلى ، مات عام ١٢٤٩ ، انظر : Anselm, t. III, p. 656

(٢) وليم الثانى بوتيليه دى سانلى سيد شانتيلى ، مات طبقا لرأى دوشسن Duchesne فى كتابه « تاريخ الحروب المقدسة » اثناء بعثة ملك نافار الى فلسطين . والكتاب سالف الذكر ليس الا ترجمة فرنسية لكتاب وليم الصورى .

(٣) يطلق عليه فيما بعد فى الفصل ٢٨ اسم دى كارنى ، وهو ينتسب الى اسرة كارنى التى تحالفت فى القرن الرابع عشر مع اسرة فوجى

(٤) كان وفق ما ذكره جوانفيل ضمن الفرسان الذين رافقوا لويس الى الأراضى المقدسة ، انظر : Histoire de France, t. XX, p. 212 وقد وقع فى الأسر وفق ما سوف يتضح فى الفصل ٢٨ .

(٥) جاى الأول دى موفوازان أو ملفوازان سيد روسى .

(٦) وقع هذا الفارس فى أيدى المسلمين عند غزة

استعداده لمشاركتهم ومساعدتهم بكل قوته اذا أجلوا رحيلهم لمدة عام[1] . ولما سمع البارونات وكل شعب فرنسا وحجاجه بهذا العرض ثارت دهشتهم لأنهم كانوا على وشك الرحيل . فعقدوا اجتماعا فيما بينهم وردوا على رسالة فردريك بأنهم سوف ينتظرون عاما آخرا من أجل الحصول على مساعدة كبيرة برا وبحرا من امير مثل امبراطور روما ، رغم الخسائر التى سوف تجلب عليهم وعلى باقى جموع الصليبيين[2] . ولما انتظر البارونات وجموع الصليبيين انتهاء العام واقترب موعد الرحيل تلقوا رسالة من فردريك اخبرهم فيها أنه كان مشغولا للغاية وأنه غير مستعد للرحيل معهم واذا ارادوا انتظاره عاما آخرا سوف يذهب معهم بكل تأكيد ولكن البارونات عقدوا اجتماعا فيما بينهم وانتهوا من مناقشاتهم الى أن الامبراطور يهدف من وراء التأجيل عدم اخراج هذه الجيوش وتفرقها فيما وراء البحار لمحاربة المسلمين لصداقته لهم وحتى لا يخرجوا من تحت سلطانه وسيطرته . ورد البارونات برسالة الى الامبراطور تفيد عدم امكانية الانتظار أكثر من هذا ليتجنبوا الخسائر التى قد تعم عليهم . وذهب المندوب الى فردريك ولكنه لم يسلمه الرد . وقد أجتمع بارونات

(١) ارسل الامبراطور فردريك هذه الرسالة الى ريشار ايرل كورنوول فى ١١ فبراير عام ١٢٣٨ م . ولمراجعة هذا الخطاب راجع : Matthew Paris, op. cit., p. 118 (المترجم) .

(٢) المقصود بهم الصليبيين فى الشرق (المترجم) .

١٢٣٩ وحجاج فرنسا سويا فى مارسيليا فى شهر أغسطس .
سنة وذهب البعض منهم عبر لومبارديا مارا على بوويل Puille .
٥٢٩ وقد استقل المراكب المعدة للسفر كل من ثيبو ملك نافار
ص ومعظم بارونات فرنسا السابق ذكرهم . وكل الحجاج
الآخرين الذين كانوا فى مارسيليا . وقد أعدت قلاع
المراكب للاقلاع للاستفادة من مساعدة الرياح لها .
وتخلف عن الرحيل بعض الفقراء بسبب فقرهم . والبعض
الآخر لمرضهم ، ولحين تماثلهم للشفاء . وقبل أن يصل
أسطول مراكب الحجاج الى عكا بيومين أخبرهم المسئول
عن ادارة الدفة بأنهم سوف يواجهون عاصفة بحرية
شديدة . وقد تفرقت المراكب عن بعضها فى جزر بحرية
مختلفة فى قبرص وصقلية وكورسيكا وسردينا . ولكن
بفضل الرب لم يحدث شيء لأى من هذه المراكب ، ثم
توقفت المراكب فى صقلية حتى تهدأ العاصفة . وعندما
ساد الهدوء البحر صعدوا الى مراكبهم وأقلعوا ، وواصلوا
طريقهم حتى وصلوا مدينة عكا بمساعدة الرياح المعتدلة ،
ولما اجتمعوا فى المدينة ادركوا أن عددهم كثير فأقام
بعضهم داخل المدينة بينما أقام البعض الآخر خارجها .
وهكذا اخذوا قسطا من الراحة والانتعاش بعد
الاضطرابات الشديدة والخوف المتزايد والخطر الكبير الذى
أحاط بهم عبر البحر .

سنة ١٢٣٩

الفصل الحادى والعشرون

كيف حطم المسلمون برج داود ؟

عندما علم المسلمون بوصول اسطول كبير الى عكا ادركوا أن الخطر يحوم حولهم فاجتمعوا بسرعة لجمع المشاة والفرسان ثم ذهبوا الى مدينة القدس فلم يجدوا بها أى معقل سوى برج المدينة المسمى برج داود . وكان الصليبيون قد بدأوا فى تحصين المدينة من ناحية باب القديس اتيان Estienne وبناء أسوار وأبراج صغيرة بما لديهم من الأموال التى جمعوها من التبرعات . ولكن المسلمين دمروا كل ذلك بمجرد وصولهم ووضعوا الحطام على أحد الجبال هناك . ثم اتجهوا الى برج داود وهاجموه بعنف من كل جانب . وقد دافع عنه فئة قليلة من الناس الموجودين به على قدر استطاعتهم مما جعل المسلمون يتقهقرون الى الوراء تاركين البرج . ولم يكن نائب فردريك قد حشد البرج بالناس وأمده باللحم والسلاح والآلات وكل أساليب الدفاع . وقد ادرك المسلمون تماما كل هذه الأمور وادركوا انهم لن يتمكنوا من الاحتفاظ به طويلا لأنه ردىء التجهيز فتحدثوا اليهم وعرضوا عليهم تسليم الجرحى مقابل أن يسمحوا لهم ولأولادهم ولنسائهم وكل ما يمتلكون أن يرحلوا تحت رعايتهم دون أن يتعرض لهم احد . وكان الصليبيون يعلمون جيدا أنه لو دارت معركة بينهم

ص ٥٣٠

١٢٣٩ سنة

وبين المسلمين فلن يتمكنوا من الهرب وسوف يضطرون الى دفع فدية عن أنفسهم حتى لا يقتلوا . وكان الصليبيون بداخل البرج يدركون جيدا عدم تمكنهم من الدفاع عن أنفسهم بسبب افتقارهم للمياه والطعام وأنهم فى يوم ما سيؤخذون أسرى أو يموتون جوعا أو يقتلوا بالسيف . فاتفقوا تقريبا على قبول كل ما عرضه المسلمون عليهم وخرجوا من البرج ورموا كل حاجاتهم فى الخارج . وأرسل المسلمون معهم بعض رجالهم لتوصيلهم وحمايتهم من آية أخطار . وعاملوهم معاملة حسنة ، ولما استولى المسلمون على برج داود عينوا فى الحال عمالا لصهر الحديد المستخدم فى بناء البرج . وكانت كمية الاحجار كبيرة جدا لدرجة أثارت دهشة الجميع وكان البرج مبنيا بناءاً متينا من **الأسمنت** والجير . وكانت الأحجار ملتصقة بعضها الى بعض بواسطة حديد من كل جانب . ولذلك استغرقت عملية الهدم وقتا طويلا ومجهودا كبيرا حتى تمكنوا من هدم البرج كله ، وقد ظل متماسكا تماما منذ بنائه حتى هدمه . فقد عاصر أيام السلم والحرب أيضا التى قامت فى عهد اليهود والمسلمين ، العرب والمسيحيين وكل العناصر الأخرى وحدث هذا عام ١٢٣٩ ميلادية(١) .

---

(١) طبقا لرينو : « مقتطفات المؤرخين العرب » ص ٤٤٠ ، ابو الفدا ص ١١٥ . وقد حدث هذا بعد هزيمة الصليبيين فى غزة ، وأن الملك الناصر داود امير الكرك قد حطم اسوار بيت المقدس وبرج داود الذى كان موجودا من البداية حتى هذا العصر

١٢٣٩ سنة ٥٣١ هـ

وحينئذ كان بابا روما هو جريجورى التاسع ، وأمبراطور روما وملك المانيا وصقلية وبوليا وكالابرو والأراضى المقدسة بالقدس هو فريدريك[١] . وملك فرنسا لويس الرابع[٢] وملك انجلترا هنرى[٣] . وملك نافار وكونت بلاتنيسى صاحب برى وشامبانيا وثيبو[٤] ورئيس الأساقفة هنرى دى ريمز[٥] .

الفصل الثانى والعشرون

كيف اجتمع الصليبيون من أجل الذهاب لحصار عسقلان ؟

سمع الصليبيون فى عكا خبر تحطيم برج داود بمعرفة المسلمين ، فأنتاب الكثير منهم حزنا شديدا ، وعندما نالوا قسطا بسيطا من الراحة بعد ما قاسوه طوال رحلتهم البحرية اتفق البارونات أن ينتظروا يوما واحدا داخل مدينة

(١) فردريك الثانى
(٢) يبدو أنه حدث سهو من المؤرخ فالمقصود هنا هو لويس التاسع (١٢٢٧ـــ١٢٧٠ م) (المترجم) .
(٣) هنرى الثالث
(٤) ثيبو الرابع .
(٥) هنرى الثانى دى بريين رئيس اسافقة رمز من عام ١٢٢٧ حتى عام ١٢٤٠ .

سنة ١٢٣٩

عكا حتى يجتمع كل البارونات الصليبيين والبطارقة وكل بارونات أرض سوريا للنظر فيما يمكنهم عمله حتى يظهروا شجاعة المسيحيين . وعندما حل اليوم التالى اجتمع الرجال الذين أتوا ، فكان منهم ثيبو ملك نافار وكونت دى شامبانى (١) وكل بارونات فرنسا الآخرين الذين سبق ذكر اسمائهم ، غير جنا دى بريتانى وكونت دى ماسون لموتهما . ومن ارض ما وراء البحر كان البطريرك (٢) ورئيس اساقفة صور (٣) واسقف عكا (٤) وكونت جوتييه صاحب

---

(١) تعتبر كونتية شامبانى من أهم كونتيات فرنسا وأغناها ، وكانت تتألف فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى من خمس مقاطعات رئيسية هى جوانى ، جراندبريه ، بورسيان ، ريثيل وروثى . راجع مذكرات جوانفيل ، ترجمة د. حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٢٥ (المترجم) .

(٢) كان يوجد فى هذا العام ايضا بطريرك فى فلسطين . وكان البطريرك جيرود قد مات فى السابع من شهر سبتمبر واختار البابا جريجورى التاسع روبرت اسقف نانت خليفة له . ولكنه لم يتوج الا عام ١٢٤٠ بعد ابطال انتخاب جاك دى فترى .

(٣) طبقا لكتاب « المسيحيين الشرقيين » ، جـ ٣ ص ١٣١٨ كان سيمون رئيس اساقفة صور للمرة الثانية . ومع ذلك فأن بيير دى سرجينس شغل هذا المنصب من قبل . وهذه الوظيفة الاسقفية كانت منذ سنوات عديدة .

(٤) حسب كتاب « المسيحيين الشرقيين » جـ ٣ ص ١٣٣٤ كان رودولف دى تورناى اسقفا لعكا فى الفترة من ١٢٣٠ حتى ١٢٤٤ .

سنة ١٢٣٩ ص ٥٣٢

يافا ورئيس فرسان المعبد[١] ورئيس أسبتارية[٢] نوتردام بالمانيا وآخرين لا نعرف أسمائهم . ولما اجتمعوا معا تناقشوا فيما بينهم مدة طويلة ولكنهم لم يتفقوا وقتئذ وقرروا العودة الى الاجتماع مرة أخرى فى اليوم التالى . ولما اجتمعوا اتفقوا بعد مناقشات كثيرة على التوجه الى دمشق وفرض الحصار عليها لما كانت تتمتع به من مساحة كبيرة وثراء كبير فضلا عن انها كانت مكتظة

---

(١) هو ارمان بريجورد (١٢٣٣ــ١٢٤٤ م) .

وهذه الجماعة تعرف أيضا بأسم فرسان الداويه وهم من أصل فرنسى ، قام بتكوينهم تسعة من السادة الفرنسيين برئاسة هيو دى بايزا وأوضحوا أن هدفهم حماية الحجاج المسيحيين فى بيت المقدس وحماية معبد سليمان ، فضلا عن محاربة الأعداء . واعطاهم الملك بلدوين الثانى منزلا يقيمون به بجوار معبد سليمان عام ١١١٨ م/٥١٢ هـ . وتطورت هذه الجماعة فيما بعد حتى اصبحت قوى يخشى بأسها فى تاريخ الحروب الصليبية ، انظر :

Lacroix, Lachevalerie et les Croisades, Paris, 1887, p. 220; Watson, The story of Jerusalem, London, 1912, p. 184. (المترجم)

(٢) هو كونراد دى ثورنج ابن هرمان الأول صاحب ثورنج وكان يحكم منذ يوليو ١٢٣٩ حتى عام ١٢٤٤ م

والمقصود بهم الفرسان التيوتون الذين اتخذوا نموذج اسبتارية القديس يوحنا الذى انشأت عام ١٠٩٩ م . ويرجع تأسيس هذه الجماعة الى أيام الحملة الصليبية الثالثة وقد زاد نموها بقدوم حملة الالمان عام ١١٩٧ م/٥٩٣ هـ لأن بعض الفرسان الالمان رفضوا العودة الى بلادهم . وقد اعترف البابا انوسنت الثالث بهم كهيئة مستقلة مثل جماعتى الاسبتارية والداوية ، انظر :

Runciman; A History of the crusades, 3 vols, London, 1965, t. III, pp.

(المترجم)

سنة ١٢٣٩

بالناس وبها مؤن طيبة وكنوز كبيرة ولكنهم قرروا قبل الذهاب اليها أن يقصدوا عسقلان الغنية[1] لهدم تحصيناتها والاستيلاء عليها ثم يواصلوا معا زحفهم الى دمشق لثرائها وكنوزها العديدة واتفقوا أن يكون تحركهم يوم عيد جميع القديسين وأخدوا يجهزون انفسهم فسلوا السيوف والسكاكين ، وأعدوا مهماز الخيول وأعد كل فرد نفسه على أحسن ما يرام كل حسب قدرته . وعندما حل اليوم التالى لعيد جميع القديسين وهو عيد كل الموتى[2] خرجوا جميعا وساروا فى الطريق الموصل الى عسقلان وكانوا منظمين فى صفوف عديدة وبلغ عددهم أربعة آلاف فارس على حد قول كثير من الناس ورغم كثرة عدد الصليبيين من مشاة وفرسان ابطال فان كثيرا منهم قد أصابهم التعب فى الطريق لعدم تعودهم عليه . وكان معهم كثير من السادة الأشراف الذين كانوا يتمنون وجود حمار اضافى معهم يستخدمونه فى الركوب وحمل امتعتهم عليه ،

---

(١) عسقلان مدينة بالشام ، من اعمال فلسطين على ساحل البحر المتوسط بين غزة وجبرين ويقال لها عروس الشام وكان المسلمون يرابطون تماما لحراسة الثغر فيها . واشتق اسمها من العساقيل وهو من السراب أو من العسقيل وهو الحجارة الضخمة ، راجع : ياقوت الحموى : معجم البلدان ، حـ ٤ ص ١٢٢ ، البغدادى : مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع ، نشر وتحقيق على محمد البجاوى ، مكة ١٩٥٤ ، حـ ٢ ص ٩٤٠ . (المترجم) .

(٢) ٢ نوفمبر

١٢٣٩ سنة

وقد اتجهوا جميعا الى قلعة الحجاج[١] وفى هذه القلعة تبقى روبرت مالى وحجاج آخرين لعدم امكانهم المسير أكثر من هذا بسبب مرضهم . ثم واصل الآخرون رحلتهم حتى قلعة يافا ، وظلوا بها أربعة أيام .

الفصل الثالث والعشرون

ص ٥٣٣

كيف ذهب الكونت دى بيير الى الحرب ؟

عرف سلطان دمشق[٢] من جواسيسه أن الجيش الصليبى سوف يواصل طريقه ناحية دمشق ليستولى عليها بعد حصار عسقلان ونظرا لأنه كان ينتظر حصارها من يوم لآخر فلم ينسى تجهيزها بكل ما يستطيع من لحم وسلاح وآلات دفاع وكل مستلزمات الناس الموجودين فى المدينة ورجا كثيرا سكان المدينة بأن يستعد كل فرد قادر للدفاع عنها . وطلب منهم أن يجمعوا من المدن المحيطة القمح والشوفان والبسلة والفول والشعير والنبيذ والزيت وكذلك عربات النقل والحديد والفولاذ وعدد كبير من الماشية . وكانت المدينة محصنة بطريقة مدهشة . وحضر

---

(١) هى قلعة ضخمة شرع فرسان الداوية والفرسان التيوتون فى بنائها فى عثليت جنوبى جبل الكرمل عام ١٢١٨ م ، راجع : Runciman, op. cit., III, p. 142 (المترجم) .

(٢) الملك الصالح اسماعيل (المترجم) .

سنة ١٢٣٩

اليها كثير من سكان الحصون المجاورة ممن كانوا لا يستطيعون البقاء فى أماكنهم بسبب خوفهم من الصليبيين ، وقد أحضروا معهم كل مستلزماتهم ، وأرسل سلطان دمشق الى كل اصدقائه يطلب مساعدتهم ويخبرهم أن مدينته مجهزة تماما ضد الصليبيين القادمين . فساعده كل منهم على قدر استطاعته وكان من بينهم رجل كبير يتمتع بالثراء والقوة جمع عددا كبيرا من البقر والجاموس والتفاح والجمال وكثيرا من الحيوانات الأخرى كالثيران . كما أخذ كثيرا من رجال المسلمين من المشاة والفرسان وسار على رأس كل هؤلاء متجها الى دمشق . وظل ليلة فى احدى القلاع وعرفوا أن الجيش الصليبى معسكرا فى يافا . وتم ابلاغ بطرس موكليرك وكونت بريتانى أنه فى مقدوره احراز مكسب كبير فخرج على رأس مائتى من الفرسان وآخرين مسلحين تمكن من جمعهم فى ليلة واحدة وكان فى صحبته بعض ممن يرشدون الطريق وساروا جميعا طوال الليل حتى وصلوا فى اليوم التالى الى أحد الأماكن حيث نصبوا الكمائن وقد قسم الكونت جنوده الى قسمين بطريقة تمكن أى منهما مساعدة الآخر عندما يحيطه الخطر . ولما أشرقت الشمس خرج

ص ٥٣٤

الأتراك من القلعة الموجودين بها ومروا بالمكان الموجود فيه الكونت . ولما لمحهم الكونت بيير موكلير دى بريتانى امتطى فى الحال هو وعساكره صهوة جيادهم لمحاربة

المسلمين . وعندما شاهد الأمير والأتراك الذين معه جموع الصليبيين اعتقدوا بأنهم لو دخلوا المعركة ضدهم لاستولوا على غنائم عديدة . ولذا أخذوا يستشيرون بعضهم لاختيار أفضل الطرق فرأى البعض ضرورة ترك كل ما بحوزتهم من مغانم واسلاب وأن يواصلوا طريقهم ، فيستولى الصليبيون على هذه الغنائم وتكون هناك فرصة كبيرة لرحيلهم دون صعوبة واذا رغبوا فى الاشتباك معهم فسوف يتمكنون جيدا من الدفاع عن انفسهم بصورة افضل بينما عارض البعض الآخر هذا الرأى ورأوا أنه من العار الرحيل دون توجيه ضربة قاضية للصليبيين طالما يملكون عساكر مسلحة تفوق ما عند الصليبيين واتفقوا فيما بينهم أن يذهبوا وفى صحبتهم مغانمهم .

واذا كانت مشيئة الله تهدف الى مساعدتهم فسوف يذهبون رغما عنهم ، ولم يكن المسلمون يرون القسم الثانى من الصليبيين الموجودين هناك ، ولم يعلموا ايضا بالكمائن التى أعدها لهم الكونت اذ أنهم لم يروا الا هؤلاء الذين كانوا مع الكونت ، وكانوا مسرورين لأن عدد الفرنج لم يفوقهم وفق ما كانوا يرون . واتفق المسلمون الذين كانوا يضمون بينهم فرسان ماهرين وشجعان على الرأى الآخر فنظموا أنفسهم فى صفوف ومعهم امتعتهم ، أما حاملى السهام فكانوا فى المقدمة . وهكذا تقدم المسلمون ناحية الصليبيين وتحدث الأمير مع جموعهم الذين كانوا أكثر

١٢٣٩ سنة

٥٣٥ هـ

شجاعة وجرأة فى المكان المنتظر أن تبدأ فيه المعركة ، وكان يرجوهم أن يحاربوا جيدا ويتثبتوا فى اماكنهم بشجاعة وعنف . كما قال لهم أن هذه المعركة لشىء بسيط ويمكنهم أن يأسروا رجالا منهم ويقتلوهم ويقطعوهم مثل الكلاب التى تهاجمهم . ولما اقترب رماة السهام من الصليبيين أصابوا كثيرا منهم ولكن خرج الكونت دى بريتانى ورجالنا لمقابلتهم وضربوهم بمهماز الخيول وأجبروهم على التقهقر الى الوراء ، مثل ما سيحدث كثيرا فى المعارك القادمة ، وتم هذا بسرعة فائقة لأنهم فاجاؤهم من أحد الأماكن الضعيفة مما جعلهم غير قادرين على الحركة والهجوم وكذلك فقدوا مهارتهم فى تصويب المرمى . ورغم ما كان عندهم من أسلحة وسيوف فلم يستعملوها جيدا ، وكان المسلمون يتراجعون أمامنا حتى بدا لنا أنهم يديروا ظهورهم ويعودوا من حيث جاؤا وأظهر راؤل دى سواسون وعساكره شجاعة فائقة . ولولا وجود هذا الكونت وجنوده لقتل الكونت دى بريتانى أو أسر . أما الذين كانوا مكلفين باعداد الكمائن فلم يدروا بأى شىء عن هذه المعركة ورأى الكونت أن جنوده فى خطر كبير ، وأن المسلمين فى إمكانهم أن يفعلوا ما يرغبون فنفخ فى البوق فسمعه جنوده الذين كانوا عند الكمائن فادركوا أنهم مستدعين فركبوا خيولهم وجروا مسرعين ، ودخلوا المعركة بشجاعة مما أثار دهشة الأتراك واستغرق الاشتباك بينهم فترة طويلة وحدثت

١٢٣٩
سنة

خسائر عديدة لدرجة أنه لا يمكن معرفة أى منهما فاق الآخر فى الخسائر وتفرق شمل المسلمين وهربوا ليس الى دمشق وإنما ناحية الحصن وهناك قضوا فترة الليل غافلين عن أى أسلاب أو مغانم ولكن رجالنا اخذوا يطاردوهم حتى دخلوا معهم الحصن وقتلوا كثيرا منهم واوقعوا الآخرين فى الأسر واستولوا على الغنائم التى كسبوها وعادوا بامان حتى يافا حيث يوجد اخوانهم . وفرح الصليبيون هناك كثيرا لما أحضره معهم المنتصرين من الدواب والمؤن الكثيرة التى تكفيهم مدة طويلة ، والأموال التى تجعلهم قادرين على شراء العيش بدينارين . وقدم الكونت كثيرا من الدواب الى بعض باروناته مما أغضب الآخرين لعدم منحهم أى منها . ولذا فقد فعلوا أشياء سيئة تجلب العار والخسارة على المسيحيين ، وعم السرور كثيرا من الفقراء بسبب كميات اللحم التى وصلتهم من الكونت ومن معه تعويضا لهم عما قاسوه . وحدث كل هذا يوم الجمعة من شهر نوفمبر بعد عيد سانت مارتين[١] .

٥٣٦
ص

---

(١) يقع عيد الفصح عام ١٢٣٩ فى يوم ٢٧ مارس ، وعندئذ يجب أن يكون يوم عيد القديس مارتين فى هذه السنة يوم جمعة ، وبناء عليه فأن التقارير الموجودة فى الفصل ٢٣ سوف تكون قد تمت بعد ثمانية ايام من هذا العيد ، والجمعة التالية سوف توافق ١٨ نوفمبر وسوف نرى فيما بعد فى الفصل ٢٩ أن هزيمة غزة وحادثة حملة الكونت دى بريتانى قد تمت طبقا لنصنا يوم الأحد بعد عيد القديس سانت مارتين الموافق ١٢ نوفمبر أى قبل ستة أيام من =

الفصل الرابع والعشرون

كم كان عدد المسماه بابليون [1] ؟

كان سلطان بابليون فى مصر[2] ضمن الأمراء المسلمين الآخرين الذين كانوا يهاجمون الصليبيين فى أرض سوريا[3]

= جهود بطرس دى موكلير . وعندئذ يوجد خطأ فى التاريخ فى احدى الفقرتين . وليس هناك شك أن هزيمة الصليبيين حدثت بعد اسبوع من المعركة المذكورة فى هذا الفصل . ولعل هذا يكون مؤكدا فى الخطاب الذى ذكره متى الباريزى ص ٣٥٨ والسابق الاشارة اليه . وقد اتفق البرت دى تروا فونتان مع مؤرخنا فى الفصل ٢٩ ، وحدد هزيمة غزة فى ١٨ نوفمبر وهو يوم عيد القديس برايس . وكان يجب أن نصحح كذلك هذا النص ونقرأ هنا يوم الجمعة السابقة لعيد القديس سانت مارتين ، انظر :
Guillaume de Nangis, Gesta S. Ludovici, His. de France, t. XX. pp. 238-239

(١) كانت بابليون عاصمة مصر فى العهد البيزنطى واستولى عليها عمرو بن العاص بعد أن انتصر على الحاكم الرومانى المقوقس ، وظل المؤرخون الصليبيون يطلقون هذا الأسم على مصر كلها (المترجم) .

(٢) الملك العادل الثانى وقد تولى حكم مصر بعد وفاة ابيه الملك الكامل محمد عام ١٢٣٨ م واستمر فى الحكم حتى عام ١٢٤٠ عندما استاء امراؤه منه لتحجبه عنهم واشتغاله باللهو عن مصالح الدولة فقبضوا عليه وعزلوه واستدعوا بدلا منه اخاه الصالح نجم الدين ايوب الذى قرر قتله عام ١٢٤٥ ، راجع سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك ، ص ١٢١ــ١٢٢ . جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الاسلامية ، الاسكندرية ١٩٦٧ ، جـ ٢ ، ص ١٢١ (المترجم)

(٣) المقصود بها بلاد الشام (المترجم)

وهو أشدهم قوة وأكثرهم ثراء[١] .

وكان هناك ثلاثة مدن يطلق عليها اسم بابليون . الأولى فى ارض ميزوبيتامبا وهناك كان حقل سانار[٢] . وبنى السلطان برجا للصعود الى السماء[٣] ، وكانت بابليون هذه تقع على نهر كبير يجرى فى أرض ميزوبيتاميا وهو أحد انهار الجنة واسمه الفرات وعلى نهر آخر اسمه شوبار[٤] . وعلى هذا يقال فى مزامير داود « على انهار بابليون »[٥] . وكان ملك بابليون نبوخذ نصر وهذا ما يمكن الرجوع اليه وقراءته فى كتاب الملوك بالانجيل[٦] .

ص ٥٣٧

وبابليون الثانية فى مصر ، وقال البعض كان اسمها ممفيس وقت وجود بنى اسرائيل فى مصر ، وهاتان المدينتان دمرتا واصبحتا مهجورتين تماما لم يسكنهما أى رجل أو امرأة ، وفى هذا المكان من أرض ميزوبيتاميا تسكن انواع

(١) يبدو أن المؤرخ قد خلط بين شخصية الملك الكامل محمد وابنه العادل الثانى عندما وصف الأخير بالقوة والثراء بينما معروف عنه أن امراء بنى ايوب يستأثرن بالحكم فى عهده حتى بلغ الأمر بهم أن يعزلوه وفق ما توضح (المترجم) .

(٢) السنار هو اسم كلدانى قديم أو بابلى وكان يشمل الجزء الجنوبى لهذا الاقليم بين نهرى دجلة والفرات .

(٣) هو برج بابل .

(٤) نهر شوبار أو شابوراس ويسمى اليوم شابار ، مشهور برؤية حزياقيل ويعبر مجرى نهر ميزوبيتاميا ليصب فى نهر الفرات .

(٥) المزامير ، ١٣٦ ، آية (١) .

(٦) كتاب الملوك جـ ١ ، الفصل الرابع ، آية ٢٤ ، ٢٥ ؛ اشعياء : الفصل ١٤ ، آية ٢ ، ارميا : الفصل ٢٧ وآخرين .

عديدة من الحيات والثعابين فضلا عن أطلال الاسوار التى كانت موجودة فى البرج الذى انشأه السلطان من قبل فى هذه البقعة من الأرض[١] . اما عن بابليون الثالثة فيطلق عليها اسم بابليون الجديدة[٢] . وهذه البابليون هى القاهرة حيث توجد حصون بابليون ، وتقع على نهر النيل القادم من الجنة ومن بابليون الجديدة حتى الاسكندرية مسافة ثلاثة ايام سيرا على الاقدام . واربعة ايام من بابليون نفسها حتى دمياط . وكانت بابليون الجديدة وكل اراضى مصر وكل الأراضى المحيطة بها وجزء كبير من أراضى سوريا خاضعة لحكم سيد واحد هو السلطان[٣] .

الفصل الخامس والعشرون

كيف ارسل السلطان جيشه ضد الصليبيين؟

عندما عرف السلطان أن عددا كبيرا من الصليبيين قد وصل الى عكا ، أرسل أفضل جواسيسه ليعرفوا ويبحثوا عن اتجاههم وعددهم . وعندما انجز الجواسيس مهمتهم عادوا الى سيدهم وأخبروه أن الصليبيين

(١) يوجد فى هذا المكان حيوانات عديدة وفى مقدمتها التنين .
(٢) انظر وليم الصورى جـ ١ فصل ١٠ ، ص ٤٥ .
(٣) هذا الفصل مأخوذ من جاك دى فترى ، تاريخ الشرق ، جـ ٣ ص ١١٢٨ .

سوف يتجهون ناحية عسقلان لحصارها وعندئذ جهز السلطان فى الحال عددا كبيرا جدا من الرجال المشاه المسلحين ومن الفرسان ورماة السهام واسند القيادة الى أحد الأتراك الاغنياء الاقوياء ، وهو فارس ماهر وجرىء واسمه ملك الجبل[1] . وامره بأن يعد اتباعه ويجهز حصونهم وقلاعهم بالسلاح لتكون أكثر دفاعا . وقد سلمه خطابات الى كل جهة يذهب اليها ليعاملوه مثل ما يعاملوا السلطان نفسه ، كما أمره أن يتبع القوة مع الصليبيين على قدر استطاعته وكذلك أمره السلطان وجميع من معه بأن يتفانوا فى قتل الصليبيين جميعا باستثناء أولئك الذين يقعون فى الأسر فلابد من ارسالهم مقيدين الى بابليون أو الى القاهرة ليظلوا فى سجنه طوال حياتهم واحضر بالفعل مجموعة من الاسرى وعاملهم بما كان يرغب وتفقد الملك كل املاكه وحصن جيدا كل الحصون وشحنها بعساكر مسلحين وبالات من الحديد والصلب وأحجار ، وأمدها بقمح ودقيق وزيت ولحم مجفف واسهم النفط وكل

---

(١) لا نعتقد أن المؤرخ قصد أن يشير الى شيخ الجبل الاسماعيلى لأنه لم يثبت أن حدث تفاهم أو اتفاق بين الملك العادل الثانى وهذه الطائفة الاسماعيلية ، ويرى د. سعيد عاشور أن الامير ركن الدين بيبرس البندقدارى الصالحى هو الذى تولى قيادة المسلمين ضد الفرنج فى هذه المعركة . وهو غير الامير بيبرس البندقدارى الذى تولى سلطنة المماليك فيما . ولا يتعدى الامر سوى التوافق بين الرجلين فى الاسم والشهرة ، راجع سعيد عاشور : الحركة الصليبيه ، جـ ٢ ص ٩٨٨ ، ح ٣ (المترجم) .

مستلزمات تحصين القلاع وأصدر أوامر شفهية لكل الخاضعين له فى الأراضى الأخرى وطلب منهم فى الحال تجهيز أنفسهم بكل ما يحتاجونه حسب ماجاء فى الخطابات الموجهة اليهم وأنه سوف يرى النار فى المساء[١] . وبالفعل نفذوا كل ما طلب منهم على قدر استطاعتهم وعندئذ صحب كل رجاله الى غزة وهى بالقرب من عسقلان وهناك عسكر جنوده وكان له جواسيس ماهرين داخل معسكر الصليبيين ينقلوا له اخبارهم ، وكل أماكن الممرات والبلاد التى يمرون فيها ولمعرفة أيضا أفضل الطرق للهجوم عليهم دون خسائر فى الرجال ورجاهم كثيرا أن يخبروه فى الحال بكل ما يستجد لهم من اخبار .

(١) للدلالة على انهم نفذوا اوامره ومستعدين للتحرك تحت قيادته (المترجم)

الفصل السادس والعشرون

كيف سار الكونت دى بار ورفاقه الى الحرب ؟

انه فى يوم السبت من شهر نوفمبر بعد عيد القديس سانت مارتين[١] . كان الصليبيون فى يافا بينهم الكونت دى بار وبارونات آخرين من ذوى المقام الرفيع وجميعهم اظهر الغيرة والحسد من كثرة المغانم التى حازها كونت بريتانى بعد انتصاره على المسلمين[٢] فاجتمعوا سويا ورؤا انهم طالما يمتلكون نفس القوة التى كانت لكونت برتيانى بل ربما اكثر منها فمن العار الا يبادروا بتحقيق المكاسب والانتصارات على المسلمين ـــ فاتفقوا جميعا على ما سيتخذ من ترتيبات سوف نذكر اسماؤهم فيما بعد . فقدموا الشوفان للخيول فى ساعة مبكرة وأخذوا يجمعون بعضهم البعض آخر النهار ليعقدوا اجتماعا عاما فيما بينهم . وما لبثوا أن أصبحوا مستعدين تماما للذهاب تجاه عسقلان حيث كان كونت باروعمورى كونت مونفورت ، والكونت جوتييه صاحب يافاو والدوق برجوانى وجبراردى اوبفيل ، وروبرت دى بوقيز ، واتيان دى سيفنج[٣] ،

ص ٥٣٩

(١) يوافق هذا اليوم ١٢ نوفمبر ، ولا يتفق مع ما سبق أن ذكرناه فى حاشية الفصل ٢٤ . راجع تاريخ هرقل ص ٤١٥ حاشية "A"

(٢) انظر ما سبق ص ٧٨ــ٨٩ من الفصل ٢٣ (المترجم) .

(٣) تنتمى هذه الشخصية الى عائلة سانت شرون ، وأصله من شامبانى وحليف لبيت فرجى .

وفليب دى نانتيول ماهى دى مارلى ، وجيل دى أرسيس ، جاى موفوازان ، وليم ليبوتيلييه دى سانلى ، راؤل[١] واخوته ، ريشار دى بيومنت . وبلغ عددهم تقريبا ستمائة فارس كانوا كلهم مجهزين تماما بأسلحتهم الحديدية وخيولهم حتى أظافر أقدامهم ، وكان معهم سبعين فارسا حاملين الرايات فضلا عن رماة السهام وعساكر من الفرسان والمشاة وعدد كبير من المحاربين الذين اتوا من أجل الحصول على المزيد من المكاسب . وبدا تماما لهؤلاء المجتمعين أنهم لابد أن يقوموا بعمل كبير . ورددوا ذلك كل يوم . وكانوا متأكدين من حدوث هذا ما لم يعاقبهم الله على كبريائهم وخطاياهم الأخرى وكان ملك نافار وكونت بريتانى وسيد الداوية[٢] . وسيد اسبتارية القديس حنا[٣] وسيد اسبتارية نوتردام دى المانيا[٤] وآخرين من البارونات الذين لا نعرف اسمائهم ، كانوا قد سمعوا باجتماع هؤلاء

---

(١) راؤل بوتيلير دى سنيل ، هو الابن الثالث لجاى دى اليزابيث سيد ارمنونفيل ومونت سبيلويه ثم منحه جزء من اقطاعية ليسارش عام ١٢٢٨ احتراما لرغبة اسقف باريس وقد مات عام ١٢٥٠ م انظر : Anselm, t. VI, p. 255

(٢) هو ارمون دى بريجورد ، كان رئيسا لجماعة الفرسان الداوية بين عامى ١٢٣٣ــ١٢٤٤ .

(٣) كان رئيس جماعة الفرسان الاسبتارية للقديس حنا ، طبقا لتاريخ هرقل الفصل ٤٩ ، فى ذلك الوقت هو بيير دى فيبى بريد . وأن كتاب فن تصحيح التواريخ يتفق فى أنه لم يصبح سيدا لهذه الجماعة الا عام ١٢٤١ كخليفة لبرتراند دى كومبس .

(٤) هو كونراد دى ثورنج . انظر ما سبق ص ٧٣ ح ٢ (المترجم) .

للذهاب الى الحرب . وسمعوا أيضا ما بدا لهم من نية غير طيبة بما يحملونه من حسد وخبث وكبرياء وطمع فانتابهم الشك فى أن يكون النصر حليفهم ، فامتطوا فى الحال خيولهم ، واتجهوا اليهم حيث كانوا مجتمعين وأنبؤهم بقسوة لما كانوا يرغبون عمله فى هذا المكان . وأخبروهم أن الفزع منتشر فى كل مكان بالمنطقة ، وأن للمسلمين جواسيسهم فى كل الطرقات والممرات ، وأن سلطان بابليون يملك جيشا كبيرا لحماية أراضيه وهو مقيم فى غزة . فاذا رغبوا فى الانتظار الى اليوم التالى يذهب الجميع الى عسقلان . وهناك سيكونون أكثر قربا من اعدائهم وسيعرفون الافضل لمصلحتهم وما ينبغى أن يفعلوه بعد تبادل الرأى والمشورة . أما اذا ساروا بخيولهم كما كانوا يخططون فمن المحتمل أن يحدث لهم مفاجأة سيئة من المسلمين تنتهى إما بقتلهم جميعا أو بوقوعهم فى الأسر . وبهذه الطريقة يلحق بالصليبيين عار كبير وخسائر فادحة . ولكنهم اصروا على ضرورة مواصلة مشروعهم دون تأخير طالما أنهم جاؤا لحرب المسلمين . ولابد من التحرك من اجل الرب وأنهم ذاهبون الى غزة على أن يعودوا فى اليوم التالى الى معسكر عسقلان ، ورغم كثرة الرجاء الموجه اليهم للانتظار قليلا الا أنهم اصموا آذانهم . ولما يئس ملك نافار من اقناعهم منعهم باسم الله وباسم كل المسيحيين وباسمه وانقاذا لأرواحهم وتكفيرا عن خطاياهم التى ارتكبوها عندما كان

رئيسا للجيش الصليبى فى عكا ، وهددهم بانهم اذا لم ينتظروا حتى اليوم التالى ليذهب الجميع معا فانه سيعود مع كل اتباعه إلى معسكرهم ، وعلى الرغم من ذلك فقد اجتمع كل هؤلاء الفرنج واتفقوا على أن يخرج الجيش مبكرا فى اليوم التالى ليواصلوا طريقهم ناحية عسقلان ليلحقوا بمن سبقهم . وفى الحال نفخوا فى البوق ليعلنوا الاستعداد للرحيل مع أول النهار . وهكذا بدؤا يتحركون من اماكنهم مع بداية اليوم التالى فى صفوف منظمة ليواصلوا سيرهم الى عسقلان التى لا تبعد أكثر من مسيرة ست ساعات . وكانوا متلهفين ليعرفوا ما إذا كان فى استطاعتهم سماع اخبار هؤلاء الموجودين فى غزة منذ مساء اليوم السابق . ولكنهم قاسوا كثيرا من التعب والصعوبات التى واجهتهم من قبل أن يصلوا الى عسقلان .

الفصل السابع والعشرون

٥٤١
صـ

كيف جهز المسلمون انفسهم لملاقاة الصليبيين ؟

عندما استعد الكونت دى بار وكل البارونات الآخرين ، الذين حددنا أسماءهم من قبل للذهاب الى الحرب وفق ماذكره. فقد ساروا جميعا فى طريقهم ناحية غزة ، فمروا بعسقلان واتوا جدولا كان حدا فاصلا بين مملكة

بيت المقدس ومصر وكان الليل ممتعا جميلا وكان القمر ساطعا والنجوم متلألأة والسماء يشع منها ضوء جميل ، وعندئذ اخبرهم الكونت جوتييه أنهم بمجرد عبور ذلك الجدول سيجدوا انفسهم امام اعدائهم فى مدينة غزة ، وعليهم أن يجتمعوا للتشاور فيما يجب عمله لأنهم اذا تسرعوا فى العبور فسيكونون فى خطر كبير لأنهم ساروا نحو ثمانى أو تسع ساعات متواصلة ونال التعب منهم ومن خيولهم ، ففكر البعض فى ضرورة العودة الى عسقلان لينتظروا مرور العدو[1] من هناك لأنهم ساروا مسافة دون أن يجدوا اثرا لأعدائهم ودون أن يصيبهم خسائر أو يحدث لهم أى ضرر بينما رأى البعض الآخر أنه من الأفضل أن يعبروا الجدول ويتجهوا الى المراعى الكبيرة الموجودة على مقربة من غزة فسوف يجدون حتما عددا كبيرا من الحيوانات التى أعدها أهالى هذا البلد من أجل الحرب . فى الوقت الذى لا يعتقد فيه أهالى البلد فى أن يعبر الصليبيون هذا الجدول أو يتوقعون ذلك . وفى النهاية اتفق الصليبيون على أن يعبروا الى الناحية الأخرى . فعبر الكونت جوتييه أولا هو ورجاله ، وعندما وصلوا الى الشاطىء انقسموا قسمين ، وفتح جوتييه راية بيضاء ورفعها الى أعلى حتى يراها الآخرون على البعد فيأتوا اليه ليخاطبهم . أما بقية الصليبيين فقد عبروا إما مشيا على

(١) المسلمون (المترجم) .

الأقدام أو على ظهور الخيل . ثم رتبوا انفسهم فى صفوف منتظمة ، وعسكروا فى أحد الاماكن الضيقة المحاطة بالجبال العالية والتى لا تدانيها جبال أخرى فى العلو فى تلك المناطق الخالية من الرمال تماما . وما لبث المرشدون أن اخبروهم بأنهم اصبحوا على مقربة من غزة ومن منطقة المراعى الكبيرة . ولما تأكدوا من هذا اتفقوا على أن يبقوا فى تلك المنطقة لينالوا قسطا من الراحة ، ولراحة خيولهم أيضا . وكان اهالى الناحية قد انصرفوا الى أعمالهم وانطلقت الحيوانات الى الحقول المجاورة وأعد الاغنياء منهم العدة للاستمتاع بما حملوه من مأكولات ، اذ كانوا قد أحضروا معهم الخبز والفراخ الكبيرة واللحم المطبوخ والجبن والفواكه والنبيذ فى قوارير وبراميل حملتها الخيول والعربات . وكان البعض يأكل ، والآخر مستغرق فى النوم والبعض الثالث يشد خيله وسط مظاهر كبرياء وخيلاء طغت عليهم فى الوقت الذى كانوا يشكون فيه أن يجدوا عدوهم فى هذه المنطقة المجاورة والتى كانوا قد عرفوها من قبل . ولعلهم كانوا يدركون جيدا آنذاك أن سيدنا[١] لا يرغب فى أن يخدموه بهذه الطريقة اذ كان الملك[٢] الموجود فى غزة يعرف جيدا من جواسيسه أن هؤلاء المحاربين لن يتمكنوا من الحرب لانهم كانوا مجهدين كثيرا هم وخيولهم قبل أن يصلوا الى المنطقة ، ومن ثم فانه يستطيع أن يفعل

٥٤٢
ص

(١) هو المسيح (المترجم) .

(٢) الامير ركن الدين بيبرس (المترجم) .

بهم ما يشاء . وفكر جيدا أنه فى مقدور رجاله أن يهزموا هذا الجيش الصليبى ويضعفوا من شأنه . وفى الحال اشعل نارا فى أعلى قمة من الاماكن المحيطة ليجبر اتباعه أن يسرعوا فى الحضور اليه بأسلحتهم ، كما ارسل رسل كثيرة الى كل الأماكن لنفس الغرض ، وكان يعلم جيدا أن اتباعه قادرين على رؤية النار . ولما كان مسلموا البلاد المجاورة على دراية تامة بما تعنيه هذه النيران فسرعان ما عرفوا أن مصدرها غزة ، وما لبثوا أن اسرعوا بأسلحتهم بعد أن أخبر بعضهم البعض بضرورة الرحيل مشيا على الأقدام وبالخيول . وقابلوا الرسل فى الطريق . وفى زمن قليل كان البلد[1] مكتظا بالناس القادمين من انحاء البلاد . وعند شروق شمس اليوم التالى كان عند الملك حشد كبير من الناس . وكانت جواسيسه مستمرة فى الذهاب والاياب ناحية الاماكن التى يتواجد بها اتباعنا . اذ كانوا يريدون أن يعرفوا معلومات عن الأماكن التى تعسكر فيها اتباعنا وكيفية معيشتها ، وما لبثوا أن أخبروه أن الصليبيين يعتقدون أنه ليس بوسع المسلمين أن يشكلوا خطرا كبيرا عليهم . ولما تأكد الملك من كل هذه الأمور جمع كل اتباعه وأمدهم بالسلاح ونظمهم فى صفوف ، وأمر رماة السهام والنبال والرماح وافراد المشاه أن يصعدوا جميعا الجبال ويحيطوا برجالنا من كل جانب . ويقذفوهم بالاحجار بقوة وشجاعة ليقتلوهم ويدمروهم وخيولهم .

(١) المقصود بها غزة (المترجم) .

وكان من السهل تنفيذ هذا العمل لأن رجالنا كانوا غير قادرين على الرد ، بينما المسلمين فى أعلى الجبال . وما لبث فرسانهم أن اتجهوا داخل الممر الضيق حيث يوجد رجالنا ولكنهم كانوا غير قادرين على التقهقر للوراء للذهاب الى مكان أوسع ، وهكذا كان اتباعنا فى مكان اشبه ما يكون بالحصن الذى لا يمكن اقتحامه من الأمام أو من الخلف . ولما أعلن الملك أوامره اتجه كل فرد هناك الى المكان المحدد له ، فحدثت ضوضاء شديدة من اصوات الخيول وصرخات الناس والنفخ فى البوق . وبلغ من شدتها أن الفرد لم يعد يسمع أى شيء آخر . وكان ذلك الأمر شيئا ثقيلا بالنسبة لغير المعتادين على مثل تلك الأصوات .

الفصل الثامن والعشرون

كيف هُزم الكونت دى بار ورفاقه ؟

لمحهم الكونت جوتييه صاحب يافا فى البداية ، فأخبر الآخرين فعمد هؤلاء الى سلاحهم توا ، وامتطوا خيولهم وبادروا بالاجتماع لتبادل المشورة فيما ينبغى أن يفعلوه غير أنهم لم يتوصلوا الى اتفاق ، وأبدا الكونت جوتييه صاحب يافا ودوق بورجوانى رأيهما فى أنه ينبغى على الصليبيين أن يتقهقروا الى الخلف وينتظروا المعركة هناك لأن عساكرهم

وخيولهم كانت فى مكان رملى تغوص فيه أرجلهم حتى الركب . وكان على كل فرد منهم أن يواجه اربعة عشر من المسلمين أو أكثر لأن البلد كانت تعج بالمسلمين والأتراك . فضلا عن أسباب عديدة تجعل من الأفضل لهم الأنسحاب للوراء حسبما جرى الاتفاق . أما كونت بار وكونت مونفورت ومعظم البارونات الآخرين هناك فقد كانوا مقتنعين بأستمرار الحرب لأنهم اذا رغبوا فى العودة فلن يتمكنوا من ذلك بسبب كثرة الاتراك المحيطين بهم فى هذه المنطقة وإن نجح أحدهم فى الهرب سواء بحصان أو مشيا على الأقدام فلن يفلت من الموت أو الوقوع فى الأسر غير أن الكونت جوتييه صاحب يافا ودوق برجوانى لم يكونا راغبين فى المخاطرة مع اتباعهم بل اعدوا انفسهم للعودة بسرعة الى عسقلان . ولما رأى الآخرون هذا رجوهم أن يبلغوا ملك نافار واتباعه وجيشه الكبير أن يأتى لنجدتهم بأقصى سرعة ممكنة لأنهم كانوا فى خطر كبير يكاد يقضى عليهم جميعا . فأجاب الملك بأنه سيأتى بمحض ارادته ، ولكنه يرى من الأفضل لهم أن يرجعوا جميعا ليكونوا فى أمان بدلا من تعرضهم للخسارة . وعندئذ رجع كل من دوق برجوانى وكونت جوتييه صاحب يافا ، أما كون مونفورت والآخرون فقد وضعوا أنفسهم فى مأزق خطير عندما بقوا بين صفوف المشاة والفرسان ، فعندما اقترب منهم المسلمون هناك فى الجبال راحوا

يقذفونهم بالحجارة والسهام فى سرعة مذهلة حتى بدت اشبه ما تكون بالمطر المنهمر ، فلم يتمكن الصليبيون من انقاذ انفسهم وقاسوا الكثير وكابدوا ونزلت بهم خسائر فادحة فى رجالهم وخيولهم وعندئذ أمر البارونات اتباعهم من رماة السهام والقسى بأن يبادروا بالضرب والرد على المسلمين ففعلوا . وسرعان ما تقهقر المسلمون الى الوراء لما اصابهم من الخوف والفزع ، وسقط عدد كبير من القتلى من الجانبين ولم يتمكن الملك الذى كان فى الكهف ولا الذين كانوا فى الجبال أن يقتربوا من اتباعنا طالما كان الضرب مستمرا من قبل اتباعنا . على الرغم من أن ضرباتهم لم تكن شديدة لسوء الحظ . ولذلك واصل المسلمون الضرب من كل جهة على اتباعنا . فلما رأى البارونات هذا امتطوا خيولهم واتجهوا ناحية الملك فاستقبلهم المسلمون الذين كانوا يحرسون الممرات الضيقة بالطعن وحدثت معركة كبيرة قتل فيها الكثيرون بوحشية بواسطة السيوف ذات الحدين ، وتشبث المسلمون باماكنهم الضيقة فلم يتمكن الصليبيون من الوصول اليهم وإن تمكنوا فى النهاية وبعد بسالة عظيمة أن يجبروهم على التراجع الى الوراء ليزاحموهم فى تلك الممرات الضيقة ، وعندما نجح اتباعنا فى دخول تلك الأماكن الضيقة سرت موجة من الآسى بين المسلمين فى الوقت الذى لم يتمكن فيه المسلمون على الجبال الاضرار بالصليبيين ، ولو بقى

٥٤٥
ص

الصليبيون هناك فى المكان الفسيح لكان أفضل لهم بكثير لكن كبريائهم دفعهم للخروج فى أثر المسلمين الذين تظاهروا بالهرب . ولما رأى الملك اتباعنا فى هذا المكان الحصين اعتقد انهم سيقيمون دفاعات قوية انتظارا لوصول النجدات اليهم فاستدعى اتباعه وطلب منهم أن يتظاهروا بالهرب حتى يضطر الصليبيون الى الخروج من تلك الأماكن الضيقة التى اختبؤا فيها لمطاردتهم ، وفى نفس الوقت أرسل الملك توا الى اتباعه على الجبال يطلب منهم أن يحلوا محل الصليبيين عند خروجهم من اماكنهم حتى لا يتمكنوا من العودة اليه مرة أخرى ، ثم أخذ هو وكل من كانوا معه طريقهم متظاهرين بالهرب ، فلما لمحهم اتباعنا اعتقدوا أنهم انتصروا واسرعوا بالخروج من الكهوف ، ولكن هذا لم يكن فى صالحهم لأنه عندما تحقق المسلمون على الجبال من خروجهم اسرعوا فى الحال لاحتلال اماكنهم حتى لا يعودا اليها الصليبيون . ولما لمح الملك اتباعنا يهربون بعيداً اسرع مع اتباعه لمطاردتهم فى الوقت الذى بدأ فيه القادمون من الجبال يواجهون اتباعنا الذين اصبحوا محاصرين من المسلمين من الأمام ومن الخلف . وعندئذ عرف اتباعنا بغية اخطائهم التى اوصلتهم الى هذه الحالة وإن جاء الاعتراف متأخرا بعض الشيء ، وحاول بعضهم الدخول فى المعركة بأية صورة ممكنة فى الوقت الذى عاتبهم فيه كونت بار وكونت مونفورت بلطف كبير ، ورجاهم

١٢٣٩
سنة

٥٤٦
صـ

الدفاع عن انفسهم بشجاعة ضد اعدائهم . فقد اصبح الهرب أملا بعيدا ، وبدأت المعركة فعلا واشتد القتال بقسوة واظهر اتباعنا شجاعة فائقة واندفاع كبير . ونظرا لأن المسلمين كانوا يملكون اسلحة كثيرة وتأكدوا كذلك أن خيولنا مصابة بجروح كثيرة ، فقد جردوا سيوفهم واندفعوا من كل جانب ، ولسوء الحظ كان عددنا قليلا ومع ذلك قاوم اتباعنا كثيرا على قدر استطاعتهم ، ولكنهم لم يتمكنوا من الصمود ، فلم يستطيعوا مواصلة المعركة خاصة بعد أن نزل ضدهم من كان على الجبال من المسلمين مما ادى الى هزيمتهم جميعا . أما كونت بار وكونت مونفورت وقليلا من الفرسان والاتباع الآخرين الذين يفكرون الهرب أو التسليم فقد اظهروا شجاعة مثيرة رغم انهم محاطين بكثير من المسلمين . ولم يتمكن أحد من الاقتراب منهم وإنما اكتفوا برميهم بالحراب والسهام . وفى النهاية اصابهم الارهاق الشديد فتقدم المسلمون نحوهم من كل جانب وقتلوا كثيرا منهم واسروا البعض الآخر ، ولا نعرف كثيرا فى هذه المعركة اسماء القتلى أو الأسرى فيما عدا القليل فكان من جملة الاسرى كونت بار(١) . وكونت مونفورت وفيليب كونت نانتيويل

---

(١) طبقا للخطاب المذكور لدى متى الباريزى ص ٣٥٨ فان كونت بار قتل فى المعركة ، أما البرت دى نزوا فونتان فقد ذكر عكس ذلك فى ص ٥٧٢ . فأوضح أنه وقع اسيرا على اثر اصابته بجروح خطيرة . ويذكر تاريخ هرقل ص ٤٦٥ ، فصل ٤٥ ما جاء بنص متى الباريزى .

وجيل كونت دريسس ، بوتيلييه دى سنليس اتيان دى كارنى ، بيير دى فارنى وآخرين لا نعرف اسماءهم ، وقد قيدوا وأرسلوا الى سجون مصر ليسجنوا فى دمياط والقاهرة وبابليون وفى أماكن اخرى من البلاد . وكانت ملابس كثير منهم قد مُزقت واصبحوا فى حالة سيئة . فضلا عن أن المسلمين كانوا يجمعون روث الخيول والحيوانات الأخرى ويقومون بحرقها ليسببوا للأسرى مضايقات كبيرة من وراء استنشاقهم رائحتها . وكان كبار المسلمين وصغارهم يجرون من كل مكان لرؤية الأسرى اثناء سيرهم فى الشوارع[1] .

الفصل التاسع والعشرون

لماذا لم تصل النجدة للصليبيين ؟

لما سمع ملك نافار وكل الجيش الذى كان معسكرا أمام عسقلان بأن اتباعهم الذين اشتبكوا فى المعركة فى حاجة الى نجدة كبيرة بادروا جميعا بحمل سلاحهم وامتطوا صهوة خيولهم تاركين بعض العساكر لحماية مساكنهم . وانتظم

(١) انظر مارينو فى كتابه « مقتطفات للمؤرخين العرب » ص ٤٣٩ــ٤٤٠ . هذا النص الجديد عن هزيمة الصليبيين فى غزة ، والذى يبدو أنه حرر بمعرفة شاهد عيان لا شك فى أنه مطابق لما أورده سانوتو الذى يتظاهر أن الصليبيين قد ابرزوا قليلا من شجاعتهم ضد المسلمين فى المعركة .

جانب منهم فى صفوف واتجهوا ناحية غزة(١) . بل أن قادة اسبتارية نوتردام دى ألمانيا لم ينتظروا الآخرين ، بل بادروا بحمل اسلحتهم وامتطوا صهوة خيولهم دون اضاعة أى وقت ، وذهبوا الى ساحة المعركة لكنهم لم يصلوا فى الوقت المناسب ، اذ كانت المعركة قد انتهت بهزيمة انصارهم ، بعد أن تمكن بعضهم من الهرب الى معسكرهم . وجاء وصول الأخوة الألمان فى هذا الوقت بالذات خيرا لاولئك الفارين من الصليبيين فعندما رأى المسلمون المطاردون لهؤلاء اتجاه الصليبيين نحوهم لم يجرؤا على الانتظار ، بل ولوا مدبرين متجهين الى الطرق الكبيرة التى يقف فيها المسلمون مع اسرى المعركة من الصليبيين . ولكن عندما وصل الأخوة الفرسان من اسبتارية نوتردام دى المانيا حاولوا على قدر الامكان الاشتباك مع المسلمين لمحاولة قتل بعضهم وتخليص الأسرى منهم . ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك ، بل لاحظوا أشياء كثيرة لم تعجبهم إذ رأوا بعض الصليبيين قتلى دون اسلحتهم ، والبعض الآخر تبعثرت أشلاؤهم فوق ارض المعركة ، وبعضهم صرعى ، والباقين منهم جردوا من ملابسهم واستولى عليها المسلمون . ولم يجدوا أحدا منهم على قيد الحياة بأستثناء

(١) هى مدينة فى اقصى الشام من ناحية مصر ، وتبعد عن عسقلان بفرسخين . راجع : ياقوت الحموى ، المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٢٠٢ ، البغدادى: المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٩٩٣ (المترجم) .

أنسو دى ليل[١] الذى كان جريحا ، القى على الأرض مجردا من ملابسه فحمله الصليبيون مع غيره على ظهور خيولهم ، وكان ملك نافار وكثير ممن معه قد واصلوا طريقهم فى الوقت الذى تأكدوا فيه أن الصليبيين قد خسروا المعركة وسقطوا ما بين قتلى وأسرى . ولهذا اجتمعوا ليقرروا ما ينبغى عمله ، وطلبوا كذلك من جماعتى الفرسان الداوية والاسبتارية ومن الأهالى الذين كانوا معهم ابداء الرأى . فأجاب الجميع « بأن المسلمين كسبوا المعركة بالفعل ووقع الصليبيون ما بين اسرى وقتلى ، وأن المسلمين يتميزون بأنهم فى أراضيهم وبلادهم ، وعلى مقربة من معاقلهم ومزارعهم ، ولهذا أظهروا كثيرا من الخيلاء والثقة بالنفس . فاذا اقترب منهم جيش من الصليبيين فسوف يبادرون بقتل كل الأسرى الصليبيين ثم يسارعوا بالذهاب الى معاقلهم وإن أدى ذلك الى خسارتهم لبعض ما كسبوه فى المعركة » . ولما سمع ملك نافار والبارونات هذا الكلام جرى حوار بينهم ليتفقوا على رأى واحد . أما أباء الأسرى فقد أظهروا امتعاضا من عدم تقدم جيش لنجدة ابنائهم ورؤا ضرورة الاسراع بالتقدم الى الامام لمحاولة

٥٤٨
ص

---

(١) كان أنو دى ليل ، حسب كتاب Mouskes (طبعة ادنبرج) جـ ٢ ، ص ٦٠٣ــ٦٠٤ أحد قتلة فلورنت الرابع ، وابن كونت هولندا . انظر كذلك Tillmont جـ ٢ ، ص ٢٣٥ ، وليم دى نانجى : « اعمال القديس لويس » فى مؤرخى فرنسا ، جـ ٢٠ ، ص ٣٢٨ــ٣٢٩

فك أسر ابنائهم . فى حين لم يوافق البعض الآخر على هذا الرأى لأنه اذا تقدم الجيش الصليبى للأمام فسوف يقتل المسلمون كل من معهم من الأسرى . وبعد مناقشات كثيرة اتفق الجميع على التقهقر . وعادوا سويا الى مساكنهم فى عسقلان . وهناك تعالى الصراخ وكثرت الضوضاء من قبل الجميع . وراح البعض يردد أن الجيش الصليبى لم يعد لديه قوة كبيرة لأن كل الفرسان المهرة كانوا إما موتى أو اسرى . وحدثت هذه المغامرة الأليمة فى نفس السنة والشهر الذى حددناه من قبل وهو يوم الأحد[١] بعد عيد القديس مارتين الواقع فى شهر نوفمبر .

الفصل الثلاثون

اغنية فيليب دى نانتيويل المؤلفة فى بابليون

تم ايداع فيليب دى نانتيويل مع الآخرين فى سجن بابليون . وهناك ألف العديد من الأغانى ، ارسل بعضها الى معسكر الصليبيين وسوف نذكر الأغنية لمن يرغب فى الاستماع[٢] .

(١) ١٢ نوفمبر ، انظر تاريخ هرقل ، فصل ٤٤ ، ص ٤١٥ حاشية (A) وكذلك ص ٥٣٦ حاشية (١)

(٢) سبق أن أوضحنا فى المقدمة التحليلية من هذا الكتاب سبب عدم ترجمة هذه الأغنية وغيرها ممن جاءت فى بعض صفحات الكتاب راجع ص ٢٩ـــ٣٠ (المترجم)

الفصل الحادى والثلاثون

كيف عادت القوات الصليبية توا الى عكا ؟

٥٤٩
صـــ

لم يتوصل ملك نافار وكل بارونات الجيش الى رأى أفضل من فك الحصار من حول عسقلان وعدم البقاء أمامها اكثر من ذلك وأن يجبروا كل الموجودين هناك أن يخرجوا فى صباح اليوم التالى كل ما يخصهم . وجرى تنفيذ هذا حسب الأوامر ، وفى الموعد المحدد نظموا صفوفهم ورجعوا الى يافا ومنها وصلوا فى ايام قليلة الى عكا وسط مظاهر البكاء الشديد والصياح الذى لا ينقطع من سكان الأماكن التى كانوا يصلون اليها ويمرون عليها ، بسبب عودتهم دون أن يحققوا أية انتصارات ضد اعدائهم المسلمين تمجيدا للرب وللمسيحيين انفسهم . ولما عادوا الى عكا أقاموا هناك وقتا ثم عادوا سويا عبر الأماكن والمدن الجميلة التى كانت بأيدى الصليبيين متل صور وبيروت وطرابلس وطرطوس فضلا عن المدن الأخرى الجميلة التى لا نعرف اسماءها جيدا، وكل هذه البلاد كانت مكتظة بالناس ، الذين مالوا الى القول أن الذى حدث كان بسبب التكبر والغيرة وذنوب بعض البارونات الذين كانوا يفعلون فى بلادهم كل ما يرغبون . كما كان يقال أيضا أن كل البارونات كانوا يستقبلون رسائل الأمراء المسلمين وعروض خدماتهم ويركنون الى ثنائهم ومديحهم

٥٥٠
صـــ

فضلا عما ردده الوعاظ دائما فى مواعظهم من ذكر اشياء واخبار لم تكن ترضى الرجال العظام بأى حال من الأحوال . ووقف فى معسكر الصليبيين أحد رهبان الفرنسيسكان[1] يسمى وليم وكان مندوبا للبابا ليتقبل الاعترافات من الناس ، وكان يقول دائما فى نهاية وعظه « يا أيها الناس الطيبين صلوا من أجل الرب ليعيد الى الناس الكبار قلوبهم ، لأنهم لاشك فقدوا قلوبهم بسبب خطاياهم ولو أن المسنين من المسيحيين الموجودين هنا كانوا يمتلكون القوة لزحفوا من كل مكان ضد المسلمين حتى يتقبل الله عملهم » وألف بعض المسيحيين أغانى عديدة[2] .

---

(١) شهد بداية القرن الثالث عشر الميلادى ميلاد احد الجماعات الرهبانية وهى جماعة اخوان الفرسيسكان ، ويرجع الفضل فى تأسيسها الى القديس فرنسيس الأسيزى ، وهو ايطالى من مدينة أسيزى . ولم يكن يهدف من نظامه أن يعيش الرهبان داخل اديرتهم منكبين على الصلاة والعبادة ، وتخليص ارواحهم فحسب وإنما الاندماج فى الحياة العامة للوعظ والتبشير والارشاد . وقد انتشرت تعاليم هذه الجماعة واسست الكثير من المدارس بفضل جهود اعضائها . ومازال اثرها موجودا حتى يومنا هذا . راجع جوزيف نسيم : المرجع السابق ص ١٧٦ وكذلك :

Richard, J., The Latin Kingdom of Jerusalem. Oxford, 1979, p. 263

(المترجم) .

(٢) اورد المؤرخ فى هذا الموضع اغنية لاحد المقاتلين الصليبيين المجهولين ، فضلنا حذفها من الترجمة لعدم اهميتها بالنسبة للقارىء ، وهى تدور حول الحسرة الموجودة فى قلب المؤلف لهزيمة الصليبيين وتوسلات الى الله لمنحهم النصر (المترجم) .

الفصل الثانى والثلاثون

الهدنة المنعقدة بين الصليبيين وملك دمشق

ص ٥٥٢

أقام ملك نافار والجيش الصليبي فى طرابلس مع أمير انطاكية ، الذى اظهر لهم احتراما وافرا وادبا عظيما طوال مدة اقامتهم هناك . ثم اتجهوا نحو عكا . فواصلوا طريقهم توا حتى عين صفورية ، حيث أقاموا هناك ، وكان سلطان دمشق[1] وسلطان الكرك[2] يشكان كثيرا فى أن يكون بوسع جيشنا مواصلة تقدمه نحوهم . وكان كل من السلطانين يملك القوة الكافية للدفاع عن اراضيه . فأرسل هذان الحاكمان الى ملك نافار وبارونات المعسكر الصليبى رسالة يطلبان عقد هدنة معهم . فنال هذا العرض اعجاب كثير من الصليبيين ، اذ جاءت هذه الهدنة امانا للطرفين فضلا عن مزايا اخرى منحتها هده الهدنة

---

(١) هو الصالح اسماعيل بن السلطان العادل سيف الدين ، وظل يحكم دمشق خمس سنوات من عام ١٢٤٠ م . وادى ضعفه الى تفكك البيت الأيوبى فى الشام (المترجم) .

(٢) هو الناصر داود بن المعظم عيسى ، تولى حكم دمشق عام ١٢٢٧ م/٦٢٥ هـ خلفا لوالده ولكنه سرعان ما تنازل عنها لعمه الأشرف موسى وعوض عنها بالكرك والبلقاء . لمزيد من التفصيلات راجع : ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ ١٢ ، ص ٤٧٣ــ٤٧٥ ، المقريزى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٦٤ــ٢٦٥ ، ص ٢٧٣ــ٢٧٥ (المترجم)

للصليبيين اذ اعاد اليهم السلطان(١) الحصن المسمى بيوفورت Biaufort (٢) الذى كان تابعا لصاحب صيدا(٣) . ولما ارسل سلطان دمشق قواته لتسليم الحصن

(١) هو الصالح اسماعيل (المترجم) .

(٢) يقع جنوب لبنان بين صور وصيدا ، ويتخذ هذا الحصن شكلا يقترب من المثلث ، ويوجد على امتداده من الناحية الشرقية هوة يبلغ عمقها اكثر من ثلاثمائة متر فى اسفلها يجرى نهر الليطانى . ويوجد بالصخرة المحيطة بالحصن من الناحيتين الجنوبية والغربية خندق عميق بمثابة خط دفاع امامى عن الحصن . ويطلق المؤرخون الاجانب عليه اسم « بلفورت » Belfort بالانجليزية ، وبوفورت Beaufort بالفرنسية . أما المؤرخون العرب يسمونه « شقيف ارنون » . ويذكر ياقوت الحموى أن كلمة ارنون نسبة الى رجل رومى أو فرنجى . واستولى الصليبيون عليه عام ١١٣٩ م/٥٣٤ هـ وظل خاضعا لهم حتى استرده صلاح الدين عام ١١٨٩ م/٥٨٥ هـ ولكن الصالح اسماعيل سلمه الى الصليبيين عام ١٢٤٠ م وظل بأيديهم حتى استرده السلطان الظاهر بيبرس عام ١٢٦٨ م/٦٦٧ هـ ، راجع :

Rey, G., Etude sur les Monuments de l'architecture Militaire des croisées en Syrie et dans l'ile de chypre, Paris, 1871, pp. 27-28; Müller, W., Castles of the crusaders, London, 1966, p. 62; Fedden, R., Syria, London, 1947, p. 187.

راجع ايضا ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٣٠٩ ، ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٧٢٨ (المترجم) .

(٣) جوليان بن باليان (١٢٣٩ــ١٢٦٠ م/٦٣٧ــ٦٥٩ هـ) وهو أحد أفراد اسرة جارنييه . ويعد آخر بارونات صيدا وحصن الشقيف . وكان فارسا شجاعا ، ثقيل الوزن مفتول العضلات ، وكان مشهورا بحبه الشديد للنساء والمقامرة مما أدى الى تراكم الديون عليه وجعله يتنازل عن حكم بارونية صيدا الى جماعة الفرسان الداوية سدادا لديونه . لمزيد من التفصيلات عنه راجع :

الى صاحب صيدا ، امتنع رجال الحامية بالحصن عن تسليمه واصروا على عدم مغادرته واتهموا السلطان بأنه لم يكن امينا ابدا فى الحفاظ على شريعة محمد عندما أراد تسليم الحصن الى هؤلاء الصليبيين الذين وصفوهم بأنهم « كلاب وخنازير لا يعتقدون فى وجود الله » . ونقل هذا الخبر الى السلطان فأتى توا على رأس جيش لدخول الحصن ولكنهم منعوه ايضا من الدخول فأرسل السلطان فى طلب اسلحته وآلات الحصار من دمشق . وعند وصولها فرض حصارا شديدا حول الحصن وبدأت قواته فى الهجوم عليه من جميع الجهات وكان المنجنيق يقذف أحجارا كبيرة الحجم . فلم يبق بداخله غير الأتراك الذين ادركوا عدم امكانياتهم فى الاحتفاظ بالحصن طويلا فضلا عن أنه لن تأتيهم نجدة من أى مكان ، ولهذا طلبوا المفاوضات مع السطان ، وأبلغوه بأستعدادهم لتسليم الحصن بشرط الأبقاء على حياتهم . ولكن السلطان قطع المفاوضات وقال أنه لن يعمل وفق ارادتهم . فإما أن يعيدوا اليه الحصن ويسلموا أنفسهم ليتصرف معهم كما يشاء وإما سيستمر فى الحرب حتى يستولى عليه بالقوة . ففكر المحاصرون فوجدوا أن السطان بوسعه أن يهاجمهم فى أى يوم ويستولى على الحصن بالقوة ويقتلهم جميعا شر قتلة .

≠ Les Gestes des chiprois, cf. R.H.C. Doc. Arm, t. II, p. 775; cf also: Grousset, R., Histoire des croisades. Paris, 1948, t. III, pp. 594-595.

(المترجم)

١٢٤٠
سنة
٥٥٣
هـ

ولهذا ذهبوا إليه مستسلمين لأرادته . وعندئذ قام السلطان بشنق بعضهم وسحلهم وطرد البعض الآخر من بلاده . أما الباقون فقام بحلق نصف لحاهم وهو أقسى احتقار يمكن أن يوجه لهم من قبل السلطان . وعندما استرد السلطان الحصن سلمه الى صاحب صيدا ، فقام بتزويده بالرجال والاسلحة والزاد وكل ما يلزم للدفاع .

الفصل الثالث والثلاثون

كيف عاد الصليبيون لحصار عسقلان ؟

عندما سمع ملك نافار وجميع الصليبيين بأمر هذه الهدنة اتجهوا جميعا الى عسقلان ووجدوا كثيرا من الاحجار الكبيرة والاسوار ، وكان هذا شيئا هاما بالنسبة لمدينة عسقلان . وما يمكن أن يحققوه فيها من مجد . وبـدؤا بتحصين القلعة والابراج المتينة واقامة الخنادق . وبذل كل فرد جهدا كبيرا بمحض ارادته . وأدى ذلك الى نتائج هامة وعظيمة . وعندئذ بـدؤا يتمنون أن يتم انقاذ الصليبيين الذين وقعوا فى الأسر فى معركة غزة ، ووضعوا فى السجن . وكانت الرسالة المرسلة من سلطان دمشق الى البارونات عن طريق سادتهم تتضمن أنه اذا ما رغبوا فى

الاستقرار فى البلد عليهم محاربة سلطان بابليون[1] وعندئذ سوف يساعدهم بقوة رجاله وبالسلاح ، وتقديم المؤن والزاد ، وفضلا عن ذلك وعد الداوية والاسبتارية ومعظم صليبى سوريا بأنه سوف يجلب للمعسكر الصليبى كميات كبيرة من اللحوم اذا ما رغبوا فى حصار أية مدينة مصرية سواء مدينة دمياط أو بابليون أو القاهرة أو أية مدينة أخرى لينال الصليبيون من وراء ذلك شرف وفخار . ووعد سلطان دمشق ايضا بتزويدهم بكل ما يحتاجون اليه . فتشاور ملك نافار وبارونات فرنسا الآخرين الموجودين هناك مع بعضهم البعض ، ولكنهم لم يتوصلوا الى أى اتفاق . واثناء ذلك اتجه ملك نافار مع عدد كبير من اتباعه الى بيت المقدس والقبر المقدس للسيد المسيح والى الاماكن المقدسة الأخرى الموجودة هناك . ثم رجعوا الى القلعة التى حصنوها فى عسقلان .

(١) هو الصالح نجم الدين ايوب (١٢٤٠ــ ١٢٤٩ م/٦٣٨ــ٦٤٧ هـ) (المترجم) .

الفصل الرابع والثلاثون

الهدنة التي عقدها ملك نافار مع سلطان بابليون

لم يمض وقت طويل حتى عقد ملك نافار هدنة مع سلطان بابليون تتضمن أن يعمل ملك الجبل[١] واتباعه على ارجاع الصليبيين الذين تم اسرهم فى غزة ، واطلاق سراحهم . وعندما سمع الصليبيون ذلك أعلن الكثير منهم استياءه وعارضوا عقد هذه الهدنة فى ذلك الوقت بالذات ، اذ يتعين عليهم اولا أن يقوموا بحرب عنيفة ينتقمون فيها للصليبيين الذين اسروا فى غزة وماتوا بها . وأيد فرسان الداوية والاسبتارية ومسيحى الأرض هذا الاتجاه . وأعلنوا أنهم لا يرغبون فى استمرار الهدنة مع سلطان بابليون[٢] أكثر من ذلك . فحدث هرج ومرج وصخب ضد ملك نافار وكان قد أدرك جيدا أن اتباعه غير موافقين وأنهم لم يطيعوا اوامره تماما كما وعدوه عند بداية حضوره الى الأراضى المقدسة . وساوره الشك كثيرا فى أن هذا الأمر قد يجلب عليه عارا كبيرا . فعندما حل المساء

---

(١) انظر ما سبق ص ٨٣ (المترجم) .

(٢) بالنسبة لهذه الهدنة المنعقدة مع سلطان مصر ، انظر تاريخ هرقل ، فصل ٤٩ ، سانوتو ، ص ٢١٦ . وذكر هذان المؤرخان أن ملك نافار عقد هذا السلام بناء على دعوة جماعة الفرسان الداوية . بالرغم من أن مقدم اسبتارية القديس حنا اراد أن يظل وفيا لوعده تجاه سلطان دمشق . انظر متى الباريزى ، ص ٣٧٠ ، ٣٨٤ .

ابحر عائدا على أحد المراكب الى فرنسا[١] . وعندما علم الصليبيون الموجودون هناك بهذا الأمر أخذ كل منهم يفكر ما وسعه الجهد فى بلده وأرضه ويزمع العودة الى فرنسا . واعلن دوق بورجوانى أنه لن يرحل حتى يكتمل بناء التحصينات فى عسقلان بالقدر الذى يحقق للصليبيين الامان فيها . وأوفى بوعده وأقام هناك سنة كاملة .

الفصل الخامس والثلاثون

كيف تم اطلاق سراح المسجونين ؟

٥٥٥
ص

ظل سلطان مصر محافظا على الاتفاق الذى عقده مع ملك نافار[٢] ، فأطلق سراح كل الاسرى الموجودين طرفه ، مثل كونت دى مونتفرات ، فيليب دى نانتيويل ، وآخرين من الفقراء والأغنياء . ورافقهم رسولا من قبل السلطان . وكان ملك نافار قد ارسل الى السلطان من قبل بأطلاق سراح كل الأسرى الموجودين فى كل بلاد مصر الجميلة . وطلب البعض الاستفسار عن الكونت دى

(١) ترك ملك نافار الأراضى المقدسة فى نهاية شهر سبتمبر عام ١٢٤٠ م تقريبا .

(٢) طبقا لفيليب موسكس ، جـ ٢ ، ص ٦٦٩ أن المسلمين قاموا بتسميم الأسرى قبل اطلاق سراحهم .

سنة ١٢٤٠

بار[١] . ولكنهم لم يسمعوا أى أخبار عنه . فالبعض ذكر أن البدو كانوا مراقبين المعركة ، وعندما أيقنوا بهزيمة الصليبيين تقدموا توا لجمع الغنائم طبقا لعادتهم ، واسروا الكونت دى بار بما معه من غنائم . وهذا ما جاء على السنة بعض الناس دون أن يعرف أحد مصير هذا الكونت ، أما الأسرى الآخرين الذين كانوا فى قبضة السلطان فقد تم اطلاق سراحهم بدون أى معارضة .

الفصل السادس والثلاثون

كيف اتجه الكونت رتشارد الى الأراضى المقدسة؟

كان رتشارد[٢] أخى هنرى ملك انجلترا ، من كبار الأمراء الأثرياء فى مملكة انجلترا ، واشترك فى الحروب الصليبية مع عدد كبير من الانجليز ، وعندما علم أن الفرنسيين مشتركين فى هذه الحروب أعد كل قواته للذهاب الى مارسيليا بفرنسا . وهناك ركبوا المراكب والقوارب التى ابحرت مباشرة الى عكا . وعندما وصلوا وخصصت لهم أماكن للأقامة بعكا اتجهوا جميعا الى الطريق الموصل الى عسقلان . وكانوا يحملون معهم اسلحة جيدة . وعندما

ص ٥٥٦

(١) انظر ما سبق فى الفصل ٢٨ ، ص ٩٦ (المترجم) .

(٢) انظر ما سبق تاريخ هرقل ، فصل ٥١ ، ص ٤٢١ — ٤٢٢ ، وخطاب الكونت رتشارد المذكور عند متى الباريزى ص ٣٨٤ .

وصلوها وجدوا بها دوق بورجوانى وكثيرا من أهل البلد الذين كانوا يحرسونها خشية مهاجمتها من قبل المسلمين ، ومحاولاتهم الدائبة لهدم قلعتها(١) . ولم يكن لرتشارد رأى أو نصيحة سوى نقض الهدنة التى عقدها ملك نافار مع المسلمين(٢) . ولكنه ساعد كثيرا بعساكره فى تحصين القلعة ، وانفق عليها كثيرا من امواله الخاصة . وظل هناك مع دوق بورجوانى فترة لاتمام تحصين القلعة وتقويتها . وأمدوها بالمؤن والزاد حتى لا يتعرض أهلها للمعاناة عند أى حصار . فحشد الصليبيون فيها الرجال المسلحين والآلات وأمدوها باللحم والمؤن والزاد وكل ما يلزم ثم اتجهوا للحج الى الأرض المقدسة ، الى بيت المقدس والأماكن

(١) كانت عسقلان تتخذ ملكا للصليبيين وفق ما أوضحناه ــ راجع ما سبق ص ١٠٦ــ١٠٧ (المترجم) .

(٢) يبدو أن المؤرخ كان يكره الدوق رتشارد فنسب اليه هذا الرأى ليشوه صورته امام جموع الصليبيين . فالواقع أننا لا نجد مبررا يجعله يرفض الاتفاقية المبرمة بين ثيبود والسلطان الصالح نجم الدين ايوب ويعمل على نقضها . فقد كانت هذه الاتفاقية فى صالح الصليبيين واستفادوا منها فى تثبيت اقدامهم فى المنطقة ، فضلا عن أنها كانت تعويضا لهم عن الخسائر التى تكبدوها فى موقعة غزة عام ١٢٣٩ م ، فتملكوا بموجبها صفد وهونين وعسقلان وحصن الشقيف . واذا كان ما ذكره مؤرخنا صحيحا لما صدق رتشارد ــ على حد قول رانسيمان ــ على المعاهدة التى عقدها مع سلطان مصر مع الصليبيين عند وصوله الى عسقلان ، ولما طالب الصالح ايوب ، على حد قول د. سعيد عاشور ، باحترام هذه المعاهدة ، راجع : سعيد عاشور ، المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٩٩٣ وكذلك : Runciman, op. cit., t. III, p. 72

المقدسة الأخرى فيما وراء البحار كل بحسب امكانياته . ثم عادوا جميعا الى بلادهم واقاليمهم فى أمان . وبهذه الطريقة لم تسنح لهم الفرصة لممارسة الحرب واظهار شجاعتهم امام كل اتباعهم فى الأرض المقدسة . وكانت الأقاويل قد ترددت عند بداية حضور رتشارد بما سيحققه الصليبيون من مكاسب وشرف كبير للرب وللمسيحيين . وقد حدث هذه الأمور عام ١٢٤٠ من ميلاد سيدنا اثناء حكم البابا والامبراطور والملك الذين تم تحديد اسمائهم من قبل .

الفصل السابع والثلاثون

كيف حُكم على الامبراطور فردريك ؟[١]

وعندما وقعت كل هذه الأحداث فى ارض سوريا كان هناك نزاع كبير بين البابا جريجورى والامبراطور فردريك نتج عنه أن اصدر البابا وجميع المسيحيين قرار الحرمان ضد الامبراطور[٢] . وكان فردريك طاغية ، ليس فقط بالنسبة للبابا وإنما أيضا للقساوسة ورجال الدين وكل

(١) بالنسبة لما ورد فى هذا الفصل وما يتبعه انظر تاريخ هرقل ، فصل ٤٣ ، ٥٣ وما يليه ، ص ٤١٠ ، ٤٢٣ ، وما يليها .

(٢) اصدر البابا جريجورى التاسع قرار الحرمان ضد فردريك فى صيام عام ١٢٣٩ م . انظر متى الباريزى ، ص ٣٢٩ ، تاريخ هرقل ص ٤١ ، حاشية ٢

المخلصين للمسيحية[١] . فكان يؤذى القساوسة فى بلاده ، وأحيانا يسجنهم أو يقتلهم ، وأمر بتعذيب أحد رهبان الفرنسيسكان ، وبسلخ جلد آخر ، وسحل أحد الاساقفة على الأرض ، ثم أمر بشنقه ، كما أمر بطرد العديد من الأساقفة ورؤساء الأساقفة والقساوسة ومقدمى الأديرة وآخرين من رجال الدين خارج البلاد وصادر ممتلكاتهم .

وكان يستولى على ممتلكات الكنائس من كؤوس ومباخر وأغطية الكؤوس وملابس الكنيسة المقدسة ، ويعطيها الى كل من يشارك فى الحرب المقدسة . وكان لا يرغب فى أن يعانى من وجود الاساقفة ورؤساء الأساقفة والقساوسة الموجودين فى انحاء بلاده إلا من يقبل منهم أن يكون فى خدمته ويشاركه ذنبه . ولذلك خلت كثير من الكنائس الموجودة فى بلاده من كل القساوسة والشمامسة الذين يقومون على خدمة الرب . وكان كثير من الكنائس قد حطم أو دمر ، فضلا عن أن أكثر من خمسين اسقفية فى انحاء بلاده كانت خالية من الاساقفة ورؤسائهم . ونظرا لأن كل الأرض كانت متروكة للكفرة[٢] لارتكاب المعاصى بها فلم يكن هناك من يعظ بكلمات سيدنا يسوع المسيح . ومن بقى من الكهنة ورجال الدين تعرضوا للغرامات الكثيرة ، والظلم الكبير حتى أنهم لم

(١) توجد كل هذه الاتهامات فى قرار الحرمان . انظر متى الباريزى ص ٣٣٢ .

(٢) المقصود بهم فى هذا المجال الامبراطور ومعاونوه (المترجم) .

يجدوا ما يسد قوتهم ، فكانوا مكلفين بدفع مبلغ من المال كل شهر لاقامة القلاع والحصون للامبراطور . وكان يجبر رجال الدين بالترافع (فى القضايا) أمام نوابه ، كما يلزمهم بالمساهمة بالاموال فى المعركة وأن يلبوا نداء الحرب عند استدعائهم . وقاسى كثير من رهبان الفرنسيسكان فى بلاده ، ثم قام بطردهم منها بعد ذلك . وعندما كان نواب الامبراطور يستولون على تحف احدى الكنائس كان رجال الدين يقومون بدفع قيمتها ويستردونها ، فيعود هؤلاء النواب ويستولون عليها مرة أخرى فيدفع رجال الدين قيمتها مرة ثانية ، وبهذه الطريقة فقد رجال الدين أموالهم ومتاعهم وجرّد الامبراطور كنيسة روما من كل نفائسها لأنه كان يرغب فى ألا يذهب أى فرد الى روما أو يأتى منها حتى ولو كان فى اجازة خاصة . وكان لا يحافظ على عقيدته ، ولا على يمينه للكنيسة المقدسة . وقد زوج ابنته[١] الى فاتاس[٢] ، اكبر امراء جريفون Griffons الذين طردوا من

(١) آن ، الأبنة الشرعية للامبراطور فردريك ، واخت منفروا ، واسمها الحقيقى كونستانس ، وبعد زواجها من الامبراطور فاتاتزس منحتها الكنيسة اليونانية اسما يونانيا هو آنا Anna . راجع اسمت غنيم : زواج التحالف فى العصور الوسطى ، الاسكندرية ، ١٩٨٦ ، ص ٦٥ (المترجم) .

(٢) هو يوحنا فاتاتزس ، تولى عرش امبراطورية نيقية البيزنطية بعد وفاة مؤسسها ثيودور لاسكاريس عام ١٢٢٢ م . وكان متزوجا من ايرين ابنة هذا الامبراطور . وبعد وفاتها عام ١٢٤١ م تزوج من ابنة فردريك ، ويرجع سبب هذا الزواج الجديد الى اتفاق الامبراطوريين فى عدائهما للبابوية . فكان يوحنا يتمنى أن تعترف =

الكنيسة المقدسة بعد أن صدر ضدهم قرار الحرمان . وكان يحتفظ بالبنات المسيحيات الجميلات ويرسلهم الى سلطان مصر والى الامراء المسلمين الآخرين المخالطين له[١] . وكان لا يفى بالتزاماته مع الكنيسة المقدسة . وكانت الأرض المقدسة فيما وراء البحر لابنه كونراد[٢] .

= البابوية بالكنيسة الشرقية القائمة بالفعل فى عاصمته نيقية على أنها الكنيسة الرئيسية لليونان . وبذلك تفقد الكنيسة اللاتينية بالقسطنطينية اسباب بقائها ومساندة البابوية لها ، وحينئذ يصبح الأمل كبيرا فى أن يعود البيزنطيون الى عاصمتهم القسطنطينية . أما الامبراطور فردريك فكان فى صراع دائم مع البابوية منذ الحملة الصليبية السادسة . ومن هنا قامت العلاقات الودية بين هذين القطبين ، وتطورت الى عقد زواج تحالف مثلما حدث . وقد سبقه عقد اتفاقية بين الطرفين فى عام ١٢٤٤ م تعهد فيها الامبراطور فردريك بأنه سوف يتعاون مع يوحنا من أجل تحرير القسطنطينية من يد اللاتين واعادتها لامبراطورها الشرعى ، لمزيد من التفصيلات راجع : حسنين ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، القاهرة ١٩٨ ، ص ٢٨٠ ، اسمت غنيم ، المرجع السابق ، ص ٣٥ ، ٥٥ ، ٦١ (المترجم) .

(١) انظر متى الباريزى فى احداث ١٢٣٨ م ، ص ٣٢٨ .

(٢) عندما تزوج الامبراطور فريدريك من ايزابيلا وريثة مملكة بيت المقدس زالت وصاية ابيها حنا دى برين . ولكنها لم تثبث أن ماتت فى ابريل عام ١٢٢٨ بعد أن أنجبت ولدا هو صاحب الحق الشرعى فى مملكة بيت المقدس وعلى ذلك اعتبر فريدريك نفسه وصيا على ابنه الصغير كونراد وهو الطفل الذى غدا صاحب مملكة بيت المقدس الصليبية ، راجع : =

سنة ١٢٤٠

واذا كان فردريك قد توج نفسه ملكا[١] فلم يكن يفصح برأى من أجل التخلص من المسلمين ، ولم يضع نفسه فى خدمة سيدنا يسوع المسيح . وكانت كل حروبه تدور ضد الكنيسة المقدسة . وكان يحاصر كل المدن والحصون التابعة للبابا والكنيسة المقدسة . وعندما كان يستولى على ما بداخلها كان يسحل الأهالى ويأمر بشنقهم أو قتلهم بقسوة وبدون رحمة . وكان يصاحبه فى ذلك عدد كبير من المسلمين الذين كانوا يرغبون فى التخلص من المسيحيين على قدر ما يستطيعون[٢] ، وعندما كانوا يدخلون المدن الجميلة كانوا يتخذون من كنائسها مكانا لخيولهم . وكانوا

= Chronique d'Ernoul et de Bernard le tresorier, Paris, 1853, p. 454; Du Cang, op. cit., p. 37; Philip of Navare, The wars of Fredrick II against the Ibelins in Syria and Cyprus, translated by J.L. Lamonte, Columbia, 1935, p. 28.

وكذلك سعيد عاشور : المرجع السابق جـ ٢ ، ص ٩٥٨ (المترجم) .

(١) بعد أن عقد الامبراطور اتفاقية يافا عام ١٢٢٩ مع الملك الكامل محمد وتسلم بمقتضاها بيت المقدس دخل كنيسة القيامة يوم الاحد ١٨ مارس من نفس العام وتوج نفسه بيده بعد أن رفض أحد من رجال الكنيسة تتويج امبراطور محروم من رحمة الكنيسة ، راجع : Ernoul, op. cit., p. 465.

وكذلك سعيد عاشور المرجع السابق جـ ٢ ، ص ٢٧٠ (المترجم) .

(٢) يبدو أن المقصود بالمسلمين هنا هم أحفاد المسلمين الذين كانوا فى صقلية منذ الفتح الاسلامى للجزيرة فى القرن التاسع الميلادى/القرن الثالث الهجرى (المترجم) .

يقومون بهذه الأعمال دون أن يستطيع أحد منعهم ، ولا نستطيع أن نقص كل الخيانات التى كان يفعلها فردريك أو يسمح بفعلها ضد الكنيسة التى فقدت سلطانها تقريبا فى عهده . فاذا اراد البابا مشاورة قساوسة الكنيسة المقدسة كان يدعو لعقد مجمع كبير فى روما غير أن القساوسة الذين يحضرون الاجتماع كانوا غالبا ما يأتون من مملكة فرنسا وأراضى أخرى، وحتى من جنوا عن طريق البحر. لأن أحد منهم لم يكن يجرؤ على الذهاب الى روما برا من شدة الخوف من فردريك، فكانوا يستقلون المراكب للذهاب الى روما بحرا[١] وقد أمر فردريك فى احدى المرات ابنه ملك سردينيا أن يجهز عددا كبيرا من المراكب المسلحة ويأخذ حذره من هروب أى من هؤلاء المتجهين الى الاجتماع فإما أن يقتلوا أو يأخذوا اسرى . ولما كان القساوسة والرهبان قد اتخذوا طريق البحر فقد هاجمهم اتباع فردريك ، فقتلوا البعض وأسروا البعض الآخر . أما القلة منهم ممن لم يقعوا فى الأسر فكانوا اكثر حذرا من الآخرين ونجحوا فى التقهقر ولاذوا بالفرار ، ولكنهم تعرضوا

---

(١) انظر تاريخ **هرقل** ، فصل ٤٣ ، ص ٤١١ــ٤١٢ .

١٢٤٠
سنة

للمطاردة[١] . ولما مثل اسرى الاساقفة والقساوسة واثنين من الكرادلة من كنيسة روما أمام فردريك وكان أحد الكرادلة مندوبا لفرنسا والآخر مندوبا لانجلترا وكانا مصاحبين للاساقفة والقساوسة الذين اسروا عاملهم فردريك بقسوة وأدخلهم السجن . وكان يعمل على نقلهم من مدينة الى اخرى ، ومن سجن الى آخر ليراهم الناس ويستهزؤا بهم ، وارتكب ضدهم افعالا مختلفة مخجلة ، فمات البعض من الجوع والعطش احيانا ، ومن البرد أو

٥٥٩
ص

(١) كان العداء المستحكم بين البابا جريجورى التاسع والامبراطور فردريك الثانى يمثل حلقة فى سلسلة طويلة من الصراعات المريرة بين البابوية والامبراطورية التى استمرت قرن ونصف من الزمان . وكان سبب هذا العداء يرجع الى ازدياد نفوذ الامبراطور فى ايطاليا بشكل هدد ممتلكات البابوية ، فضلا عن مماطلته فى الخروج الى الشرق فأصدر البابا جريجورى التاسع قرار الحرمان ضد الامبراطور فى سبتمبر ١٢٢٧ م . ولكنه عدل عنه فى مؤتمر سان جرمانو عام ١٢٣٠ م عندما استعاد بيت المقدس من الملك الكامل محمد . ولكن البابا اصدر ضده قرار الحرمان للمرة الثانية بعد أن قام الامبراطور بتحريض اهالى روما للثورة ضد البابا . ولما فشل البابا جريجورى فى احراج مركز الامبراطور فى اوروبا بشتى الوسائل فكر فى عقد مجمع دينى فى روما يشترك فيه كبار رجال الدين بالمغرب لانزال اللعنة بالامبراطور . فلما علم الاخير بهذا الامر دبر لفشل مشروع البابا فتصيد السفن التى تنقل اعضاء المجمع وأوقع معظمهم فى الاسر . ولم ينقذهم سوى تهديد لويس التاسع ملك فرنسا بالحرب ضد الامبراطور . راجع :
Philip of Navare, op. cit., pp. 26-42.
وكذلك سعيد عاشور : اوروبا العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٦ ، جـ ١ ، ص ٤٠٠ــ٤٠١ (المترجم)

من الحر احيانا اخرى ، ومن سوء المعاملة ايضا . ولم يمر وقت طويل بعد هذه الاحداث حتى مات البابا جريجورى التاسع[١] ، وكان مطرانا حسنا ، قوى الشخصية . فظلت كنيسة روما مدة طويلة بدون بابا ، ثم اجتمع الكرادلة وانتخبوا رجلا عجوزا اسمه كلستين ونصبوه فى كرسى البابوية[٢] . وهو الذى أكد كل القرارات التى اتخذها البابا من قبل ضد الامبراطور فردريك غير أن هذا البابا لم يعش سوى سبعة وعشرين يوما ثم مات . فظل كرسى البابوية شاغرا مدة طويلة[٣] . وكان المؤيدون لفردريك عندئذ يرددون بأن القساوسة أيتام لأنهم لن يكون لهم بابا على الاطلاق . وكان اليهود أنفسهم يرددون بأن نبوءة دانيال سوف تتحقق طالما أن قديس القديسين[٤] سوف يأتى ويكون معه الوحى[٥] ، ومن كان يطمع فى احراز المكاسب الكبيرة بطريق الرهان كان يؤكد القول بأن المسيحيين لن يكون لهم بابا وأن هذا الوحى الذى تحدث عنه دانيال قد انتهى وأن قديس القديسين سوف يأتى قريبا

---

(١) اغسطس عام ١٢٤١ م .

(٢) كلستين الرابع ، تولى من اكتوبر ١٢٤١ حتى ١٧ نوفمبر ١٢٤١ .

(٣) يرجع السبب فى ذلك الى دسائس الامبراطور فردريك الثانى . راجع سعيد عاشور : المرجع السابق جـ ١ ، ص ٤٠٢ (المترجم) .

(٤) المقصود به السيد المسيح (المترجم) .

(٥) دانيال ، الفصل التاسع ، آية ٢٤ .

أو هو قد أتى فى أى جزء من العالم . وكان المسيحيون أنفسهم يرددون عن القساوسة كلاما سيئا ، فكان فردريك يجذبهم نحوه ويوهمهم بأنه لن يكون لهم بابا على الاطلاق ولهذا عليهم أن ينحازوا الى صفة . ولما طالت مدة بقاء روما بدون بابا اجتمع الكرادلة وانتخبوا رجلا شهما يدعى اينوسينت الرابع[١] فلم يكد يعتلى كرسى البابوية حتى رأى أنه بالتأكيد لن يستطيع الاقامة فى روما لأن المسيحيين لن يتمكنوا من الحضور هناك لأن فردريك شدد الحراسة على الطرق بحرا وبرا مما اعاق المرور . فجهز البابا احدى المراكب واستقلها مختفيا فى الليل وهرب الى جنوا ، وهناك لم يهتم بفردريك لأن هذه المدينة كانت فى طاعة الكنيسة فضلا عن أن اكثر أهلها كانوا من اقاربه . ولحق به الكرادلة وأتباعهم بعد أن اختفوا بسبب الاخطار التى احاطت بهم ، ولكنهم فى النهاية هربوا متجنبين هذه الاخطار . غير أن البابا اصابه المرض مدة طويلة فى جنوا وساد اعتقاد بقرب وفاته ولكن سرعان ما عوفى[٢] . واتجه مع كرادلته وعدد كبير من رفاقه الى ليون على نهر الرون . ولم يتمكن فردريك من منعهم . وعندما اصبح فى ليون دعا لعقد اجتماع كبير يضم الملوك والبطاركة والبارونات وكبار رجال الدين المسيحى وطلب من الجميع إما الحضور

---

(١) انظر تاريخ هرقل ص ٤٢٣ ، حاشية A ، وقد تم الانتخاب فى ٢٥ يونيو ١٢٤٣ .

(٢) انظر تاريخ هرقل ، فصل ٥٣ ، ص ٤٢٣ .

أو ارسال مندوبين عنهم . وعندما انعقد الاجتماع[١] اعلن البابا الحرمان ضد فردريك بعد أن استعرض امام الحاضرين كل ما فعله فردريك من خرق المقدسات وارتكاب الخيانات ضد الكنيسة المقدسة وضد المسيحية . وبأتفاق عام ووسط المجمع الكبير أسقطوا عن فردريك كل حقوق الملك والامبراطور . وأصدر البابا ضده قرار الحرمان . وأمر الجميع بالتحلل من يمين الولاء والطاعة الذى اقسموه له . كما اسقطوا منه حق تحصيل الضرائب ، وأمر باحلال آخر محله بالانتخاب . وبعد ذلك انفض المؤتمر وانتهى[٢] .

ص ٥٦٠

الفصل الثامن والثلاثون

كيف تم انتخاب الحاكم ، ووفاة هذا الحاكم ؟

اجتمع الناخبون فى المانيا سويا وانتخبوا رجلا عظيما ، وقوى الشكيمة هو هنرى[٣] حاكم ثورينجز بالمانيا[٤] ولم يرغب اهالى اكس لاشابل فى تتويجه ملكا على مدينتهم

(١) عام ١٢٤٥ م (المترجم) .

(٢) انظر تاريخ هرقل ، فصل ٥٤ ، ص ٤٢٥ .

(٣) هنرى امير ثورينج . انظر تاريخ هرقل ص ٤٢٥ ، حاشية C .

(٤) المقصود بها ثورينجيا (المترجم) .

سنة ١٢٤٠

لتمسكهم بفردريك وابنه كونراد . وعندما تم انتخاب هنرى ملكا على المانيا خرج كونراد على رأس عدد كبير من اتباعه ، وتوجه ضد الملك هنرى بكل قوته . واندلعت معركة كبيرة بين الطرفين انتهت بهزيمة كونراد وتكبده خسائر جمة . واسر الملك هنرى ورجاله سبعمائة فارس احياء وعددا كبيرا من الرجال العظام . وبذلك فقد كونراد تماما قوته . ولم يكن هناك فرصة للحرب بعد هذه المعركة . وتوفى الملك هنرى قبل تتويجه .

الفصل التاسع والثلاثون

كيف تم تتويج كونت هولندا على اكس ؟

اجتمع الناخبون وانتخبوا كونت هولندا[١] ملكا على المانيا . ولم يرغب سكان اكس لاشابل أن يتعرضوا لأية معاناة داخل مدينتهم من وراء تتويجه ملكا عليهم أو فى أى بلد آخر . وقد اهتم ملك المانيا الجديد باخطار البابا بتعيينه . ورد البابا بارسال كاردينال من قبله يدعى بيير

ص ٥٦١

(١) انتخب وليم كونت هولندا امبراطور عام ١٢٤٧ ، انظر تاريخ هرقل ، فصل ٥٤ ، ص ٤٢٥ــ٤٢٦ .

كابوش[1] ، وكان مندوبا له فى مملكة المانيا . ولما وصل المندوب الى المانيا طالب بوضع صليب على الملابس يربط من الامام عبر الكتف . وتقدم عدد كبير من الناس لمؤازرة الصليبيين[2] لانقاذ البلاد . وعندما تم هذا ، عمل الملك الجديد على أن يُقسم كل اتباعه يمين الولاء للصليبيين واتجهوا لمساعدة اكس لاشابل . وكان هناك عدد كبير من القتلى من الطرفين . وقد انشأ الموجودون داخل المدينة التى يزحف اليها الملك رصيفا كبيرا وعاليا حتى لا تتسرب المياه داخل المدينة . ولكن مع ذلك تسربت المياه داخل المدينة والمنازل والمخازن وملأت الشوارع ، وادى ذلك الى خسائر كبيرة وانتاب الخوف الموجودين فيها لأن المياه جرفت معها لسوء الحظ القاذورات الموجودة فى الحظائر

---

(١) بيير كابوش من روما ، حاصل على لقب دياكر كاردينال سان جورج فى فلابرو ، ولقب القسيس الأكبر لكنيسة مريم العذراء . وكان صديقا مخلصا للبابا اينوسنت الرابع الذى ارسله مندوبا عنه فى المانيا . وحضر مؤتمر ليون ، وفى عام ١٢٤٨ اشترك فى انتخاب وليم امير هولندا امبراطورا . ومات فى روما سنة ١٢٥٩ . انظر كياكونيوس ، المصدر السابق . حياة انوسنت الرابع .

(٢) ليس المقصود بهم اولئك الموجودين فى منطقة الشرق الادنى لتخليص الأراضى المقدسة من ايدى المسلمين ، إنما هم الذين اتخذوا من الصليب رمزا فى حروبهم ضد اتباع كونراد ابن فردريك الثانى والمعارضين لتوليه وليم صاحب هولندا امبراطورا عليهم (المترجم) .

سنة ١٢٤٠

ومن الاماكن الأخرى فى المدينة مما ادى الى اتلاف معظم انحاء المدينة . اذ استمر الحصار ستة اشهر وشعر المحاصرون بأنه ليس فى الامكان وصول أية مساعدات لهم من فردريك فقاموا بتسليم المدينة قبل عيد كل القديسين بسبعة أيام .وعمل الملك الجديد على تحطيم الرصيف ، وأخلى المدينة من المياه وعمل على تنظيفها ودخل المدينة وتم تتويجه فى احتفال كبير . واحتفلوا بعيد كل القديسين بفرح كبير وتم هذا عام ١٢٤٧ من ميلاد سيدنا[١] .

سنة ١٢٤٤

الفصل الأربعون

التتار والخوارزمية

سوف نعود للحديث مرة اخرى عن ارض ما وراء البحر ، ولكننا سنبدأ الحديث بالرجوع قليلا الى الوراء . قبل أن تجرى هذه الأحداث التى اسلفنا الاشارة اليها من قبل ، جاء من الاطراف الشرقية اخلاط من الناس يطلق عليها اسم التتار[٢] ، وكانوا يرددون أنهم إنما خرجوا من

(١) طبقا لكتاب فن بحث التواريخ ، جـ ٣ ص ٢٠٥ ، استولى وليم على اكس لاشابل فى ٢١ اكتوبر عام ١٢٤٨ .

(٢) فيما يتعلق بغزوات التتار انظر تاريخ هرقل ص ٤٢٨ حاشية B .

اراضيهم بناء على طلب آلهتهم . فاجتاحوا كل الأراضى التى عبروها ودمروا طرق المسلمين واليهود والمسيحيين دون أى تفرقة . واجتاحوا البلاد التى مروا بها لأنهم كانوا اعدادا كبيرة من اجناس مختلفة . ولم يكن من السهل أن نصدق كل هذا ولم يكن لهم أية معتقدات[١] ، واجتاحوا فى مدة اربعين عاما أو أقل كل الأراضى الممتدة من بلادهم حتى بلاد فارس وراح ضحيتهم اعدادا كبيرا من الناس وخاصة من المسلمين الذين فاق عدد قتلاهم الآخرين . وربما لا يصدق كثير من الناس كلامنا ويعتبروه خرافة . فقد دمروا مملكة فارس من بين الممالك التى اجتاحوها وطردوا من هذه الأراضى جنسا آخراً من الناس يطلق عليهم اسم

= وكانة امة التتار تعيش على شاطىء بحيرة بويور فى اقصى الشرق من هضبة منغوليا . وهى مختلفة عن قبائل المغول ، وكانت فى نزاع مستمر وحروب دائمة معها . ولما كان التتار اقوياء فقد اصبحت لهم السيطرة على غيرهم من الشعوب . وعم اسم التتار . وحدث نفس الشيء بالنسبة للمغول ، ولما وقع الصدام والقتال بين الجانبين ، وانتهى بانتصار المغول غلب اسم التتار على المغول ويطلق اسم المغول على التتار احيانا . ذلك أن الامبراطورية المغولية ضمت عناصر تتارية وأخرى مغولية وقبائل اخرى . ولكن اهم العناصر كانت شعوب التتار والمغول . واندمجت الفئتان فى امبراطورية واحدة . راجع فايد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول فى الدولة المملوكية الأولى ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص ٢٧ــ٣٠ (المترجم) .

(١) كانوا وثنيين من دون اهل الكتاب (المترجم) .

الخوارزمية[١] . الذين كانوا على نفس دين المصريين ولكن لم يكن لهم نظراء فى تهجمهم وخيانتهم وقسوتهم المتناهية . وواصلوا رحلتهم حتى وصلوا الى سلطان مصر[٢] . ولكن رفض أن يمنحهم موطنا فى ارضه يسكنون فيه فاعطاهم مدينة القدس وارض الميعاد المقدسة حيث يسكنها المسيحيون ، ولم يكن ودودا معهم وان وعدهم بالمساعدة بكل قوته اذا ذهبوا الى هناك أى الى بيت المقدس .

(١) يطلق عليهم هرقل Hoerzemis بينما يسميهم هايتون Corasmini فى حاشية صفحة ٤٢٧ .

وينتمى الخوارزمية الى محمد بن أنوش تكين ، وكان والده مملوكا لأحد امراء البيت السلجوقى ، وقد علا شأنه بين كبار السلاجقة حتى لقب باسم « خوارزم شاه » واسند اليه حكم مدينة خوارزم التى تمتد من بحر قزوين الى بحر آرال بين فارس وبخارى ، ويعتبر المؤسس الحقيقى للدولة الخوارزمية التى بلغت اقصى اتساعها فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) . وقد وجد الخوارزمية فى صراعات البيت الأيوبى فى مصر والشام فرصة طيبة لتقوية نفوذهم فى منطقة الشرق الأدنى على حساب امراء هذا البيت . ولكن لم يأت عام ١٢٤٦ م/٦٤٤ هـ حتى قضى عليهم وتشتت شملهم فانحاز البعض الى المغول والبعض الآخر استأثر نفسه عند الناصر داود صاحب الكرك ، بينما ظل البعض الآخر يخدم كجند مرتزقة عند المماليك فى مصر . لمزيد من التفصيلات راجع النسوى: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ١١ وما بعدها ، حافظ حمدى ، الدولة الخوارزمية والمغول ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ١٩ وما بعدها ، اسامة زيد الخوارزمية ودورهم فى الصراع الصليبى الإسلامى فى عصر بنى أيوب ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، العدد ٣٠ سنة ١٩٨٢ ، ص ٢٤٦ وما بعدها (المترجم) .

(٢) الصالح نجم الدين ايوب (المترجم)

الفصل الحادى والاربعون

كيف هزم المسلمون الصليبيين هزيمة منكرة ؟

عندما علم الخوارزمية[١] بهذه الترتيبات التى اجراها السلطان ، أخذوا نساءهم وأولادهم ومنقولاتهم وسروج خيولهم وذهبوا الى الأرض المقدسة فى اعداد كبيرة من المسلحين المشاة والفرسان . ودخلوا فجأة من ناحية صفورية وطبرية حيث يرابط الصليبيون الذين كانوا لا يدرون وقتئذ عن هذا الأمر على الاطلاق . فراحوا يفرون هنا وهكاك فى انحاء البلاد[٢] ، ووجه الخوارزمية هجوما عنيفا ضد مدينة القدس المقدسة[٣] التى لم يكن لها وقتئذ الا اسوار قليلة غير محصنة . وعندما عرف البطريرك[٤] ورجال الدين فى الأراضى المقدسة بهذه

(١) كانوا بقيادة مقدمهم حسام الدين بركة خان (المترجم) .

(٢) بالنسبة لتحركات الخوارزمية ، انظر رينو « مقتطفات من كتاب المؤرخين العرب » ص ٤٤٥ ، ابو الفدا ، ص ١١٦ وما بعدها .

(٣) فى يوليو ١٢٤٤ م/صفر ٦٤٢ هـ (المترجم) .

(٤) هو روبرت ، تولى منصب البطريرك عام ١٢٤٤ م ، وعندما ازداد حال الصليبيين سوءا نتيجة لازدياد نشاط المسلمين ضدهم ، ارسل الى رجال الدين فى فرنسا وانجلترا يوضح لهم حاجة الأراضى المقدسة للمساعدة . وكان احد الذين شاركوا فى المؤتمر الكنسى الذى عقد فى مدينة ليون بفرنسا (من ٢٨ يونيو الى ١٧ يوليو ١٢٤٥) ، وكان ايضا ضمن الذين توسطوا عند المصريين لاطلاق سراح الملك لويس التاسع بعد وقوعه فى الأسر بعد موقعة المنصورة . وقد توفى فى ٨ يونيو ١٢٥٤ وعمره ثمانين عاما ، راجع : Du Cange, op. cit., p. 729 (المترجم) .

سنة ٥٦٣

الأشياء عقدوا اجتماعا ورأوا أن عددهم القليل بالنسبة للخوارزمية لن يمكنهم من الحرب بمفردهم ضدهم فوافق الجميع على طلب المساعدة من سلطان دمشق(١) وحمص(٢) طبقا للمعاهدة المبرمة بينهما وبين الصليبيين والتى تحتم عليهما مساعدة الصليبيين اذا احتاجوا الدفاع عن اراضيهم ضد كل اعتداء من جانب المسلمين(٣)، وكان عليهم اذن الحضور لمساعدة الصليبيين ضد الخوارزمية الذين هاجموا اراضيهم، وأقسم السلطان ووعدا بانهم سيحضرون لمساعدة الصليبيين. واتفق الصليبيون والسلطانان على أن يعملوا على طرد الخوارزمية خارج أراضيهم أو محاربتهم اذا اصروا على البقاء. وكان الصليبيون داخل القدس يعتقدون أن الخوارزمية الذين هاجموهم بعنف مرات كثيرة سوف يدخلون بالقوة هذه المرة ويقتلونهم جميعا، لذا اجتمعوا معا وكانوا ستة آلاف رجل

(١) الملك الصالح اسماعيل. انظر هرقل ص ٤١٨ حاشية F .

(٢) الملك منصور ابراهيم صاحب حمص منذ عام ١٢٤٠ م.

(٣) لم يرد ذكر مثل هذه الهدنة فى المصادر الاسلامية، كل ما ذكره المؤرخون أن الملك الصالح اسماعيل وحلفائه وعدوا الصليبيين بتسليمهم بيت المقدس وطبرية وغسقلان وكوكب، والسماح لهم بتحصين قلاعهم فضلا عن منحهم جزء من الأراضى المصرية اذا استولوا عليها وذلك بفضل مساعدة الصليبيين لهم ضد سلطان مصر، راجع: ابن واصل: المصدر السابق، جـ ٥، ص ٣٣٢ـ٣٣٣، المقريزى: السلوك جـ ١، ق ٢، ص ٣١٥، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ ٢، ص ٣٢٢ وكذلك: Mattew Paris. op. cit., t. I, p. 497.
(المترجم)

وامرأة وخرجوا من المدينة[١] عبر الجبال قاصدين الذهاب الى ارض مسيحية . وكانوا يثقون ثقة كبيرة فى المعاهدة المنعقدة بين الصليبيين وسلطان الكرك المسمى ليناس Lenas [٢]، وكل المسلمين الموجودين فى هذه الأراضى غير أن مسلمى هذه الأراضى لم يعروا المعاهدة المعقودة مع الصليبيين اهتماما كبيرا . فاجتمعوا من كل جانب وشنوا هجوما عليهم . فقتلوا البعض ، واسروا البعض الآخر حيث باعوهم الواحد تلو الآخر فى اسواق المدن . أما الذين لم يقعوا فى الأسر فقد لاذوا بالفرار ولكنهم اذا كانوا قد هربوا من هذا الخطر فقد لاقوا آخرا فقد قابلهم الخوارزمية فى منطقة الرملة[٣] ، فتقدموا نحوهم

---

(١) بيت المقدس (المترجم) .

(٢) الملك الناصر داود امير الكرك .

(٣) كانت مدينة الرملة احدى المدن الرئيسية الكبرى التابعة لفلسطين ، وهى فى نفس الوقت عاصمة لاقليم فلسطين الجنوبى حتى قبل استيلاء الصليبيين عليها عام ١٠٩٩ م/٤٩٣ هـ ، وكان اهل الشام والمغرب يطلقون عليها اسم فلسطين. وهى تقع شمال غرب القدس ، تبعد عنها بثمانية عشر ميلا . وتبعد المدينة عن الشاطىء بحوالى اربعة كيلومترات . وكلما ازداد الاقتراب من المدينة زادت كثرة الرمال وزاد عمقها لدرجة أن الاقدام تغرس فيها . ومن هنا كان اسم المدينة مشتق من الكلمة العربية الرملة . ويرجع تاريخ بناء هذه المدينة الى الخليفة سليمان بن عبد الملك (٧١٥—٧١٨ م/٩٦—٩٩ هـ) ، راجع الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ٦٤ ، ابن حوقل : صورة الأرض ص ٧١ ، ناصر خسرو ، سفر نامه ، ص ١٩ ، ابو الفدا : تقويم البلدان ، ص ٢٤١ (المترجم) .

واعملوا السيف فيهم . وبهذه الطريقة قتلت الجموع التى خرجت من مدينة القدس ماعدا ثلاثمائة رجل هم الذين وصلوا الى بعض اراضى الصليبيين ، ولكنهم كانوا فى حالة سيئة للغاية . ودخل الخوارزمية بعد ذلك المدينة[١] التى كانت خالية تماما من الناس . وكان بداخل كنيسة القبر المقدس[٢] بعض الصليبيين الذين لم يرغبوا فى الخروج مع الآخرين . فقام الخوارزمية بتقييدهم امام القبر المقدس لسيدنا وقطعوا رقاب القساوسة . بينما كانوا مرتدين الملابس المقدسة ينشدون ويصلون فى مذبح الكنيسة . وبعد هذا حطموا الرخام الذى كان محيطا بقبر سيدنا ، وأخذوا الادوات المقدسة التى كانت بجواره وارسلوها الى المسلمين فى مكة علامة على النصر . وللسخرية من المسيحيين قاموا بنبش مقابر الملوك[٣] ، ونثروا عظامها فى اماكن مختلفة[٤] . كما أنهم دنسوا كثيرا من الاماكن المقدسة ، ليس فقط داخل كنيسة القبر المقدس ولكن فى شتى الاماكن المقدسة فى القدس وفى كل الأراضى المقدسة . وقاموا برذائل عديدة تسيىء الى المسيح نفسه والاماكن المقدسة . ولم يحدث أن أساء المسلمون الى

---

(١) بيت المقدس (المترجم) .
(٢) كنيسة القيامة (المترجم) .
(٣) المقصود بها مقابر ملوك اللاتين الأولى امثال جودفرى وبلدوين وغيرهما (المترجم) .
(٤) انظر فى مقتطفات رينو ص ٤٤٥ فتجد أن النص مطابقا لهذا

المسيحيين الذين كانوا فى الأراضى المقدسة سواء ايام السلم أو الحرب بمثل هذه الصورة[١]. وعندما أتى سلطانا دمشق وحمص بكل قوتهما، اجتمعوا مع صليبى الأرض المقدسة، وأعدوا انفسهم للقتال، واتجهوا فى صفوف منتظمة لمواجهة الخوارزمية فتقهقر هؤلاء سويا للوراء، وعندما احسوا بذلك اتجهوا معا صوب غزة. وهناك ارسل لهم سلطان مصر[٢] عددا كبيرا من الجند المسلحين من المشاة والفرسان لمساعدتهم ضد الصليبيين. وعندما اقترب الجيش الصليبى من غزة رأوا الخوارزمية وجند مصر مستعدين لحربهم. فقسم الصليبيون فرقهم واستعدوا للقتال بطريقة متفق عليها بحيث يبدأ سلطانا دمشق وحمص المعركة أولا فإذا ما اقتربت الاطراف المتحاربة

(١) كان المؤرخ متعاصبا الى حد كبير لبنى جنسه ومبالغا فى وصفه لاعمال الخوارزمية فى بيت المقدس. ورغم أن كثير من المؤرخين الغربيين قد اشاروا الى هده الأفعال فاننا لم نعثر عليها فى بطون المصادر الاسلامية مما يجعلنا نتناولها بحذر شديد (المترجم).

(٢) الصالح نجم الدين أيوب (المترجم).

وتشابكت عندئذ يحارب المسلمون بعضهم بعضا[1] بحيث لا يشفق أى منهم على الآخر ، رغم أنهم ينتمون الى عنصر واحد . ورغم اقدام وشجاعة جيش دمشق وجيش حمص فقد كل منهما عددا كبيرا من اتباعهم سواء بالقتل أو بالأسر . وبهذه الطريقة بقى الصليبيون بمفردهم فى المعركة ، وكان عددهم قليل بالنسبة لأعدائهم ، وبشجاعة فائقة زحف كل من الطرفين ضد الآخر فكانت حربا ضروس لدرجة أن أحدا لم يصدق ما فعلته تلك الفئة القليلة من الصليبيين ضد جموع المسلمين الكبيرة . وعندئذ اجتمع ضدهم الخوارزمية والمصريون ولم يتمكن اتباعنا فى النهاية من مقاومة الاعداد الكبيرة لجيش المسلمين ، فانهزموا ولم يستطع أن يهرب من الفرسان

(١) كان الجيش الصليبى بتكون من ثلاث مجموعات تضمن الجناح الأيمن من جيوش المسلمين بقيادة المنصور ابراهيم صاحب حمص ، وتضمن الجناح الأيسر الفرسان الاسبتارية بقيادة والتر دى برين كونت يافا . بينما كان القلب برئاسة مقدم الداوية ويضم فرسانه وقوات بارونات المملكة اللاتينية . أما الجيش المصرى فقد تكون من مجموعتين : الجناح الأيمن ويضم جموع الخوارزمية بقيادة مقدمهم بركة خان والجناح الأيسر بقيادة الأمير المملوكى ركن الدين بيبرس ، لمزيد من التفصيلات راجع :

King, The Kinghts Hospitallers in the Holy Land, London, 1931, p. 234; Lamb, The Crusades, London, 1931, p. 280; Setton, A History of the Crusades, Philadelphia, 1958; t. II, p. 563; Prawer, Histoire du Royaum Latin de Jerusalem, 2 vols, Paris, 1975. p. 312.

(المترجم) .

الداوية سوى ستة وثلاثين رجلا ، ومن جماعة الفرسان الاسبتارية ستة وعشرين ، وثلاثة من فرسان اسبتارية نوتردام دى المانيا . أما الآخرون فكانوا ما بين قتلى واسرى . وكان معظم الاسرى الصليبيين فى المعركة هم نخبة من كبار السادة الصليبيون ، وفقدوا تقريبا كل رماة السهام والمشاة . واختبأ البطريرك وقادة عكا(١) وفيايب دى مونتفرات(٢) وبعض الهاربين الآخرين من المعركة داخل قلعة عسقلان الجديدة . وكان سادة الاسبتارية(٤) والكونت جوتييه دى بريين(٤) والآخرين الذين تم اسرهم فى المعركة قد سيقوا الى مصر الى مدينة بابليون(٥) . أما البطريرك وبقية الذين هربوا من المعركة واختبؤا فى قلعة عسقلان الجديدة عادوا بحرا الى عكا . واغرق الجميع فى البكاء والصياح . فكان منظرا مؤلما ومؤثرا . وبعد أن احرز

ص ٥٦٥

---

(١) انظر تاريخ هرقل ، فصل ٥٧ ، ص ٤٣٠ .

(٢) انظر هرقل ص ٤٢١ حاشية B .
وكان حاكما لصور بين عامى ١٢٤٠ و ١٢٧٠/٦٣٨ـ٦٦٩ هـ وراح ضحية خناجر الفداوية (المترجم) .

(٣) وليم دى شاتنوف خليفة بيير دى فيل بريد . انظر تاريخ هرقل ص ٤٣٠ وحاشية A .

(٤) انظر تاريخ هرقل ص ٤٣٠ حاشية E .
وكان حاكما على يافا من عامى ١٢٢١ و ١٢٤٦ م/٦١٨ـ٦٤٤ هـ (المترجم) .

(٥) ذكر ابن واصل أن اسرى الفرنج قد وصلوا الى مصر راكبين الجمال والمقدمون منهم على خيولهم ، راجع مفرج الكروب ، جـ ٥ ، ص ٣٣٩ (المترجم) .

الخوارزمية هذا النصر على الصليبيين ذهبوا بخيلاء وكبرياء كبيرة ناحية عكا على بعد ميلين من المدينة واستولوا على الأرض التى كانت فى حوزة الصليبيين وقسموها فيما بينهم بحيث لم يبق للصليبيين سوى القلاع . وطلب جيش سلطان مصر الذى أتى لمساعدة الخوارزمية الامدادات واتجه الجميع لمساعدة القلعة الجديدة لعسقلان[1] . وأظهرت حامية المدينة شجاعة كبيرة لمدة طويلة فى مواجهة اعدائها . وظل الحصار على ما يقرب من عامين بالرغم من أن الموجودين داخل الحصن كان عددهم قليل ، وكثير منهم كان مصابا بالجروح . وكانوا يرون أنهم لن يستطيعوا الحصول على أى نجدة أو مساعدة من الصليبيين فى النواحى القريبة لأن كل منهم كان مشغولا بحماية معقله وما يملك . وعندما رأوا عدم استطاعتهم على المحافظة على المدينة بعد أن يأسوا ومات الكثير منهم ، قررت القلة الاحياء منهم الهروب ليلا عن طريق البحر ، ووصل معظمهم الذين تمكنوا من الهروب الى ارض الصليبيين . وعندما لمح المسلمون هذا ، دخلوا القلعة وسووها بالأرض[2] . أما البطريرك والآخرون الذين هربوا

١٢٤٤ــ١٢٤٨ سنـــــة

(١) بالنسبة لحصار عسقلان انظر كنايات رينو ص ٤٤٦ . وتاريخ هرقل فصل ٥٩ وما يليه ص ٤٣٣ . وكانت عسقلان خاضعة للصليبيين منذ حملة ثيبود الرابع وفق ما توضح من قبل (المترجم) .

(٢) سقطت عسقلان فى ايدى المسلمين عام ١٢٤٧ . انظر تاريخ هرقل ص ٤٣٤ حاشية A .

من المعركة فلم يعرفوا ماذا يفعلون وظلوا يشكون فى امكانية حماية ما فى حوزتهم ، وعندئذ ارسلوا رسالة الى ملك قبرص[١] . وامير انطاكيا[٢] . واخبروهما بسوء الحظ الكبير الذى خيم عليهم وعلى بقية الصليبيين . وطالبوهما بارسال مقاتلين مسلحين لمساعدتهم فى الدفاع عن أنفسهم كما ارسلوا الى اسقف بيروت[٣] . وأرسل آخرين معه الى البابا[٤] ، وملك فرنسا[٥] ، وللملك انجترا[٦] ، والى بارونات آخرين والى مطارنة آخرين للكنيسة المقدسة لاخبارهم بهذه الأمور وطلبوا منهم أن يسرعوا فى ارسال

٥٦٦ ص

(١) بالنسبة للنجدات التى ارسلها ملك قبرص . انظر تاريخ هرقل فصل ٦٠ ص ٤٣٣ . وكانت قبرص عندئذ خاضعة لحكم اسرة لوزجنيان وملكها هنرى الأول (١٢١٨ــ١٢٥٣ م) (المترجم) .

(٢) بوهيموند الخامس (١٢٣٣ــ١٢٥١ م/٦٣٠ــ٦٤٩ هـ) (المترجم) .

(٣) طبقا للمسيحيين الشرقيين ، جـ ٣ كان يسمى هذا الاسقف جولتراتوس أو ولكرانوس . وقد ارسل الى اوروبا من قبل مسيحى الشرق مع احد الواعظين اسمه ارنول لطلب النجدات ، وعرضت الخطابات التى كان يحملها فى الاجتماع الأول لمؤتمر ليون . انظر رينالدى ، عام ١٢٤٥ ، حاشية ٢٨ ، ومتى الباريزى عام ١٢٤٤ ص ٤٢٧ــ٤٢٨ .

(٤) اينوسنت الرابع (١٢٤٣ــ١٢٥٤ م/٦٤١ــ٦٥٢ هـ) (المترجم) .

(٥) القديس لويس التاسع (١٢٢٦ــ١٢٧٠ م/٦٢٣ــ٦٦٩ هـ) (المترجم) .

(٦) هنرى الثالث (١٢١٦ــ١٢٧٢ م/٦١٣ــ٦٧١ هـ) (المترجم) .

نجدة والا سوف يفقدون كل الأراضى المقدسة . وأبحر هؤلاء اثناء فصل الشتاء . ولعل حاجة الصليبيين الكبيرة هى التى دفعتهم لتعريض انفسهم لمخاطر البحر فى فصل الشتاء . فقابلوا فى البحر اخطارا عديدة وضيق النفس . ورغم هذا وصل الجميع الى اهدافهم وسلموا رسائلهم الى البابا والى ملك فرنسا وبقية الآخرين . ولم يجدوا هناك أى مساعدة أو نجدة الا من ملك فرنسا والفرنسيين نقلا عن بعض النجدات الأخرى وفق ما سنوضح فيما بعد . وحدثت هذه الكوارث للمسيحيين عام ١٢٤٤ من ميلاد سيدنا يسوع المسيح . وتمت الهزيمة فى شهر اكتوبر قبل عيد القديس لوقا كاتب الانجيل بيوم[١] .

---

(١) انظر تاريخ هرقل ، فصل ٥٧ ، ص ٤٢٩ . وقد اوضح لنا نص هذه الهزيمة التى لحقت بالصليبيين . وقد اطلق على هذه المعركة التى هزم فيها الصليبيون اسم « معركة غزة » ، وحدثت صباح يوم الاثنين ١٧ اكتوبر عام ١٢٤٤ م/جمادى الأول عام ٦٤٢ هـ . (المترجم)

الفصل الثانى والاربعون

كيف اتجه لويس رابع سلالة هيو كابيه الى ما وراء البحار ؟[١]

فى نفس السنة[٢] ، وفى الوقت والفصل الذى حدث فيه هذه الأحداث المؤلمة فى الأراضى المقدسة وما وراء البحار . أصاب المرض لويس ملك فرنسا ، وهو رابع سلالة كابيه[٣] وكان مرضه شديد الخطورة ، فطلب الأعتراف[٤] . واتخذت كل اجراءات الموت حسب طقوس الكنيسة المسيحية الواجب اتخاذها عند احتضار المسيحيين المخلصين . وأوصى الملك بوصيته وقسم كثيرا من ممتلكاته ، وألح على اخوته فى الرجاء[٥] بأن يعتنوا

---

(١) هو لويس التاسع ملك فرنسا (١٢٢٦ــ١٢٧٠) (المترجم) .

(٢) عام ١٢٤٤ م (المترجم) .

(٣) انتهى البيت الكارولنجى بوفاة لويس الخامس عام ٩٨٧ م دون أن يترك وريثا ، وتوج هيو كابيه ملكا على فرنسا فى ذات العام مؤسسا اسرة حديدة هى اسرة آل كابيه ، راجع : سعيد عاشور ، اوروبا العصور الوسطى ، جـ ١ ص ٢٥٠ (المترجم) .

(٤) يعنى الاعتراف بما اقترفه من ذنوب حتى يجد الخلاص فى الآخرة (المترجم) .

(٥) هم روبرت كونت دارتوا ، الفونس كونت بواتييه وشارل كونت دانجو . راجع جوانفيل : القديس لويس ، ترجمة د. حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٧٥ (المترجم) .

بزوجته[1] وأولاده صغار السن . ولما انتهى من ذلك اشتد عليه المرض واعتقد الجميع فى أحد الأيام أنه فارق الحياة[2] فبدأوا فى الصياح والبكاء . ولم يفعل ذلك رجاله ومن كان معه من الأعوان فحسب وإنما فعله كل افراد مدينة بونتواز[3] . ولم يبق عندئذ رجل مسيحى أو امرأة مسيحية لم يحزن على الملك حزنا صادقا . غير أن الملك ظل مدة طويلة لا يبدى حراكا أو كلاما ، ثم عادت اليه الحياة من جديد كما اراد الرب . وعلى اثر ذلك طلب الملك من اسقف باريس[4] الذى كان حاضرا معه أن يعطيه الصليب للذهاب الى ما وراء البحر . وعندما سمع الاسقف هذا الكلام والآخرون الذين كانوا حاضرين ثارت دهشتهم ، لأنهم كانوا قد أيقنوا بوفاته واعتقدوا أنه خرج

٥٦٧ ص

(١) هى مرجريت ابنة ريموند برنجيه كونت بروفانس . وقد تزوج لويس التاسع منها عام ١٢٣٤ ورافقته فى حملاته على مصر والشام . راجع جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على بلاد الشام ، ص ٥١ ، ح ١ (المترجم) .

(٢) انظر تاريخ هرقل ، فصل ٥٨ ، ص ٤٣١ـ٤٣٢ والحواشى ..

(٣) سقط القديس لويس مريضا فى مدينة بونتواز طبقا لآراء معظم المؤرخين . أما Guiart يرى عكس ذلك ، ويذكر أنه مرض فى موبيسون . انظر تيلمونت ، جـ ٢ ، ص ٥٨ . ولكننا نرى أنه مرض فى باريس وفق ما ذكره جوانفيل ، راجع جوانفيل ، ترجمة د. حسن حبشى . (المترجم) .

(٤) هو وليم الثالث المعروف باسم Auvergne وكان اسقفا لمدينة باريس من سنة ١٢٢٨ حتى سنة ١٢٤٨ م (المترجم) .

من ذلك القرن[١] . وعندئذ اعطاه اسقف باريس الصليب ، فتناوله الملك وأمر فى الحال بأن يعلق على ملابسه . وأعد الرجال الذين كانوا معه ومنهم الكونت دارتوا واخوته وآخرون انفسهم للاشتراك فى الحملة الصليبية . ولم يتبطأ أحد بعد شفاء الملك فى اعداد نفسه لهذه الحرب . وطلب الملك من البابا فى روما[٢] أن يرسل مندوبا عنه الى فرنسا ليعظ شعب المملكة الفرنسية ، وتكون عظاته ونصائحه هداية له فى طريقه الى الشرق . وعندئذ ارسل البابا مندوبا عنه الى فرنسا يدعى أود Heud صاحب حصن راؤل[٣] ، الذى كان اسقفا لتوسكانيا وكاردينالا لكنيسة روما . ولما شرع فى وعظ الصليبيين وتقديم النصح لهم ادرك الفرنسيون أن الملك نفسه قد أصبح ضمن الصليبيين ، ولهذا لم يبق بارون أو رجل عظيم لم يشترك فى الحملة الصليبية عدا واحد فقط هو ثيبود[٤] ملك نافار الذى كان كونتا لشامبانيا . وبادر الكثير من شعب فرنسا بالاشتراك فى هذه الحملة الصليبية . ورأى اساقفة فرنسا أن الأراضى المقدسة فيما وراء البحار كانت فى حاجة الى مساعدة كبيرة . وانه من المناسب أن ينفق

---

(١) القرن الثالث عشر الميلادى (المترجم) .

(٢) انوسنت الرابع (١٢٤٣ـ١٢٥٤ م) (المترجم) .

(٣) أود صاحب شاتلروت Chatellerault ، انظر تاريخ هرقل ص ٤٢٦ ، حاشية h .

(٤) ثيبود الرابع ملك نافار . انظر تاريخ هرقل ص ٤١٣ حاشية B .

الملك كثيرا من اجل تحقيق هذه المساعدة . ووعد الجميع بتقديم عشر التبرعات التى تمنح للكنائس فى كل انحاء المملكة لمدة ثلاث سنوات[1] . وهكذا كانت مشيئة سيدنا يسوع المسيح عندما وصل الى فرنسا اسقف بيروت ورسل المسيحيين الآخرين فيما وراء البحار ليجدوا الملك وكثيرا من شعب فرنسا قد انضموا الى الصليبيين الذاهبين الى الأراضى المقدسة . ولما ايقنوا باستعداد الملك والصليبيين للابحار اصطحبوهم وذهبوا سويا . واتخذ الملك طريق الى مدينة ليون على نهر الرون وهناك تحدث الى البابا وحصل منه على البركة[2] ، ومن ليون اتجه الجميع الى اجمورت[3] لعبور البحر من هناك وذلك خلال شهر اغسطس . وهناك كانت السفن جاهزة ، وقد امتلأت بعدد كبير من رجال الدين وبارونات الصليبيين . وركب الملك سفينته التى اقلعت ونشرت اشرعتها فى يوم

سنة ١٢٤٨

ص ٥٦٨

---

(١) انظر حول هذا الموضوع متى الباريزى وتحليلات مؤتمر ليون عام ١٢٤٥ م فى طبعة جـ ١١ ، ص ٦٥٥ ، وتيلمونت جـ ٣ ص ٨٤ــ٨٥ و ص ١١٥ــ١١٦ .

(٢) ساهم البابا انوسنت الرابع فى الدعوة لهذه الحملة الصليبية ، واصدر عدة مراسيم لحث الناس على الأشتراك فيها كما وعد كل من يحمل الصليب بالغفران التام لكل خطاياه وذنوبه . راجع جوزيف نسيم : المرجع السابق ص ٤٩ (المترجم) .

(٨) تقع ميناء اجمورت جنوبى فرنسا (المترجم) .

عيد القديس اوغسطين[1] للابحار مباشرة الى جزيرة قبرص . وعندما حل موعد صلاة العصر يوم عيد القديس لامبرت[2] قابلوا الكونت شارل دانجو[3] ، أخى الملك لويس ، الذى كان قد وصل الى ميناء ليمسول بقبرص[4] ونزل برا مع زوجته وأتباعه . وفى نفس الليلة وصل الملك الى ذلك الميناء ثم نزل الى البر فى اليوم التالى مع زوجته الملكة واتباعه ، وفى وقت صلاة الصباح تقريبا وصل الى ذات الميناء روبرت ، كونت أرتوا ، أخى ملك فرنسا ، ونزل هو واتباعه الى البر وعمت الفرحة الجميع . وعندما رأوا لقاء الأخوة الثلاثة وهم فى صحة جيدة . ووفقا لرأى المندوب البابوى وكبار رجال الدين المصاحبين اتفق الجميع على أن يقيموا فى هذه الجزيرة حتى يصل كل الصليبيين .

---

(١) يوافق هذا العيد ٢٨ اغسطس . وذكر هذا التاريخ أيضا مؤرخون آخرون ، انظر تيلمونت جـ ٣ ص ٢١٠ .

(٢) يوافق هذا العيد يوم ١٧ سبتمبر . انظر سانوتو ص ٢١٨ .

(٣) شارل كونت انجو وبروفانس . انظر تاريخ هرقل ص ٤٣٩ ، حاشية E .

(٤) تقع ليمسول جنوبى قبرص (المترجم) .

وظلوا هناك فعلا حتى يوم عيد الصعود[١] . واجتمع الصليبيون من أهل الجزيرة ذاتها ، واتفق الجميع على الذهاب سويا لملاقاة اعداء يسوع المسيح . وجرت هذه الأحداث فى شهر سبتمبر عام ١٢٤٨ من ميلاد سيدنا يسوع المسيح .



(١) اختلفت الروايات حول تاريخ ابحار الفرنج من جزيرة قبرص فيذكر هرقل انهم ابحروا يوم الخميس ٢٠ مايو عام ١٢٤٩ ، بينما يذكر جوانفيل أن ذلك كان يوم السبت ٢٢ مايو ، راجع :

Eracles, cf. R.H.C.-H.OCC., t. II., p. 437.

وكذلك جوانفيل ، ترجمة د. حسن حبشى ص ٩٠ ، ويعلل الدكتور جوزيف سبب هذا الخلاف الى قيام الحملة على دفعات فى فترات متفاوتة . راجع جوزيف نسيم : المرجع السابق ، ص ٥٥ ح ٤ (المترجم) .

الفصل الثالث والأربعون

كيف سلم الرب مدينة دمياط الى الملك لويس ؟[١]

« من حنا سارازان[٢] حاجب الملك الفرنسى الى السيد نيقولا هرود[٣]، لك التحية والتمنيات بالصحة . وأعرفكم

(١) تضمن هذا الفصل وما يليه من الفصول الأخرى حتى الفصل الحادى والستين نص الخطاب الموجه من حنا سارازان الى نيقولا هارود بشأن استيلاء الصليبيين على دمياط (المترجم) .

(٢) كان حنا سارازان فى الواقع أحد امناء (حجاب) ملك فرنسا (انظر جوانفيل طبعة ١٧٨٥ ، جـ ١ ص ٣٠ ، وطبعة مؤرخى فرنسا جـ ٢٠ ص ٢٠٠ . وقد جدد تعيينه اعوام ١٢٦٦ ، ١٢٦٩ ، ١٢٧٠ ، وكانت ارملته اسمها اجنس . انظر حواشى دى كانج عن جوانفيل ، تاريخ باريس جـ ١ ص ٢٤ ، ٢٠٨ ، ٢٩٣ ، لامارت ، مقالة عن البوليس جـ ٤ ص ٦٤٧ . ونحن لا نعرف الى أى رواية من الروايات كان يستند مشيو عليها فى اعتبار أن جان سارازان كان حاجبا للملك لويس . وفى سجل رقم ٣٠ من خزانة آل شارل وفى ملف بيير دى لابروتس (كارت J ص ٧٢٦ـــ٧٣٠ ، ارشيف الامبراطورية) يتضح أن العرب دائما يطلقون عليه اسم حنا . ولم تكن العادة خلال القرن ١٣ أن يعطوا اسمين لشخص واحد .

(٣) كانت عائلة أرود من أصل فرنسى ، ونيقولا هرود من برجوازى فرنسا ، وكان ابنا لإيد ارود مقدم الخبز لفيليب اغسطس . وقد حضر فى شهر مايو عام ١٢٤٨ كأحد شهود الاتفاق الذى تم بين الملك وجميع مطارنة كنيسة باريس . ومات عام ١٢٥٢ . واطلق اسمه لمدة طويلة على شارع كومتس دارتوا وباب l'enceinte فيليب اغسطس . انظر مادة جيرود فى حوليات تاريخ المجتمع الفرنسى ، طبعة ١٨٣٨ ، ص ٢٧٢ـــ٢٨٢ . وعند انسلم جـ ٨ ، ص ٦٠٤ .

أن الملك والملكة والكونت دارتوا ، والكونت دانجو ، وزوجته ومن معه فى صحة جيدة داخل مدينة دمياط . وأن الرب بتوفيقه ورحمته ومحبته سلمها الى الصليبيين يوم الأحد بعد مرور خمسة عشر يوما على عيد البنتاكوت[١] وبعد ، ينبغى أن احيطكم علما بالطريقة التى جرت بها هذه الأحداث . فلقد استقل الملك والجيش الصليبى المراكب الراسية فى اجمورت ، واقلعت هذه السفن بنا يوم عيد القديس اوغسطين الذى يوافق نهاية شهر اغسطس ، فوصلنا الى جزيرة قبرص قبل عيد القديس Remis بخمسة عشر يوما . أى يوم عيد القديس لامبرت . ونزل الكونت دانجو فى المدينة قادما من ليمسول ، وكنا مع الملك فى مراكبه المسماه مانجوا . ثم نزلنا بالمدينة ، وفى الصباح المبكر لليوم التالى[٢] حوالى وقت صلاة الصباح وصل الكونت دارتوا الى نفس الميناء[٣] فأقمنا فى هذه الجزيرة وقتا قصيرا اذ لم يكن وقت الرحيل قد حان بعد .

---

(١) تم الاستيلاء على مدينة دمياط الاحد ٦ يونيو عام ١٢٤٩ ، وعيد البنتاكوت يمثل عند المسيحيين اليوم الخمسين من عيد القيامة

(٢) ١٨ سبتمبر (المترجم)

(٣) لماسول (المترجم) .

الفصل الرابع والأربعون

الرسائل التى بعث بها التتار الى ملك فرنسا

« حدث أن ارسل أحد كبار امراء التتار المسمى الشتاى El Cheitay[1] والذى كان مسيحيا رسله[2] الى ملك فرنسا فى نيقوسيا بقبرص وذلك قبل عيد الميلاد[3]

(١) أوكلتاى Ercalthay أو اشاتاى أو الشى خاتاى Elchiakhatay ، وطبقا للمؤرخين الحديثين الذين ارخوا تاريخ الشرق فهو التشى كاداى Iltchikadai وكان خاضعا لسلطة الخان الكبير جايوك الذى خضعت له فارس وارمينيا وآسيا الصغرى . دى كويجن : تاريخ الهون ، جـ ٣ ص ١٢٦ ، وللنظر فى شأن هذه السفارة يرجع الى :

M. Abel Remusat, Memoires d'Academie des inscriptions et belles lettres, Nouvelle serie, t. VI, p. 398-496, t VII, p. 355.

وقام بنشر مقالتين على العلاقات بين المغول والامراء المسيحيين حتى ص ٤٤٥ . ورفض فيما أبداه كويجن من رأى . انظر ايضا d'ohson تاريخ المغول ، جـ ٢ ص ١٨٧ـــ٢٢٤ . وكذلك المؤرخين المعاصرين وليم دى نانجى ، فينسنت دى بوفيز ، جـ ١ فصل ٩٠ وما بعده . وفى النهاية تيلمونت ، جـ٣ ص ٢١٩ وما يليها .

وكان هذا الأمير التترى يشغل منصب نائب الايلخان فى الموصل . راجع مذكرات جوانفيل : ترجمة د. حسن حبشى ، ص ٨٤ـــ٨٥ (المترجم) .

(٢) جاء فى حاشية الكتاب أن عدد الرسل اثنين احدهما يدعى مارك والآخر « داود » راجع أيضا :

Runciman, op. cit., t. III, t. 260.

(المترجم)

(٣) يوافق ٢٥ ديسمبر (المترجم) .

« وأرسل الملك من جانبه الى هؤلاء الرسل الأخ اندريه[1] من جماعة سانت جاك . وكان الرسل لا يدركون سبب ارسالهم ، ولكنهم عرفوا فيما بعد عندما تعرفوا على الأخ اندريه . وأمر الملك أن يمثل امامه هؤلاء الرسل . وكان الحديث يتم بلغتهم[2]، وكان الأخ اندرية يترجم للملك الى الفرنسية فذكر أن زعيم التتار مسيحيا[3] يؤيده عدد كبير من التتار ، ويؤيده كذلك معظم كبار سادتهم فى فارس . واخبره أيضا أن الشلتاى وكل قواته من التتار سوف يكونون فى خدمة ملك فرنسا والصليبيين ضد خليفة

---

(١) الاخ اندريه من لونججا مو ، على مقربة من باريس ، وأحيانا يطلق عليه اسم لونكيمل . وكان اندريه يعيش فى منتصف القرن الثالث عشر ، وكان أحد الاعضاء المميزين فى جماعة الاخوان الدومنيكان . وفى عام ١٢٣٨ ارسله الملك لويس الى القسطنطينية لاعادة تاج الشوك . وكان مبعوثا للبابا اينوسنت الرابع عند خان التتار . وعند عودته عام ١٢٤٨ وجد فى قبرص ملك فرنسا الذى كلفه بمأمورية جديدة . وصحب كذلك عام ١٢٥٣ وليم دى روبن كيز أو دى روبروك . وتحدث وليم دى نانجى كثيرا عن الخطابات المرسلة من اندريه الى القديس لويس اثناء رحلته عام ١٢٤٩ . انظر جالتروس ، رئيس اساقفة سيين ، قصة التتويج فى كتاب Duchesn ، جـ ٥ ، ص ٤٠٧ .

(٢) يذكر رانسيمان انهما كانا يعرفان اللغة العربية ، راجع Runciman, op. cit., t. III, p. 260

(المترجم)

(٣) فيما يختص بمسألة تنصيره انظر :

Abel Rémusat d'ohsson de Guignes.

بغداد[١] لأنهم يرغبون فى الانتقام من المسلمين للكره الكبير لهم ، ولما الحق الخوارزمية والمسلمون الآخرون من « خسائر فادحة بسيدنا يسوع المسيح . وذكروا أيضا أن سيدهم يطلب من الملك أن يتقدم الى مصر لمحاربة سلطان مصر[٢] ، فى نفس الوقت الذى يتجه فيه التتار لمحاربة خليفة بغداد لأنه بهذه الطريقة يمكن لكل منهما أن يساعد الآخر ويقوى من عزيمته . فرأى ملك فرنسا أن يرسل رسله مع هؤلاء المندوبين الى سيدهم الشلتاى ، والى الرئيس الأعلى المسمى كيوك[٣] ، ليعرف حقيقة ما عرض . ويقال أنه مرت نصف سنة الى أن تم صحبتهم الى كيوك ، ولكن سيدهم الشلتاى وجيش التتار لم يكونوا بعيدين عن ايلوك ، لأنهم كانوا فى فارس التى عملوا على تدميرها وجعلها تحت سيطرة التتار . وقيل أيضا بأن التتار كانوا تحت مشيئة الملك والمسيحية . وعندما حان اليوم

---

(١) المقصود به الخليفة العباسى المستعصم بالله (٦٤٠ــ٦٥٦ هـ/١٢٤٢ــ١٢٥٨ م) (المترجم) .

(٢) الصالح نجم الدين ايوب (٦٤٣ــ٦٤٧ هـ/١٢٤٥ــ١٢٤٩ م) (المترجم)

(٣) أرسل الملك لويس مع رسله الى ملك التتار خيمة على هيئة كنيسة ، مصنوعة من القماش القرمزى ومنقوش عليها صور تمثل بشارة العذراء مريم بميلاد المسيح ، فضلا عن جميع اسس العقيدة المسيحية ، وكان يهدف من وراء ذلك اجتذاب التتار الى الدين المسيحى ، راجع جوانفيل : ترجمة د. حسن حبشى ص ٨٥ (المترجم)

« الخامس عشر بعد عيد الشمعة Chandeleur[١] وصل سويا مبعوثو التتار ورسل ملك فرنسا[٢] وهم الأخ اندريه من جماعة القديس جاك وأحد الاخوان ، والسيد حنا جودريش[٣] وآخرون من قساوسة بواسى ، وهسبر ،

---

(١) يقع فى ٢ فبراير من كل عام ، وهذا الأسم مشتق من الأصل اللاتينى Cahdela بمعنى الشمعة ، والمقصود به عيد دخول المسيح المعبد اليهودى وهو لا يزال طفلا ، ومحاورته حكماء اليهود فى المسائل اللاهوتية العويصة . الأمر الذى حير عقولهم . وتحتفل به الكنيسة الكاثوليكية حتى الآن (المترجم) .

(٢) لم يتفق المعاصرون على عدد سفراء الملك . فطبقا لرواية « ايد » Eude فان اندريه دى لونجمو قد رافقه اثنان من الأخوة . يدعى الأول حنا والثانى وليم . انظر Spicilege ، جـ ٣ ، ص ٦٢٧ . أما وليم دى نانجى فقد أورد عكس ذلك فقال « كانت سفارة الملك تتكون من الأخ اندريه من لونجمل واثنين آخرين من الأخوة من نفس الجماعة . واثنين من رجال الدين ، واثنين من الجنود المسلحين . ورحلوا من نيقوسيا فى الثامن من شهر فبراير ، وعين الملك على كل هؤلاء الأخ اندريه ليكون قائدا لهم . تاريخ فرنسا ، جـ ٢ ، ص ٣٦٧ . ويذكر برنارد كويدونى أن الملك ارسل الأخ اندريه والأخ حنا كمندوبين عنه أما توماس دى كونتيمير جـ ١ فصل ٥٤ حاشية ١٤ يدعى بأن هذه السفارة كانت تتكون من اثنين من الواعظين واثنين من اخوات مينير .

(٣) يتضح من حكاية الفارس روبرت كونت دارتوا المنشورة فى « ذكريات جامع آثار بيكاردى » جـ ١٢ ص ٦٥٦ أن حنا جودريش أحد ضباط البيت الملكى وأنه استلم مبلغا من المال لشراء المفروشات من وسائد وقبعات من ريش الطاووس

«وجلبرت دى سن[١] . وعندما حل منتصف شهر الصيام وصل للملك أخبار من هؤلاء الرسل بأن يرفع الراية ويتجه الى سيد التتار فى قلب أراضى المسلمين ، ويمكن أخذ ما يرغب عن طريق رسل سيد التتار . وبعد ذلك ، كان المرافقون للملك ما يقرب من الفين وخمسمائة فارس ، وخمسة آلاف من رماة السهام وعدد كبير من المقاتلين المشاة . فاستقل الجميع المراكب وابحروا الى ليمسول والموانى الأخرى لقبرص . وذلك يوم عيد الصعود الذى كان موافقا حينذاك ١٣ مايو ، وذلك للاتجاه الى دمياط . ومكثنا فى البحر اثنين وعشرين يوما وواجهتنا هناك صعوبات عديدة .

الفصل الخامس والاربعون
حتى الفصل الثامن والخمسين

.... [٢]

(١) كان يعيش فى حى القديس اندريه بباريس فى عام ١٣٧٤ رجل يسمى جيلبرت دى سن ، وكان مسنا ومصابا بمرض الشلل ، ولكنه شفى عند ضريح القديس لويس . وهناك احتمال قليل أن يكون هو نفسه الشخص الذى ارسله الملك الى سيد التتار . انظر معجزات القديس لويس ، تاريخ فرنسا ، جـ ٢٠ ص ١٣٢ .

(٢) تم استبعاد هذه الفصول من الترجمة وأوضحنا ذلك فى المقدمة التحليلية راجع ص ٢٨ ــ ٢٩ من هذا الكتاب (المترجم) .

سنة ١٢٤٩

الفصل التاسع والخمسون

كيف حاز الصليبيون بعض الأراضى ؟

ص ٥٨٩

«فى يوم الجمعة بعد عيد الثالوث الإلهى[١] وصل الصليبيون الى دمياط فى وقت صلاة الصباح تقريبا ، دون أن يتكامل وصول سفن الأسطول ، فأرسى الملك السفن على مسافة ثلاثة أميال تقريبا من البر . وطلب توا من كل البارونات أن يجتمعوا داخل مركب المونجوا Monjoie[٢] حيث كان الملك . واتفقوا جميعا على أن يذهبوا فى صباح اليوم التالى للاستيلاء على البر[٣] بالقوة ورغما عن أعدائهم[٤] . اذا ما فكر هؤلاء فى منعهم . وكانت الأوامر أن يجهزوا كل المراكب وقوارب الاسطول وأن يدخلوا جميعا فجر اليوم التالى المدينة على أكبر تقدير وعلى قدر استطاعتهم . وأن يقدم كل واحد منهم الاعتراف ويكتب وصيته ويرتب شئونه كما لو كان سيموت وفقا لمشيئة سيدنا يسوع المسيح . وعندما حان فجر اليوم التالى استمع الملك الى قداس سيدنا المسيح مثلما فعل فى عرض البحر . وتسلح وأمر الجميع بأن يتسلحوا ويستقلوا

ص ٥٩٠

(١) يوافق ٤ يونيو / ٢٠ صفر . بينما حدد جوانفيل أن يوم الوصول وافق الخميس (المترجم) .

(٢) هو اسم لسفينة القديس لويس الحربية (المترجم) .

(٣) مدينة دمياط (المترجم) .

(٤) المقصود بهم المسلمون (المترجم) .

« القوارب الصغيرة . ودخل الملك فى احدى الفلك النورماندية[١] . وكذلك جميع رفاقنا والمندوب البابوى الذى كان يحمل الصليب الحقيقى[٢] والآخرين ممن كانوا يعظون المقاتلين الذين استقلوا المراكب الصغيرة للاتجاه الى البر ومحاولة الاستيلاء عليه . وأدخل الملك فى احدي السفن[٣] سيدنا حنا دى بيومونت Jehan de Biaumont[٤] ، ما هى ذى مارلى Mahiez de Marli[٥] ، وجود فروا دى سرجين Jeuffroi de Sarginnes[٦] . وجعل راية سيدى القديس دانيس معهم ، وتقدمت هذه السفينة وتبعتها جميع السفن الأخرى ، ثم تبعها المركب التى كان بها الملك حاملة الراية ، وبها المندوب البابوى حامل الصليب المقدس الحقيقى . وكنا دائما فى المؤخرة . وعندما اقتربنا من الشاطىء بمسافة مرمى سهم كان أمامنا على الشاطىء

---

(١) انظر عن معنى هذه الكلمة فى القاموس البحرى تحت كلمات Cog, Coge, Quoque .

(٢) انظر وليم دى نانجى ، حياة القديس لويس ، تاريخ فرنسا ، جـ ٢٠ ص ٣٧٠ــ٣٧١ ، متى الباريزى ص ١٦٥ ، طبعة انجلترا .

(٣) انظر القاموس البحرى تحت كلمات Barga de camtherio, Barge de cantier, Barque .

(٤) حنا دى بلمونت أو دى بيومونت ، كان حارسا للملك فى عام ١٢٣٥ ، طبقا لما أورده وليم دى نانجى . وقد أرسله الملك لويس عام ١٢٣٩ ضد البيجيسيين .

(٥) ينتمى ما هى دى مارلى الى بيت مونت مورنسى .

(٦) انظر تاريخ هرقل ، فصل ٢ ص ٤٤١ ، حاشية m .

«عدد كبير من مشاة وفرسان الاتراك(١) المسلحين جيدا والذين ما لبثوا أن وجهوا ضرباتهم المتلاحقة ضدنا، فعاملناهم بالمثل، وعندما اقتربنا من البر كثيرا نزل فى البحر ما يقرب من الفين من الاتراك على ظهور خيولهم، وكثير من المشاة متجهين ضد اتباعنا. وعندما رأى اتباعنا من المشاة المسلحين ومن بالمراكب من الفرسان هذا المنظر لم ينتظروا رسو السفن تحت راية سيدى القديس دانيس وإنما نزلوا فى البحر مشيا على الاقدام وهم مسلحين أيضا. وكانت المياه تلحق بالبعض حتى الابط، والبعض الآخر حتى الثدى، وزيادة عن ذلك أو أقل حسب اختلاف عمق البحر من مكان لآخر. وكان كثير من اتباعنا قد أخجوا خيولهم خارج المراكب مما عرضهم كثيرا للخطر والعمل الشاق. فبذل رماة سهامنا جهدا كبيرا لدرجة أثارت دهشة من يرى ذلك. ومن ثم نجح اتباعنا فى الوصول الى البر.. وعندما رأى الاتراك هذا، تجمعوا سويا وتحاوروا بلغتهم وأقدموا نحونا بشجاعة وكبرياء وبدا انهم يرغبون فى قتلنا وتمزيقنا. ولكن اتباعنا لم يتقهقروا بعيدا عن الشاطىء وإنما حاربوا بشجاعة واصرار كما لو كانوا لم يقاسوا من اخطار أو من أعمال شاقة أو من ضيق فى البحر بفضل مساعدة يسوع المسيح والصليب الأصلى الذى كان يرفعه المندوب البابوى الى أعلى ضد المسلمين.

(١) المقصود بهم المماليك فى جيش السلطان الصالح نجم الدين ايوب
(المترجم)

«وعندما رأى الملك جنوده ينزلون فى البحر رغب بدوره فى النزول والمشاركة معهم ، ولكن رجاله لم يوافقوا على ذلك ، ولكنه نزل رغما عنهم فى البحر حتى وصلت المياه الى الحزام[١] . وكلنا كنا معه ، ومن ثم اندلعت معركة شديدة برا وبحرا استمرت منذ الصباح حتى وقت الظهيرة ، وعندئذ تقهقر الاتراك للوراء ودخلوا مدينة دمياط . وعسكر الملك مع كل افراد الجيش الصليبى على الشاطىء ، ولم يفقد الصليبيون كثيرا فى هذه المعركة بل من المحتمل انهم لم يفقدوا أحدا بينما قتل من الأتراك ما يقرب من خمسمائة مقاتل فضلا عن كثير من خيولهم وثلاثة من امرائهم[٢] أما الكونت دى بار والكونت دى مونتفورت اللذان سبق أن انهزما امام غزة[٣] فقد قتلا فى هذه المعركة . وكان يقال أن أكبر السادة بعد السلطان فى كل انحاء مصر وأكثرهم مهارة وفروسية وعقل قد

(١) ذكر جوانفيل أن القديس لويس قفز الى الماء الذى بلغ حتى ابطيه ، ومضى على هذا النحو معلقا درعه فى رقبته وخوذته على رأسه ورمحه فى يده حتى وصل الى رجاله الواقفين على الشاطىء ، راجع ترجمة د. حسن حبشى ص ٩٥ــ٩٦ .
وكان مستشاروا الملك لويس قد توسلوا اليه بالا يحاول الهبوط الى البر الا بعد أن يصل بقية السفن التى تقل العساكر ، غير أنه رفض التأجيل متحديا مقاومة جيش المسلمين ، انظر :
Runciman, op. cit., t. III, p. . (المترجم)

(٢) الامراء الثلاثة الذين فقدوا حياتهم فى هذه المعركة هم ، الأمير نجم الدين ، الأمير صارم الدين ، وركن الدين ، وهؤلاء هم الذين حددهم مؤرخنا انظر : Tillemont, t. III, pp. 246-247.

(٣) انظر ما سبق ص٩٥ــ٩٦ من هذا الكتاب (المترجم) .

«اشتركوافى هذه المعركة . وفى صباح اليوم التالى الموافق الأحد[١] بعد الاحتفال بعيد البانتكوت ، حضر أحد الاعراب[٢] الى الملك وأخبره بأن كل المسلمين قد تركوا مدينة دمياط[٣] . وطلب من الملك شنقه أن لم يكن هذا الخبر صحيحا . فوضعه الملك تحت الحراسة ، وارسل بعض اتباعه لمعرفة مدى صحة هذا الخبر وهكذا عند وقت العصر وصلت أخبار مؤكدة الى الملك وانتشرت داخل المعسكر الصليبى بأن عددا كبيرا من اتباعنا قد دخلوا مدينة دمياط وأن اعلام الملك ترفرف على أعلى ابراجها .

(١) ٦ يونيو . وكان عيد البانتكوت قد وقع فى ٢٣ مايو ، وعيد الفصح لهذا العام كان يوافق ٤ ابريل . والتاريخ الذى حدده لنا المؤرخ يتفق مع الواقع .

(٢) طبقا لمتى الباريزى ص ١٦٧ ، طبعة انجلترا ، أن الذى اخبر الملك بهذا الأمر اثنان من الاسرى الصليبيين .

(٣) يرجع سبب هجرة المسلمين لمدينة دمياط الى أن السلطان الصالح نجم الدين ايوب كان مريضا فى اشموم طناح حتى اشرف على الموت . ولما وصلت سفن الفرنج الى الشاطىء الغربى لدمياط اطلق الأمير فخر الدين قائد القوات المصرية الحمام الزاجل ليخبر السلطان . ولما بلغ عدد الرسائل ثلاث دون أن يتلقى جوابا فتبادر الى ذهنه أنه مات . وعندما حل الظلام رحل مع عساكره من الشاطىء الغربى متخذا من الجسر ممرا له الى الجانب الشرقى الذى فيه دمياط ومنه الى اشموم طناح ، ونسى الجند فى عجلتهم أن يحطموا الجسر الذى كان يصل بين الشاطئين ، فأحتله الصليبيون واستولواعلى المدينة . راجع : ابن ابى الفوارس : تاريخ دول الاكراد والاتراك ، لوحة ١٦٦ــ١٦٨ ، المقريزى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ق ٢ ص ٣٣٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ ٦ ، ص ٣٣٠ وكذلك جوانفيل : ترجمة د. حسن حبشى ص ٩٦ (المترجم) .

الفصـــل الســتون

حاميات كبرى وقوة كبيرة للدفاع عن مدينة دمياط

«عندماسمع اتباعنا بهذا الأمر أثنوا بشدة وشكروا سيدنا يسوع المسيح للخير الكبير الذى حازه الصليبيون لأن مدينة دمياط كانت محصنة بالأسوار والخنادق وبعدد كبير من الابراج المتينة والعالية ، بجانب المرامى الموجودة بالحصن . فضلا عن الآلات الكثيرة والاسلحة واللحم . وكانت المدينة على قدر كبير من الحصانة لا يمكن الاستيلاء عليها الا بمجهود شاق وقوة كبيرة . ووجد اتباعنا بالفعل أن المدينة محصنة تماما . ووجدوا بداخل السجن ثلاثة وخمسين من اسرى الصليبيين الذين كانوا مسجونين ، وفق ما سبق أن ذكرنا من قبل منذ ٣٢ سنة.[١] فعملوا على تحريرهم وأحضروهم أمام الملك . وقد ترددت الأقوال أن المسلمين هربوا مساء يوم السبت . وأنهم كانوا يتحدثون فيما بينهم عن الصليبيين ويقولوا « لقد حضر الخنازير » . كما وجدوا أيضا بعض من مسيحى الشام الخاضعين لسلطان المسلمين . وعندما شاهد هؤلاء دخول الصليبيين المدينة حملوا الصليب الذى لم يكن يسمح لهم بحمله من قبل . وتركوا منازلهم وكل ما يملكون واتجهوا للسكن امام مدينة دمياط . وفى صباح اليوم التالى

ص ٥٩٢

(١) منذ أيام الحملة الصليبية الخامسة (المترجم)

«لعيدالقديس برناب[١] دخل الملك دمياط فى تواضع وسط احتفال كبير ، وقام بتحويل المساجد الرئيسية للمدينة[٢] وكل المساجد الأخرى الى كنائس تمجيدا لسيدنا يسوع المسيح . وادركنا تماما اننا لن نغادر المدينة حتى عيد كل القديسين بسبب فيضان نهر الجنة المسمى بالنيل . ولذلك لا يمكن الذهاب الى الاسكندرية أو بابليون أو القاهرة عندما تفيض مياه النهر على أرض مصر . ولا يجب المغامرة فى الاندفاع اماما . وكنا لا نعرف شيئا عن سلطان مصر[٣] ، ولكن الملك يفهم تماما أن هناك سلاطين آخرين سوف يحاربوه[٤] . وعندما أعاد الرب المدينة الينا لم نرى بالقرب من معسكرنا الا عربا من البدو كانوا يأتون من وقت لآخر على مقربة ميلين بالقرب من معسكرنا ثم يلوذون بالفرار عندما يشرع رماة سهامنا

(١) يقع عيد القديس برناب يوم ١٢ يونيو .

(٢) طبقا لرواية تيلمونت ، جـ ٣ ص ٢٥٣ــ٢٥٤ عن هذا الأمر ، من خلال خطاب الكونت دارتوا (متى الباريزى ص ١٦٨) ووليم دى نانجى أنه تبع وصول الملك الى دمياط احتفالا جديدة فى مسجد المدينة الذى كان من قبل عام ١٢٢٩ محلا لأقامة المسيحيين ومكانا مقدسا للقديسة العذراء . انظر جاك دى فترى جـ ٣ ، بونجرز ص ١١٤٣ . وبالنسبة للممتلكات التى تكون موضع للسؤال هنا انظر جوانفيل طبعة ١٧٨٥ جـ ١ ص ٧٩ــ٨٠ .

(٣) الصالح نجم الدين أيوب (المترجم) .

(٤) المقصود بهم ملوك بنى ايوب فى الشام عندما يطلب سلطان مصر منهم النجدة (المترجم)

« بالتصويب ضدهم . وكان هؤلاء البدو انفسهم يأتون ليلا لسرقة الخيول ولقطع رؤوس الرجال(١) . ويقال أن سلطان مصر كان يعطى على كل رأس صليبى تجلب له عشرة بيزنط(٢) . ولذلك كان العرب البدو يقطعون رؤوس القتلى ويخرجون من باطن الأرض الاجسام المدفونة لقطع رؤوسها واحضارها للسلطان . وهذا وفق ما رواه أحد الاعراب الذى كان يأتى دائما الى المعسكر ثم وقع فى الاسر اخيرا وتم التحفظ عليه(٣) . وكان من السهل تنفيذ عمليات السرقة بهذا الشكل لأن الملك كان داخل دمياط وكانت زوجته الملكة وعدد من حاشيتها داخل القصر . بينما كان المندوب البابوى داخل صالات القصر المغلقة وكذلك كان البارونات يسكنون داخل مدينة دمياط طبقا لما هو متبع . أما باقى معسكر الصليبيين فكان خارج المدينة . ونظرا لتلك السرقات التى كان يقوم بها البدو بدأ الصليبيون بناء خنادق عميقة وواسعة تحيط بالمعسكر . ولكن لم يكتمل العمل بها . وهكذا وبرحمة سيدنا المسيح

---

(١) جوانفيل جـ ١ ص ٧٧ــ٧٨ .

(٢) طبقا لجوانفيل هو بيزنط من الذهب . وقد سبق أن عرفنا البيزنط . راجع ص ٥٣ من هذا الكتاب . (المترجم) .

(٣) وكان الأسرى الصليبيين يصلون تباعا الى القاهرة حتى أنه وقع فى أيدى المسلمين فى غضون ثلاثة أشهر ما يقرب من ثلاثمائة اسير من الفرنج . راجع جوزيف نسيم : المرجع السابق ، ص ٦٥ (المترحم)

سنة ١٢٤٩

تم استسلام مدينة دمياط العظيمة والحصون الى الصليبيين . وتم هذا يوم الاحد بعد الاحتفال بعيد البنتاكوت عام ١٢٤٩ الموافق السادس من شهر يونيو .

الفصل الحادى والستون

خمسة عشر عاما بين أثنين من أمراء دمياط

ص ٥٩٤

« حدث هذا بعد ثلاثين عاما[١] تمكن الصليبيون بعدها بالجهد الكبير والمعاناة الكبيرة من انزال الهزيمة بالمسلمين واستعادة المدينة فى نفس السنة ، وعندما اعدوا انفسهم للذهاب الى القاهرة ، فاضت مياه نهر النيل وامتدت حولهم ، فكانوا لا يستطيعون التقدم أو التأخر للخلف . ولذلك لن يستطيع الجيش الصليبى التحرك الى الأمام حتى تنحصر المياه عن الشاطىء وترجع الى قنواتها . وأخبر اصدقاؤنا بكل هذه الأمور بالرسائل . وكتبت الخطابات فى مدينة دمياط فى اليوم السابق[٢] لعيد سيدنا يوحنا المعمدان الذى كان فى نفس الشهر » .

---

(١) المقصود هو مرور ثلاثين عاما على حملة جان دى برين على مصر عام ١٢١٨ــ١٢٢١ م/٦١٥ــ٦١٨ هـ (المترجم) .

(٢) الموافق ٢٣ يونيو .

الفصل الثانى والستون

كيف انهزم الجيش الصليبى هزيمة شديدة واسترد المسلمون دمياط ؟

عندما تم الاستيلاء على دمياط بنفس الطريقة التى سردناها من قبل ، قام الكاردينال وملك فرنسا بتنظيم اسقفية[١] داخل المدينة فى الكنيسة الرئيسية للمدينة ، والتى كانت من قبل جامعا فى العهد الإسلامى . وجرى تعيين منشيدين[٢] لخدمة سيدنا . وخصص الملك دخلا كبيرا لرئيس الأساقفة والمنشدين ، وجماعتى الفرسان الداوية والاسبتارية وكذلك اخوة نوتردام دى المانيا واخوة الفرنسيسكان وأخوات سانت جاك[٣] . واخوة لاترينتى ولآخرين لا يمكننا تحديد اسمائهم . ومنح الملك الى البارونات وامراء ما وراء البحر بضائع فاخرة وقيمة حسب ما يليق بكل منهم داخل دمياط . وأدخل الملك الثراء والزينة على الكنائس التى اسسها المسلمون وغيرهم من قبل . فزينها بالكؤوس والمباخر والشمعدانات وبالصليب ، والصليب المجسد بالمسيح وبالكتب وقمصان القساوسة

(١) كان رئيس الأساقفة هذا هو جيل انظر تاريخ هرقل ص ٤٤١ وحاشية e وقد استدعى لحصار اسقفية صور عام ١٢٢٣ م .

(٢) انظر وليم دى ناجى ، تاريخ فرنسا جـ ٢٠ ص ٣٧٢ـ٣٧٣ .

(٣) الدومينيكان .

«ومفارش حريرية للمذبح وصور لسيدتنا[١] وبلاطى وكؤوس اخرى من الذهب والفضة والكريستال واشياء اخرى عديدة تحتاجها الكنيسة . وخصص الملك للكنيسة المقدسة كثيرا من رجال الدين لخدمة الكنيسة . وقرر لكل منهم دخلا كبيرا كل حسب درجته ليتمكنوا من العيش بكرامة وكرس الملك جهده فى هذه الأمور فكرا ودراسة ومشاورة من أجل خدمة سيدنا وحتى تكون مدينة دمياط بلدا مسيحيا . واضاف الى حصانة المدينة نفسها التى كانت محصنة تماما ومثارا للدهشة . وكذلك رمم الصليبيون الخنادق وأنشأوا مرمى للحصون لم تكن موجودة من قبل ، ومنشآت اخرى لا نعرف تحديدها . وكرس الملك كل جهده من اجل تنميذ هذه المشروعات التى تحدثنا عنها . حتى اعتقد الكثيرون أن هذه التصرفات تعد جنونا عظيما ، وانه كان فى امكانه أن يبذل جهدا أقل من هذا . وممن أعتقد هذا زوجته الملكة وكونتيسة أرتوا وكونتيسة بواتييه والكاردينالات ومعظم رجال المعسكر الصليبى مقيمين امام جسر المدينة المقام على شاطىء النيل . وكانوا قد اقاموا فى تلك الجزيرة وعلى شاطىء النهر منذ أن وصلوا حتى اصبح النهر فاصلا بين المعسكر

---

(١) مريم العذراء (المترجم)

الصليبي ودمياط. وهذه الجزيرة هي مالوت Maalot[١] الواقعة امام دمياط من الجانب الآخر للنهر وهى أرض خصبة اقام فيها الملك والصليبيون عند سابلون Sablon حيث عانوا معاناة شديدة بسبب الملل والقلق، وبسبب الحر الشديد وكثرة الذباب والبراغيث كبيرة الحجم التى كانت تهاجم المعسكر . فضلا عما كان يقوم به البدو وبعض المسلمين المكلفين بالتجسس حول المعسكر من الهجوم على اتباعنا عندما كانوا يغامرون بالابتعاد قليلا عن المعسكر . وبالمثل كان يفعل اتباعنا معهم . وأحيانا كان التفوق لصالح المسلمين . ولكنه كان غالبا فى جانبنا . وكان كثير من الصليبيين والمسلمين يرون القتلى فى الحقول المحيطة بالمعسكر . وفى منتصف اغسطس وصل الاتراك[٢] الى هذا المكان حيث يقيم الصليبيون وبدءوا المعركة فى صفوف منظمة لمحاربة الصليبيين . وصاح الملك فى قواته[٣] ليدافعوا عن انفسهم . ولكن لم يكن احد من

(١) بحر المحلة . انظر رينو : منتخبات المؤرخين العرب ص ٤١٤ . ويخرج بحر المحلة من فرع مليج عند قرية ضيا الكوم بالقرب من طنطس الواقعة فى منتصف الطريق بين مليج والجعفرية . ويمر بقرية الهيثم التى يسميها الأدريسى محلة أبى الهيثم ، ثم ببلقينه فالمحلة الكبرى الى أن يتصل بالنيل عند شارمساح . راجع جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ، الاسكندرية ١٩٦٩ ص ١٩١ (المترجم) .

(٢) المقصود بهم المماليك (المترجم) .

(٣) بالنسبة لهذا الدفاع انظر جوانفيل ، طبعة عام ١٧٨٥ جـ ١ ص ٧٤ــ٧٥ ، وتاريخ فرنسا جـ ٢٠ ص ٢١٧ .

١٢٤٩
سنة

الصليبيين لديه الجرأة والشجاعة للتقدم فى مواجهة الأعداء . ولهذا فقد تدفق المسلمون بأعداد كبيرة فى مواجهة مساكن الصليبيين ، ولما رأوا أن أيا من الصليبيين لم يخرج من المعسكر اتجهوا الى قرب مساكن الصليبيين استعدادا للهجزم عليهم . ولكن السيد جوتييه صاحب النمسا[(١)] لم يستطع تحمل هذا فتقلد سيفه وامتطى جوادا وبادر بالخروج رغم اوامر الملك ، ودون أن يتبعه احد وتقدم بشجاعة كبيرة فى مواجهة المسلمين الذين كانوا يقتربون من الصليبيين . ودارت معركة كبيرة أبدى خلالها شجاعة كبيرة وبمفرده قتل ثلاثة من المسلمين وهرب الآخرون تجاه معسكر المسلمين الذى كان يظهر على مرمى البصر . وكان السكون يخيم عليه فى ذلك الوقت .

٥٩٦
هـ

وأسرع جوتييه بحصانه مطاردا الهاربين ولكن حصانه تعثر مما ادى الى وقوع جوتييه تحته[(٢)] . وعندما لمحه المسلمون الهاربون على هذا الحال عادوا ناحيته لقتله ولكن سيدنا امبير دى بيوجيه لمح ذلك[(٣)] فأسرع فى الحال على ظهر جواده ورافقه أحد الفرسان وأخذا يجريان بسرعة فائقة تجاه المسلمين ، وعندما لمحهما الأتراك لم يتمكنوا من قتل

(١) جوتييه صاحب النمسا هو ابنا لجاى دى نانتيويل صاحب النمسا وشاتسلان دى بار .

(٢) طبقا لجوانفيل جـ ١ ص ٧٥–٧٦ فان السير جوتييه قد لقى مصرعه بسبب حصانه ولذلك فان معظم العرب اتجهوا ناحيته

(٣) أمبرت أو همبرت دى بوجيه سيد مونت بنسيه وايجبرس . وكان ابنا لجويشارد دى بوجييه سيد مونت بنسيه .

جوتييه وآثروا مواصلة الطريق تجاه زملائهم ، أما السير جوتييه فقد نقل الى المعسكر ولكنه توفى بعد ثلاثة أيام(١) متأثرا بالكسور التى اصابته بسبب وقوعه تحت الحصان . وعندما تأكد المسلمون أن الصليبيين لن يحاربوا فى ذلك الوقت عادوا للالتحاق بصفوف جيشهم يلتمسون الراحة . وبعد انتهاء عيد القديس لوقا (صاحب الانجيل)(٢) قامت عواصف بحرية شديدة فى تلك المناطق حيث يرسو عدد كبير من مراكبنا فغرق كثير منها مع عدد كبير من اتباعنا ، كما فقدت كميات كبيرة من اللحوم والزاد وسط تلك العواصف وامتدت اثر هذه العواصف الشديدة الى معظم موانىء البحر تقريبا ، الا أنها لم تؤثر فى مياه ليماسول فى جزيرة قبرص ولهذا وصل الكونت دى بواتييه بسلام الى هذه الجزيرة مع اسطوله بعد أن نال قسطا كبيرا من الراحة هو واتباعه وانتعشوا قليلا فى الجزيرة ثم ركبوا جميعا سفنهم ووصلوا الى دمياط بسلام . وفرح بذلك الملك كثيرا وكل افراد الجيش الصليبى بحضور الكونت دى بواتييه واتباعه . وعندما حان عيد القديس سيسيل(٣) جهز الملك مراكبه بكل ما

(١) مات جوتييه فى نفس اليوم وفق اعتقاد جوانفيل ، تاريخ فرنسا جـ ٢٠ ص ٢١٨ .

(٢) ١٨ اكتوبر ، وعن هذه العاصفة انظر جوانفيل ص ٧٩ــ٨٠ .

(٣) يوافق هذا التاريخ عند جوانفيل ٢٢ نوفمبر ، جـ ١ ص ٨٠ . أما وليم دى نانجى فيرى فى كتابه تاريخ فرنسا أن هذا التاريخ يوافق ٢٠ نوفمبر ويؤيد مؤرخنا هذا الرأى .

تحتاجه من الامتعة والمؤن . فكانت محملة باللحم والسلاح وآلات الحرب وسروج الخيول وكل الأشياء المتعلقة بالحروب الخاصة بالرجال والخيول . وكان هذا المنظر يثير دهشة كل من يراه . وعندئذ رحل المعسكر الصليبى من مكانه الى بحر المحلة ثم عبروا الى جزيرة أخرى من مكان آخر فى طرف جزيرة دمياط . واستعدوا لمعركتهم فكانت دمياط على يمينهم وقلعة تنيس على يسارهم ، وهم قبالة جيش المسلمين الذى كان مجتمعا وراء بحيرة تنيس[1] . وهو المكان الذى يطلق عليه اسم المنصورة . وكان المسلمون يدركون تماما ما كان يدور فى خلد الملك من رغبته فى حصار مدينة بابليون النبيلة والقاهرة والاستيلاء على اراضى

(١) نزل الفرنج على شارمساح فى نفس هذا اليوم (وهى قرية كبيرة بينها وبين دمياط خمس فراسخ) ثم واصلوا بعد ذلك البرمون (وهى قرية من اعمال محافظة الدقهلية على الجانب الشرقى للنيل الى جنوب فارسكور) واصبحوا على مقربة من عساكر المسلمين التى تقيم جنوبى بحر اشموم . وبعد سبعة أيام وصلوا طرف جزيرة دمياط ، ونزلوا قبالة جيش المسلمين شمالى بحر اشموم ولا يفصل بين المعسكرين غير هذا البحر ، أما ذلك الحاجز الطبيعى الذى قام فى وجوه المغيرين فهو ترعة صغيرة تسمى بحر اشموم تقطع على الحملة الطريق بين دمياط والقاهرة . ويطلق عليها بعض المؤرخين اللاتين مثل هرقل ومتى الباريزى ومؤرخنا اسم بحيرة تنيس . ولعلها بحيرة تنيس التى تصب فيها هذه الترعة وهى تعرف عند الكتاب المسلمين جميعا بأسم بحر اشموم نسبة الى مدينة اشموم طناح الواقعة عليها . انظر جوزيف نسيم : المرجع السابق ص ١٤٨ــ١٤٩
(المترجم)

مصر ، وإن كان قد شاء الرب فى مساعدتهم فعليه أن يعاونهم فى عبور بحيرة تانيس بدون أن تتعرض مراكبهم لخسائر كبيرة . وكانت المراكب الفرنجية تسير ببطىء شديد بسبب شدة الرياح وقسوتها لدرجة أن المراكب الأخرى والقوارب لم تتمكن من مواصلة السير ضد الرياح بدون جهد كبير وآلام شديدة . وفى نفس الوقت كانوا لا يستطيعون أن يتركوا مراكبهم هناك . أما الملك والآخرون الذين اتخذوا طريق البر لم يتعرضوا لاخطار كبيرة أو خسائر كبيرة عدا ما عانوه بسبب الرياح الشديدة التى واجهتهم . ولذلك فقد استغرقوا فى السير من دمياط الى المنصورة وهى مسافة لا تزيد عن ١٨ ميل اكثر من شهر . فقد بدأوا الرحيل من دمياط ٢٠ نوفمبر ووصلوا يوم عيد القديس توماس(١) الموافق اليوم الخامس قبل عيد الميلاد . وحدث اثناء سيرهم فى الطريق فى فجر اليوم التالى لعيد القديس نيقولا(٢) أن كمن لهم المسلمون ووجهوا ضدهم ستمائة من أمهر وأشجع فرسانهم مسلحين بأسلحة كثيرة وحاصروا معسكرنا وهجموا على مقدمة جيشنا ودارت معركة ضارية فبدا لنا تماما بأنهم سوف

---

(١) ٢١ ديسمبر .

(٢) ٧ ديسمبر حيث ميلاد القديس نيقولا يقع يوم ٦ . انظر فيما يختص بهذا الموضوع جوانفيل جـ ١ ص ٨٠ .

سنة ١٢٤٩

يحطموا جيشنا[١] ولكن جماعة الفرسان الداوية وباقى افراد المعسكر التى كانت تؤلف المقدمة شعروا بأننا لسنا أقل من المسلمين شجاعة فاستقبلوا هجمات المسلمين بشجاعة كبيرة مستغلين مهارتهم فى استخدام السيوف والخناجر ولم تستغرق المعركة وقتا طويلا لان المسلمين سرعان ما هزموا ولاذوا بالفرار ناحية كائنهم . ومن هاك واصلوا هروبهم سويا الى معسكرهم وقتل خلال هذه المعركة ثلاثمائة من المسلمين بينما لم يفقد الصليبيون سوى اثنين فقط[٢] . ولم يكن اتباعنا عندئذ مسرورين لما حدث لأنهم لم يتمكنوا من المرور خلف معسكر المسلمين المقيمين عند البحيرة المذكورة لأن نهر النيل كان بالنسبة لاتباعنا على اليمين وفرع بحر تنيس على الشمال . ولهذا كان لا يمكن أن يذهبوا من اية جهة اذا لم يعودوا للوراء . ولهذه الأسباب كلها اقاموا فى المنطقة بين نهر النيل وفرع بحر تنيس . وفى نفس اليوم الذى بدأوا فيه اقامتهم فى ذلك المكان عبر المسلمون فرع بحر تنيس وهاجموا اتباعنا وهم راجعين الا أن فرسانا لحوهم وتقدموا بسرعة فائقة تجاههم وتمكنوا من

٥٩٨ صـ

(١) حدثت هذه المعركة فيما بين فارسكور وشارمساح يوم الثلاثاء أول شهر رمضان عام ٦٤٧ هـ/٨ ديسمبر عام ١٢٤٩ م راجع المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٣٤٧ وكذلك جوزيف نسيم : المرجع السابق ص ١٤٧ . (المترجم) .

(٢) كان المؤرخ متعصبا لبنى بلدته فى هذه المعركة وقد اوضحنا ذلك فى المقدمة التحليلية . راجع ما سبق ص ٣٥ من هذا الكتاب (المترجم) .

هزيمتهم ولم ينتظر المسلمون طويلا بعد هذه الهزيمة الساحقة التى لحقت بهم ، والتى فقدوا على أثرها كثيرا من جندهم إما بالقتل أو الأسر فى حين لاذت البقية الباقية منهم بالفرار . ولسوء حظهم لم يتمكنوا من الفرار تجاه فرع تنيس وإنما اتجهوا ناحية نهر النيل نفسه حيث كانت مراكبنا راسية هناك فطاردهم اتباعنا وأعملوا فيهم القتل . وحينما تقدم المسلمون تجاه النهر كانوا إما مشيا على الأقدام أو على ظهور خيولهم . ولهذا اسرعوا فى الهرب لتجنب الموت ، إلا أن هذا لم ينجيهم لأن اتباعنا فى المراكب سرعان ما تقدموا نحوهم واخذوا يضربوهم بالسيوف والفؤوس وبالعصا الكبيـرة سواء الذين كانوا سيرا على الأقدام أو اولئك الذين كانوا على ظهور الخيل ، وظلوا هكذا حتى قتلوا منهم الكثير . وفى اليوم التالى عبر الاتراك النهر فى أعداد كبيرة تفوق الاعداد التى شاركت فى احداث اليوم السابق . وجاء الكثير منهم للانتقام ، فهجموا على اتباعنا الذين استقبلوهم بعنف بالسيوف والرماح واندلعت معركة كبيرة بين الجانبين ولم يتمكن الاتراك من الصبر طويلا . فانهزموا مثلما حدث فى اليوم السابق . وفى هذين الهجومين غرق وقتل ما يزيد عن الفين من الاتراك[١] . بينما كان عدد قتلى الصليبيين قليلا أو لا

---

(١) وقعت هاتين المعركتين يومى ٢٢ و ٢٣ ديسمبر . راجع هرقل ص ٤٣٧ .

يكاد يكون شيئا . ولما رأى الاتراك انهم فقدوا كثيرا من جندهم فى هاتين المعركتين ظلوا ساكتين فترة ثم تجمعوا سويا فيما وراء فرع تنيس على الشاطىء الآخر حيث كانوا يقيمون ، واستعدوا لمنع مراكبنا من عبور النهر وذلك قبل أن تصيبهم الخسائر الكبيرة ويعانون العجز فى الرجال . ولو تمكنوا من ذلك لأصبحت لهم القوة ليدخلوا بابليون والقاهرة وكل اراضى مصر رغم انف الاتراك . وبعد هاتين المعركتين بقى اتباعنا فى سلام دون أن يحدث أى هجوم من قبل الاتراك حتى عيد سان سبستيان[١] .

سنة ١٢٥٠

الفصل الثالث والستون

كيف ذهب الملك والصليبيون الى المنصورة ؟

تواترت الأخبار الى معسكرنا تستحثنا على الرحيل من دمياط . فقد كان معروفا بشكل قاطع أن سلطان مصر[٢] الذى كان مريضا منذ عام قد توفى . وارسلت

(١) ٢٠ يناير .

(٢) الملك الصالح نجم الدين ايوب ، وقد مات يوم الاحد ١٤ شعبان عام ٦٤٧/نوفمبر ١٢٤٩ (المترجم) .

رسالة هامة الى ابنه[١] المقيم عندئذ فى الاجزاء الشرقية ليسرع بالحضور الى مصر ليصبح حاكما على البلاد ، ولمواجهة الصليبيين الذين كانوا يرغبون فى الاستيلاء عليها . وكان الملك المصرى قد جعل جميع الأمراء وكبار رجال الدولة يقسمون له[٢] على كتاب شريعة محمد المسمى بالقرآن ويتعهدون بالاخلاص والطاعة له وللسلطان الذى سوف يليه . ثم جرى تنصيب الأمير سيف الدين[٣] حاكما على كل البلاد حتى يصل ابن السلطان . واجتمع المسلمون سويا للوقوف فى وجه الصليبيين . وكان سيف الدين هذا أحد الأمراء الاغنياء كما كان فارسا شجاعا ومحاربا ممتازا فضلا عن اتصافه بالعقل والاتزان .

---

(١) الملك المعظم تورانشاه الذى كان حاكما على كيفا وحران والرها ومدن اخرى فى ميزوبيتاميا . انظر تاريخ هرقل ص ٤٣٨ حاشية "F" .

وكان عندئذ مقيما فى حصن كيفا وعندما بلغه خبر وفاة ابيه تنكر وقدم مع النجابيين على نبهم وعبر البلاد حتى دخل دمشق وأقام بها اسبوعا ثم سافر الى مصر ودخل المنصورة ١٨ ذى القعدة عام ٦٤٧ هـ/فبراير ١٢٥٠ م . راجع ابو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، تحقيق عزت العطار ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ١٨٣ (المترجم)

(٢) طبقا للمؤرخ جمال الدين ابن واصل فى مقتطفات رينو ص ٤٥٥ أن هذا القسم قد تم بعد وفاة الملك الصالح ايوب .

(٣) هو الأمير فخر الدين اطلق عليه اتابك أو النائب اثناء غياب السلطان انظر رينو مقتطفات المؤرخين العرب ص ٤٥٥

سنة ١٢٥٠ – ٦٠٠ هـ

وعندما رأى الملك الصليبى وافراد جيشه أنهم لن يتمكنوا من عبور النهر لوجود المعسكر الإسلامى المقام على الجانب الآخر لشاطىء النهر أمر الملك بناء على مشورة البارونات باقامة سد قوى ومرتفع عن الأرض فى منتصف فرع تنيس حتى تجرى كل فروع بحيرة تنيس الى مجرى نهر النيل ، وعلى أقل تقدير عندما يكون السد مبنيا بطريقة متينة داخل فرع تنيس فسوف يصبح المكان اقل ضيقا ، مما يسهل للصليبيين اقامة جسر خفيف يمتد من هذا السد حتى الشاطىء الموجود ناحية المسلمين ، وهكذا كانوا يفكرون . ولكن لم يكن هذا الامر سهل التنفيذ فقد شيد الملك برجين قويين زودهما بآلاته واحجار ومجانيق وقذائف وآلات أخرى لاستخدامها ضد المسلمين الذين يمنعون العبور . وعندما لمح المسلمون هذه الأدوات أحضروا عددا كبيرا من آلاتهم لتدمير البرجين والجسر ، وبذلوا جهدا كبيرا لرمى الأحجار الكبيرة والصغيرة مما ادهش الجميع ، فضلا عن رمى السهام المتوالية ضدنا . وكانوا يستخدمون سهاما تركية وأخرى مشتعلة بالنار . وبهذه الطريقة كان هجوما عنيفا ضد آلاتنا وضد الذين كانوا يشيدون الجسر . وكان قذف الأحجار والنبال والسهام والسهام النفطية ينهمر كالمطر الغزير .

وعندما انتهت مرحلة كبيرة من بناء الجسر بعد جهود وآلام واخطار كثيرة تجعل الناس لا يصدقون هذا الانجاز

سنة ١٢٥٠

كان المسلمون من ناحيتهم يقومون بمجهودات شاقة ليلا ونهارا من اجل تدمير ما شيدناه[1]. وهناك ثلاثة أسباب لم يتمكن اتباعنا بموجبها من اقامة هذا الجسر ، عندما يكون النهر فى حالة جذر كانت المياه تجرى بشدة كبيرة وتجرف معها بقوة أى شىء على السطح . أما السبب الثانى فيرجع الى أثر الاحجار الضخمة التى كان المسلمون يقذفونها ضد آلاتنا ، وما كانت تحدثه من تدمير ، مما ادى الى تحطيم معظم تجهيزاتنا . أما السبب الثالث فهو كثرة السهام المسمومة والمشتعلة التى كان المسلمون يوجهونها ضدنا ــ فضلا عما كانوا يقذفونه من الأحجار الكبيرة ضدنا حتى اصبحت الأرض مغطاة بالاحجار الضخمة التى تسبب فى سد كثير من الطرق . ولهذا انتبه رجالنا الى ذلك فأقاموا طريقا ممهدا . غير أن المسلمين عبروا النهر فجأة وداهموا معسكرنا من كل الجهات وركزوا هجومهم على الجانب الذى يحميه فرسان الاسبتارية واخوة نوتردام دى المانيا ، وحدثت معركة كبيرة من الجانبين استمرت طويلا . وفى النهاية خسر الاتراك وقتل

ص ٦٠١

(١) كان الصليبيون كلما اتموا من جسرهم مترا هدم المسلمون امتارا امامه فى شاطئهم المقابل فاتسع مجرى النهر من جديد وعلى حد قول جوانفيل « كانوا يفسدون علينا فى يوم واحد ما كنا ننجزه فى اسابيع ثلاثة » انظر جوانفيل : ترجمة د. حسن حبشى ص ١٠٧ ، وكذلك جمال الدين الشيال : المرجع السابق جـ ٢ ص ١٣١ ــ ١٣٢ (المترجم)

سنة ١٢٥٠

منهم عدد كبير ، وقام اتباعنا بمطاردة عدد كبير منهم حتى نهر النيل ، وراحوا يضربونهم ويقتلونهم حتى اضطروا الى القاء انفسهم فى النيل خوفا من الموت . وفقدوا عددا كبيرا إما بالقتل أو بالغرق فى النيل . وكانت خسارة كبيرة لحقت بالمسلمين فى ذلك اليوم . وكان كثير من الصليبيين يرددون بأنه كان فى استطاعة الجيش الصليبى ناحية الجسر المتصدع أن يستفيد من هذه المعركة ويعبر النهار رغم انف المسلمين غير أن الاسبتارية فقدوا فى هذه المعركة احد عشرة اخا منهم . ولم يفقد اخوان نوتردام دى المانيا الا اربعة من اخوانهم . ولهذا أثنى الملك على افراد الجيش الصليبى وامتدحهم من اجل ذلك . وقد حدثت هذه المعركة يوم عيد القديس سبستيان الشهيد فى شهر يناير .

وبعد ذلك حل يوم السبت السابق لعيد الشمعة وقدم كثير من جنود المعسكر الإسلامى الى حيث ترسو مراكبنا وأخذوا منها اربعة ناقلات للبضائع وربطوها الى بعضها بالسلاسل الحديدية وملؤها بالفتيل والاخشاب الصلبة والقطران ومواد اخرى قابلة للاشتعال ثم القوا عليها سهما مشتعلة وجروها فى طريق مضاد للتيار . وعلى الرغم من اشتداد الرياح ولهيب النار التى كانت تزداد اشتعالا نجح اتباعنا فى حماية بقية مراكبنا .

ص ٦٠٢

الفصل الرابع والستون

كيف عبر الملك والصليبيون فرع تنيس ؟

عندما رأى ملك فرنسا وبارونات المعسكر الصليبى وأدركوا بوضوح أنهم لن يتمكنوا من اكمال الجسر للأسباب التى ذكرناها اخذوا يتشاورون فى اختيار افضل الطرق التى تمكنهم من عبور النهر وضرب المسلمين المقيمين هناك[١] والذين لا يمكن اختراق دفاعاتهم فطلبوا من اعرابى خائن[٢] كان قد أتى الى معسكرنا أن يدلهم على احدى المخاضات الموجودة بالنهر يمكن أن يعبروا خلالها . فأخبر الملك بأنه يوجد بالفعل مخاضة غير عميقة فى فرع تنيس ويعتقد أنه فى استطاعة الملك أن يعبرها . وقد رأى الملك والبارونات الذين حضروا الاجتماع أنهم لن يتمكنوا من العبور بأية طريقة غير هذه الطريقة . فاتفق الجميع على محاولة العبور من هذه المخاضة التى ذكرها لهم الاعرابى . وفى اليوم التالى الموافق بداية الصوم[٣] وقبل

---

(١) على الضفة الثانية للنهر (المترجم) .

(٢) ذكر جوانفيل أن امبرت دى بوجو اخبر الملك لويس بأن احد البدو سوف يدله على مخاضة صالحة لعبور الصليبيين مقابل منحه خمسمائة بيزنط فوافق الملك على نقده ما طلب ولكن البدو اشترط أن يتسلم النقود أولا . راجع جوانفيل ترجمة د. حسن حبشى ص ١١٣ (المترجم) .

(٣) ٨ فبراير .

بزوغ الفجر تسلح الملك واخوته الثلاثة وعدد كبير من الفرسان والجند الآخرين من افراد جيشنا وحرجوا من المعسكر مستعدين للقتال ، وانتظموا فى صفوف وترك الملك حامية قوية فى المعسكر لحماية الخيول والناس المقيمين هناك ، سواء من المشاة أو من الفرسان . وعندما اصبح الملك ومن خرج معه فى الحقول خارج المعسكر أمر الملك كل الصليبيين الكبار منهم والصغار الا يعرضوا انفسهم للهلاك والخطر بل يظل كل فرد فى مجموعته ، وتسير المجموعات كلها بجوار بعضها البعض . وعندما يعبر الجزء الأول منهم النهر ينتظر على الشاطىء طوال فترة عبور الملك والآخرين . وعندما انتهى الملك من ذلك أعد جيوشه فى مجموعات صحبهم الاعرابى حتى المخاضة . ولما وصلوا هناك وجدوا أن تلك المخاضة يحيطها خطر كبير لم يكونوا يتوقعونه اذ كان الشاطىء عندها من الجانبين مرتفعا بشدة ، فضلا عن أنها كانت مملوءة بالطين والحمرة والطمى وتأكدوا أن هذا المكان اكثر خطورة واكثر عمقا مما ذكر لهم الاعرابى اذ يمكن أن تغرق خيولهم فى ذلك المكان . وبعد أن دلهم الاعرابى على المخاضة أمر الملك بتوصيله الى معسكرنا وتسليمه مبلغا من المال . وما لبث أن عبر المياه كونت دارتوا وجميع الذين كانوا فى الصفوف

ص ٦٠٣

الأولى[١] ثم تبعهم الآخرون على الرغم مما عانوه من الاخطار الكبيرة والمتاعب الناجمة عن انغماس اجسادهم وخيولهم فى الماء . وبهذه الطريقة نفسها عبر الملك بعد ذلك والآخرون دون أن يتملك أحدهم الخوف من الغرق . وعندما عبر اولئك الذين كانوا فى مقدمة النهر وأصبحوا على الشاطىء الآخر لم يلتزموا بأوامر الملك وانظمته وواصلوا التقدم على شاطىء النهر الآخر حتى وصلوا الى حيث آلات المسلمين وتجهيزاتهم المنصوبة لمنع بناء الجسر . وفى الصباح الباكر بادر الصليبيون بالهجوم على معسكر المسلمين فى ذلك المكان ، ولم يتنبه حراس المعسكر لهم لأن بعضهم كان نائما والبعض الآخر كان مستلقيا . وما لبث هؤلاء الذين كانوا مكلفين بحراسة المعسكر الإسلامى أن انهزموا أولا ثم قضى عليهم الصليبيون قتلا بالسيوف . وكان رجالنا يشقون طريقهم بين الاتراك يعملون السيف فيهم فقتلوهم عن آخرهم دون أن يتركوا أيا منهم سواء من الرجال أو النساء أو الاطفال أو المسنين أو الشباب أو الاغنياء أو الفقراء ، إذ اعملوا السيف فى الجميع . ووجد الصليبيون بعض الصبايا والمسنات ممن كانوا يأخذون قسطا من الراحة ، ولاحظ اتباعنا أنهن لا يصيحون ولا يصرخون خوفا من الموت فقتلوهم عن

---

(١) كان ذلك فى الرابع أو الخامس من ذى القعدة عام ٦٤٧ هـ/فبراير ١٢٥٠ م (المترجم) .

آخرهم . وفى هذا الهجوم قتل سيف الدين[١] قائد جيش المسلمين ، وكان رجلا عظيما وكانت له هيبة وسطوة تامة على اتباعه . ومن كان يرى جثث الموتى والدماء السائلة من المسلمين ربما كانت تأخذه رحمة وشفقة ، الا أن هؤلاء القتلى كانوا من اعداء المسيحيين لهذا لم تكن ثمة رحمة ولا شفقة . ولما رأى رجالنا أنهم سيطروا على الموقف وأنهم يعملون وفق مشيئتهم ضد المسلمين وأن الجميع كان يهرب امامهم بدأوا فى مطاردة المسلمين باندفاع وبدون مشورة أو تفكير . وكان الأخ جيل Giles[٢] رئيس جماعة الفرسان الداوية فارسا ماهرا وشجاعا وعاقلا فى امور الحرب ، فقد طلب من الكونت دارتوا أن يوقف اتباعه ويجمعهم سويا وينتظروا الملك والآخرين الذين لم يعبروا النهر بعد . وقال الاخ جيل أيضا أنه قام[٣] بعمل كبير حين جهز مجموعة كبيرة من أمهر الفرسان فيما وراء البحر فانجزت هذه المجموعة اعمالها التى كلفت بها . ومدح

---

(١) هو الامير فخر الدين ، وكان فى الحمام عندما علم بهجوم الفرنج على معسكره فخرج مسرعا وركب فرسه دون أن يتخذ للدفاع عدته فدهمه فرسان الفرنج فتفرق عنه جنده . وتكاثرت عليه الرماح والسيوف حتى خر صريعا . راجع جمال الدين الشيال : المرجع السابق ص ١٣٣ (المترجم) .

(٢) الاسم الصحيح لرئيس جماعة الفرسان الداوية هو وليم سوناك (١٢٤٧ــ١٢٥٠ م) (المترجم) .

(٣) الكونت دارتوا (المترجم) .

كذلك اولئك الذين استولوا على آلات المسلمين الموجودة فى قارعة الطريق . ولكنه حذر من أن الذين طردوا هؤلاء المسلمين وجعلوهم يهربون متفرقين لابد وأن يتجمعوا سويا تجنبا لاية انتكاسة لأنهم قلة بالنسبة للمسلمين المجتمعين سويا ، وقد رد عليه أحد الفرسان لا نعرف اسمه ممن كانوا مع الكونت دارتوا مؤنبا اياه قائلا :

« لو كان الداوية أو الاسبتارية والآخرون فى هذه البلاد يرون أن هذه الأرض فى حاجة الى مجهود كبير لفتحها لكانوا انفسهم يتكلمون الى الكونت دارتوا ويقولون له : ياسيدى لا تعتقد أن الاتراك خسروا جميعا ويواصلون هروبهم بسرعة كبيرة وأنه لن يكون علينا لوم أو نوصف بالجبن الكبير اذا لم نتمكن من طردهم » .

ووافق الكونت دارتوا الذى كان قائدا لمقدمة الجيش على استكمال طرد المسلمين وسأل الأخ جيل عما اذا كان خائفا من بقاء المسلمين واضطراره للبقاء بقربهم فرد الاخ جيل قائلا : « ياسيدى لا أنا ولا اتباعى خائفين ولن نظل هنا بل سوف نذهب ولكن اعرف جيدا اننا نشك باننا سوف نعود اليك » وتقدم عشرة فرسان نحو الكونت دارتوا وطلبوا منه باسم الملك الا يتحرك وعليه أن ينتظر هناك حتى حضور الملك فرد الكونت دارتوا قائلا « لقد تمت الهزيمة على المسلمين وانه لن يقيم هناك بل سوف

يطاردهم وبادر فى الحال بالتقدم وراء المسلمين لملاحقتهم وتشتيت شملهم وظلوا يتابعونهم حتى وصلوا الى مدينة صغيرة تسمى ماسور[1] . وخلال ذلك كانوا يقتلون الواحد تلو الآخر بقدر استطاعتهم والمسلمين لا يصدقون أن بوسع اتباعنا مطاردتهم بهذا الاندفاع والانتشار فى شوارع المدينة بهذا الشكل ، واعتقد جميع الصليبيين حينئذ بانهم قد سيطروا على المعركة وراحوا يتصرفون وفق ارادتهم . فاخذ المسلمون يدقون الطبول وينفخون فى الابواق فاجتمعوا سويا واحاطوا برجالنا من كل ناحية وهاجمونا بقسوة متناهية وقلوبهم مملوءة بالضيق والغم الشديد لما نزل بهم من قتل وفقد اتباعهم . وكان كثير من اتباعنا عندئذ سيء الحظ فقد كانوا متفرقين وخيولهم كانت مرهقة حتى راحت تتساقط على الأرض وكثير منهم كان يجرى ناحية مساكن الاتراك فتتبعهم المسلمون وقتلوا الكثيرين منهم ومزقوهم شر ممزق واسروا بعضا منهم ولم يتمكن احدا منهم الهروب ناحية النهر ليتجنب الموت فقد كان المسلمون يلاحقونهم بالقتل والضرب بالفؤوس الدنماركية وبالسيوف ومن نجا منهم وصل الى النهر الذى كان كبيرا وعميقا سقط فيه وغرق . ولم نعرف من منهم الذى قتل فى هذه المعركة ؟ ومن منهم الذى غرق ومن وقع فى الأسر ؟ روبرت كونت دارتوا اخى ملك فرنسا ، راوؤل

---

(١) المنصورة

سيد كوزى Cousi روجير سيد روسوا Rosoi وحنا سيد هريسى Herisi وارار سيد بريين وشامبانيا ، وليم لونج الى وكل الداوية الذين شاركوا فى هذه المعركة لم يتبق منهم سوى اربعة أو خمسة فقط وفقد عدد كبير من باروناتنا وفرساننا ورماة السهام الذين كانوا اكثر رجال معسكرنا شجاعة ومهارة ففروا بطريقة لا يمكن لأى فرد أن يصدقها أو يأخذها على وجه التأكيد[١] .

ولما عبر الملك ومن معه من المحاربين انتظم الجميع فى صفوف فى المكان الذى يعسكر فيه المسلمون . غير أن المسلمين الذين هزموا قواتنا هزيمة كبيرة كانوا يشعرون بفخر كبير ، ونظروا الى الملك مثل نظرتهم لباقى افراد معسكرنا . فعندما لمحوه اتجهوا ناحيته بكبرياء كبير وشجاعة نادرة وبكره كبير أيضا . فلما رأى الملك هذا تأكد جيدا أن الذين راحوا قبله قد وضعوا المسيحية فى مركز سيء . فأمر من حوله بأن يتماسكوا ويكونوا معا ،

(١) كان الملك لويس قد وضع خطة حربية محكمة وخطيرة لو نفذت كما وضعت لحقق الفرنسيون نصرا كبيرا على المسلمين . وتتلخص هذه الخطة فى أن يعبر الكونت دارتوا بفرقة الفرسان من المخاضة ، فاذا وصل الى الشاطىء الذى يعسكر فيه المسلمون اشتبك معهم فى قتال مؤقت ليشغلهم عن مهاجمة الفرنسيين الذين يقيمون الجسر الى أن يتمموه فاذا تم بناؤه عبر القديس لويس ببقية جيشه وانضم الى فرسان الكونت دارتوا . ولكن تهور الكونت كان السبب فى فشل هذه الخطة . راجع جمال الدين الشيال : المرجع السابق جـ ٢ ص ١٣٣ . (المترجم) .

سنة ١٢٥٠

وعاتبهم كثيرا لانهم شكوا فى قوة المسلمين الذين هاجموهم ، واعتقدوا أن الذين جاؤا للحرب من أجل سيدنا يسوع المسيح كانوا اكثر شجاعة ومقدرة من العالم بأسره . وما لبث المسلمون أن اقتربوا من اتباعنا وصوت النفير والتامبور وصياح الناس يتردد بشدة ، والخيول قبيحة المنظر . وحاصر المسلمون اتباعنا من كل جانب على شكل دائرى بأعداد كبيرة وراحوا يقذفون علينا احجارهم وسهامهم كالامطار والثلوج المنهمرة حتى اظلم الجو ، وأحزن رجالنا وأخاف خيولنا كثيرا . وعندما فرغ الاتراك فى الصفوف الأولى من القاء كل اسلحتهم انسحبوا فى الحال الى الوراء ، وحل محلهم الموجودون فى الصف الثانى حيث تقدموا فى الحال الى الامام بأعداد تفوق من سبقهم وراحوا يقذفون ضدنا اسلحتهم اكثر مما كان يفعل الآخرون من قبل . ولم يكن للملك أو لاتباعنا رماة للسهام فى هذه المعركة . فقتل الذين عبروا النهر مع الملك ، وكل من كانوا فى المقدمة لأن المسلمين كانوا يقتلون من يواجههم دون أن يستبقوا أيا من رماة السهام بين أيديهم .

وعندما رأى الملك ورجالنا أنهم فقدوا معظم خيولهم وكثيرا من جندهم ضربوا معا المهماز فى خاصره خيولهم ليهربوا من سهام الأتراك . وفى نفس الوقت قتلوا عددا كبيرا من الاتراك بالسيوف اثناء اندفاعهم ، ولكن كان

جيش الاتراك كبير العدد لدرجة اصبح الصليبيون معها غير قادرين على عمل أى شيء . فعندما كان اتباعنا يقتلون أو يصيبون احدا من الاتراك كان يحل مكانه آخرون . ولما رأى الاتراك أن اتباعنا وخيولهم اصبحوا مجروحين ، وفى حالة يرثى لها علقوا اسلحتهم فى اذرعهم اليسرى اسفل الأبط ، وتقدموا نحونا . واتباعنا يقاومون بشدة أثارت دهشة كبيرة . وردد كثير من اتباعنا فى هذه المعركة ، بل أكدوا بأنه لولا أن الملك واتباعه كانوا متماسكين ولديهم شجاعة كبيرة وكبرياء لاصبح مصيرهم الموت أو الأسر . فلم يدر الملك وجهه عن هذه المعركة ولم يهرب ، بل ظل يعمل على راحة اتباعنا ويشجعهم ليحسنوا العمل وليكونوا دائما فى حالة انتعاش ، ويتحملوا بشجاعة المعاناة من التصدى للأعداد الكبيرة للمسلمين الذين كانوا يقصفون امامهم القصف تلو الآخر. وهكذا استمرت المعركة حتى صلاة العصر . واتباعنا الآخرون من الفرسان الذين كانوا يدركون حتما وضعنا لا يستطيعون نجدتنا بسبب وجود النهر حاجزا بيننا وبينهم . وكان الجميع صغارا وكبارا يصيحون بصوت عالٍ ، ويضربون بأقدامهم الأرض ويقبضون أيديهم ويشدون شعورهم ويجرحون وجوههم ويقولون « لا .. لا .. لا . لا ، الملك واخوته وكل رفاقهم يخسرون » . وعندئذ اسرع كثير من الناس من المشاه وعامة الشعب فى المعسكر الصليبى ، واخذوا

الآلات والمعدات الموجودة فى المعسكر وراحوا يحاولون على قدر استطاعتهم اقامة طريق يعبرون عليه لمساعدة الملك ، وبعد معاناة شديدة ومجهود ضخم تمكنوا من انشاء جسر ، ولكنه كان محفوفا بالمخاطر لان المياه كانت عميقة وخطيرة فى ذلك المكان عند الجسر . وفى الحال عبروا برغم هذا الخطر بأسرع ما يمكنهم لتقديم المساعدة للملك ، ولكن عندما رآهم المسلمون يعبرون النهر انسحبوا للوراء ورحلوا من الطريق واتجهوا الى محل اقامتهم .

وفقد المسلمون كثيرا من اتباعهم بالقتل وبطرق مختلفة . وعندما وصل اتباعنا الى المزارع القريبة بمساعدة الرب وأقاموا منازلهم وخيامهم وهم يخفون انفسهم عن المسلمين الموجودين هناك . وجدوا اربعة عشر سلاحا ، فضلا عن خيام وسروج كانت للمسلمين تركوها عندما فاجأتهم مقدمة الجيش الصليبى . وفى هذه الليلة بقى الملك وبعض اتباعنا هناك . ولكن الجسر المقام على النهر كان متينا بدرجة كافية تمكنهم من الانتقال بالتأكيد من معسكر لآخر . وأمر الملك فى اليوم التالى الموافق يوم الرماد[١] أن يعملوا جسرا من المراكب حتى يمكنهم الذهاب عبره الى اماكن مختلفة ، وأن يتحركوا فى أعلى النهر بدون خطر محقق . وأمر اتباعنا على الشاطىء الآخر للنهر أن يأتوا ليسكنوا معه فى هذا الجزء ، وأمر الملك ايضا

٦٠٨
ص

(١) ٩ فبراير

أن يحرقوا حول المعسكر الاربعة عشر سلاحا التى اخذها الصليبيون من المسلمين[١] . وعندما حل يوم الجمعة التالى ليوم الرماد[٢] اجتمع المسلمون من كل جهة وجاءوا معا بأعداد غفيرة جدا غطت الأرض كلها . وفى اعتقادهم أن يقتلوا ويمزقوا كل الصليبيين هناك . أو يأخذونهم الى السجن . فأحاطوا المكان من كل جانب ، وعندما اقتربوا من اتباعنا أخذوا يرمون كالعادة عددا كبيرا من السهام والاحجار والرماح لدرجة أن كل واحد من الصليبيين كان يردد أنه لم ير أبدا فى حياته مثل هذا اليوم . وكان هجومهم علينا بطرق مختلفة وشنيعة . واستغرقت وقتا طويلا . أما اولئك الذين كانوا فى المدينة فكانوا يرددون أنهم لم يشهدوا فى بلاد ما وراء البحر مثل هذا الهجوم القاسى ، وبدا تماما أنهم مقتنعون أن الموت سيصيبهم حتما وعاجلا ، واذا كان بعضهم قد تراجع فقد فر البعض الآخر تماما من ساحة القتال . أما اولئك الذين كانوا لايزالون منتعشين فقد اعتقدوا أن المسلمين ليسوا من البشر ، وإنما هم كواسر متوحشة . وهكذا كان الجميع حانقين ، وظل الملك يعاتبهم ويرجوهم للثبات واحسان عملهم وقتالهم . وردد الصليبيون فى المعسكر اقوالا كثيرة طيبة فى حق الملك وقالوا أنهم لم يروه سيئا أو جبانا فى هذه

---

(١) اعتقد انها مجانيق كبيرة ومما يؤكد ذلك أن الملك أمر بحرقها (المترجم) .

(٢) ١١ فبراير .

سنة ١٢٥٠

المعركة ولا فى المعارك الأخرى التى حدثت من قبل ، وربما تلك التى استحدثت فيما بعد ، اذ لم يكن قط جبانا أو شاردا أو مأخوذا بل يبدو دائما قويا لا يعرف الخوف الى قلبه سبيلا . وكان الاتراك وكذلك اتباعنا قد اصيبوا بكثير من الجراح بسبب الرماح والسيوف والفؤوس الدانمركية والسكاكين والاسلحة الاخرى . وبسبب استمرار هذه المعركة مدة طويلة بقسوة . ولما اصبح المسلمون مجهدين ورأوا انهم قد منيوا بالخسائر فقد انسحبوا للوراء وعادوا الى محل اقامتهم بعد أن فقدوا عددا كبيرا من جندهم وقتل منهم أكثر مما قتل من اتباعنا . ولكنهم ظلوا مع ذلك مجتمعين معا كتلة واحدة . وظل كذلك ابن السلطان المتوفى ، والذى كان السلطان قد ارسل فى طلبه من الاطراف الشرقية قبل وفاته ، ووصل ومعه عدد كبير من اتباعه وانضم الى جيش المسلمين المجتمعين عند المنصورة[١] . واستقبله المصريون بفرح كبير وعزفوا الموسيقى والمزمار والآلات الأخرى واستقبلوه كسيد كبير وسلطان عظيم ، واقسموا له اليمين كما فعلوا مع والده[٢] . وأقاموا له عيدا حسب عادتهم ، ومنذ وصوله نمت قوة المسلمين وازداد نفوذهم .

ص ٦٠٩

(١) هو تورانشاه ، وصل المنصورة بعد عدة أيام من استراحته فى دمشق ، ٢٤ ذى القعدة عام ٦٤٨ هـ (٢٧ فبراير عام ١٢٥٠ م) .

(٢) الصالح نجم الدين ايوب (المترجم) .

الفصل الخامس والستون

كيف صادف سوء الحظ الكبير الملك والصليبيين فى المنصورة ؟

غصت قلوب الصليبيين بآلام شديدة ، وحزن كبير وخوف عظيم ، وامتلأت بكل مظاهر الحزن والضيق فراحوا يبكون فى حسرة . ولابد وأن تروى كل هذه الوقائع بأية طريقة على المسيحيين الذين يحبون من قلوبهم شرف ومجد المسيحية ويحرصون على الامانة المسيحية . ينبغى رواية كل الأحداث التى جرت للملك وللصليبيين الذين كانوا فى المنصورة ، وكذلك ما حدث من سيطرة المسلمين على النهر بالقوة . فقد جرت كل هذه الأحداث تقريبا ضد مشيئتهم[١] . هذا فضلا عمن لقى حتفه بسبب مرض الطاعون الذى انتشر بين الرجال والخيول ، ولم يكن يحل عصر أى يوم الا وكان يصل الى الكنائس والأديرة ما لا يقل عن عشرين أو ثلاثين صندوقا تحوى جثث لموتى[٢] بل أن كل واحد من الصليبيين كان ينتظر الموت بين لحظة

---

(١) الصليبيون (المترجم) .

(٢) يروى جوانفيل أنه لم تمض تسعة أيام على تلك المعركة الأخيرة حتى اخذت جثث قتلى الصليبيين الذين فتك بهم المسلمون تطفوا على سطح المياه ، وقد استأجر الملك من قام بتنظيف النهر . بعد أن بلغت الجثث من الكثرة حدا لم تعد العين قادرة على رؤية المياه . راجع جوانفيل : ترجمة د. حسن حبشى ص ١٤٠ (المترجم) .

وأخرى دون أن تكون لأى فرد منهم مهربا من الموت الذى كان يلاحقهم بسرعة كبيرة . ونادرا ما كنا نجد واحدا لا يبكى ولا يشعر بالآلام على اصدقائه من الموتى . ولم تخل خيمة أو منزل من المرضى أو الموتى وتأكد كل منهم بأنه فى اليوم التالى سيكون إما مريضا أو ميتا . ولقد اتلفت اللحوم المخصصة لأكل الانسان كما نقصت مؤن الخيول داخل المعسكر . وحدثت مجاعة كبيرة(١) ادت الى ضعف الاصحاء واجهاد الأقوياء حتى لم تعد المساعدة تجدى معهم . فأضطر بعضهم الى اكل لحوم الخيول والحمير والبغال الميتة والحيوانات الأخرى فى المعسكر بقدر ما وجدت . بل بدت لهم هذه الحيوانات النافقة على أنها ثروة كبيرة ، فاذا لم يجدوها تحولوا الى أكل القطط والكلاب وغير ذلك وأكلوها بشهية كبيرة . حتى تصارع عليه القوم وكبار القادة وتزاحموا فى الأماكن التى وجدت بها الاطعمة بسبب المجاعة الكبيرة ، ولم يعد هناك لحم يأتى من دمياط لأن السلطان الجديد(٢) استولى عن طريق البر على عربات وآلات اخرى وعلى خمسين مركبا فى نهر النيل بين معسكرنا ودمياط كانت كلها محملة بالمؤن والزاد .

---

(١) ذكر جوانفيل أن الغلاء عم داخل المعسكر الصليبى حتى بيع الثور بثمانين جنيها ، ورأس الغنم بثلاثين جنيها ، وبلغ ثمن البيضة الواحدة اثنتى عشرة دنية وبيع كأس الخمر بعشرة جنيهات . راجع جوانفيل ص ١٤٢ (المترجم) .

(٢) نورانشاه (المترجم) .

ولأن عساكر الاتراك كانوا اقوياء ومسلحين تسليحا جيدا فلم يعد أحد منا قادرا على أن يذهب الى النهر أو يأتى منه أو حيث يوجد معسكرنا فى دمياط . وكذلك لأن السلطان الجديد كان قد وضع الأتراك فى الطرق وسد بهم المنافذ فلم يتمكن أحد منا الذهاب أو العودة الى دمياط والا لحقه الموت أو وقع فى الأسر . وفضلا عن تلك المراكب الخمسين التى كانت فى النهر ، اخذت مراكب اخرى لنا كانت تحمل اللحم من دمياط الى معسكرنا . فقد منى الصليبيون بخسائر اخرى اذ كان الصليبيون فى دمياط قد ارسلوا قافلتين[١] من المراكب بلغ عددها ١٠٦ مركبا أو أكثر محملة بالخبز والنبيذ والدقيق ولحم الخنزير واشياء اخرى مخصصة لمعسكرنا كما كانت تحمل ايضا البحارة والرجال المسلحين . وبينما كانت تسير فى البحر هجمت عليها مراكب المسلمين وهزمتها وقتل المسلمون الكثير من بحارتها واسروا الآخرين واستولوا على المراكب وارسلوا اللحم الى معسكر المسلمين ، رغم أنه كان لديهم ما يكفيهم . وبهذه الطريقة اخذوا القافلتين الواحدة تلو الأخرى فتألم الصليبيون لذلك كثيرا ، واتخم جيش المسلمين بهذه المواد من المؤن والزاد . وعندما علم الملك واتباعنا بذلك وعرفوا

---

(١) تكونت القافلة الأولى من اثنتين وخمسين مركبا طبقا لرواية وليم دى نانجى ، جـ ٢٠ ص ٣٧٦ــ٣٧٧ . وقد استولى المسلمون عليها جميعا بدون قتال . أما القافلة الثانية فقد فقدت ٨ مارس . وكانت تتكون من اثنتين وثلاثين مركبا ، راجع سانوتو ص ٣١٩ .

بسوء الحظ الكبير الذى لازمهم واخذ يزداد فى كل يوم وفى كل ناحية ، اخذتهم الدهشة واخذوا يرددون انهم فقدوا كل ما كانوا يمتلكون . وفتر حماس الصليبيين حتى اولئك الذين كانوا يسرعون فى تقديم المساعدة بقدر ما يستطيعون أصبحوا يقومون بها مرغمين . فلم يكن الصليبى عندئذ يبذل كل امكاناته فيما يسند اليه من اعمال ، وكانوا يقولون أن أولئك الذين خسروا مع الكونت دارتوا أفضل منهم . كما كانوا يقولون ايضا انهم لم يتقاضوا مرتبا على الرغم من أن ذلك كان ضمن الأمور المفروضة على الملك . ورددوا ايضا أن كثيرا من الصليبيين لجؤا الى معسكر المسلمين بسبب نقص اللحم والزاد . وكان ذلك امرا سيئا للغاية بالنسبة لأتباعنا[١] . وفضلا عن هذه الأمور التى ذكرناها كان الجيش الصليبى يعانى من ضعف شديد بسبب قلة عدده . فقد كانت هجمات المسلمين تشن يوميا على معسكرنا سواء كانت هجمات كبيرة أم هجمات صغيرة فى أيام الخميس المقدس[٢] وجمعة الصليب[٣] وسبت الفصح[٤] واحد الفصح الكبير[٥] .

---

(١) راجع متى الباريزى ، احداث عام ١٢٥٠ ، ص ٧٧٦ .
(٢) ٢٤ مارس .
(٣) ٢٥ مارس .
(٤) ٢٦ مارس .
(٥) وقع عيد الفصح فى هذا العام يوم ٢٧ مارس .

وقد امتد هجوم كبير من المسلمين على معسكرنا فترة طويلة ، حيث أتوا الى المذبح وفعلوا مثلما ذكرنا يوم الجمعة بعد عيد الرماد . وكان الملك يعتقد بشدة فى أن المسلمين لن يهاجموه فى أى يوم أو يضغطوا على الصليبيين بقوة أو يعملوا السيف فيهم . وكان اتباعنا يقولون أن الذين كانوا معهم مات أكثرهم . ولم يكن أحد راضيا عما يحدث مطلقا . وبدا لهم ايضا أن الرب ليس راضيا عن ذلك مطلقا ، كما بدا لهم أن فى امكانهم أن يرحلوا الى بلادهم لأنهم لا يرغبون فى الأقامة اكثر من ذلك فى تلك الأرض بسبب خيبة الأمل وكل ما حدث وأشرنا اليه من قبل . وارسل الملك بناء على مشورة باروناته رسله الى السلطان المصرى لعقد هدنة معه[١] . ولكن السلطان ومن معه من المسلمين كان يبدو عليهم أنهم سوف يفكرون فى

(١) يروى جوانفيل أن الملك الفرنسى لويس توسل الى فيليب دى مونتفورت أن يذهب الى السلطان المصرى ويبحث معه الهدنة بين الطرفين . وتقابل فيليب مع السلطان الذى خلع عمامته من على رأسه واستل خاتمه من اصبعه رمزا الى أنه سينفذ الهدنة فى امانه . ولكن حدث فى هذا الوقت أن قام احد الخونه من الصليبيين اسمه مارسيل واخذ فى الصياح على الصليبيين قائلا « سلموا انفسكم ايها السادة الفرسان فهذا امر الملك اليكم ولا تكونوا سببا فى قتله » فظن الجميع أن هذه ارادة الملك فاستجابوا له وسلموا الى المسلمين سيوفهم . فلما رأى السلطان ذلك قال لفيليب أنه ليس من الملائم أن يمنح الصليبيين هدنة بعد أن رآهم اسرى عنده . راجع جوانفيل : ترجمة د. حسن حبشى ص ١٤٧ــ١٤٨ (المترجم) .

سنة ١٢٥٠

هذا المطلب . ولكن المسلمين لم يكن لديهم الشجاعة فى أن يمنحوا الصليبيين الهدنة كما سيتضح فيما بعد . فقال السلطان لرسل الملك انه يرغب فى المشورة . وحدد لهم موعدا وجعلهم يذهبون ويعودون ثلاثة أو أربع مرات ، وقد استغرق ذلك الأمر وقتا طويلا للمشورة حول الهدنة . وفى اليوم الأخير الذى عاد فيه رسلنا الى السلطان ليسمعوا منه رأيه فى الهدنة أجابهم السلطان قائلا :

« عرفوا جيدا ملككم وكل الصليبيين الموجودين معه بأننى لن أعطيهم أية هدنة ، واننى اعرف جيدا وضعهم وما يدور فى خلدهم ، أنهم جميعا تحت مشيئتى . عودوا وبلغوهم أن يعملوا كل ما يستطيعون » .

٦١٢ ص

وحينما عاد رسلنا وبلغوا الملك والبارونات بكلام السلطان تملك الجميع الحيرة والدهشة لأنهم لا يستطيعون الاقامة فى اماكنهم أكثر من ذلك . فاتفق الجميع على أن يذهبوا ناحية دمياط اذا أراد الرب ذلك .

الفصل السادس والستون

كيف عاد الملك والصليبيون الى دمياط ؟
وكيف وقعوا فى الأسر وهم فى الطريق؟

قدم بعط البارونات الى الملك النصح وأشاروا عليه سرا أن يأخذ أفضل جواد فى المعسكر ويرحل عن طريق البر الى مكان بعيد . بينما نصحه البعض الآخر بأن يستقل مركبا مسلحا تماما ويذهب الى دمياط بقوة الرياح لينقذ نفسه ويهرب على قدر استطاعته لأن الآخرين كانوا قد فقدوا وأضاف آخرون أن يصحب معه فى رحيله كل اخوته ، ولكن الملك واخوته اسكتوهم فى الحال وقالوا أنهم لن يفعلوا شيئا مما قيل ، وسوف نظل معكم أحياء أو أموات . ومال الكثير الى الرأى القائل بذهاب الملك على الأقل . ولكن الملك لم يفعل ولم يرد القيام بما ينصحون . ولما رأوا اصرار الملك على عدم الذهاب بدؤا يتحدثون فى كيفية رحيلهم . فرأوا أن يصعد كل المرضى والضعفاء الى داخل المركب فى النهر وسوف يقودهم بحارة ورجال مسلحون ضد تيار النهار حتى دمياط لو أراد الرب ذلك . واتفقوا على أن يتركوا جزءا من خيامهم واكواخهم وامتعتهم ليعتقد المسلمون بأنهم عائدين ، واتفقوا ايضا على أن يرحلوا ليلا ليبعدوا ويعبروا فر ع تنيس من الخلف قبل أن

يتنبه المسلمون لرحيلهم . ورأوا أنه من الأفضل أن يذهبوا سويا إما مشيا على الأقدام أو على ظهور الخيل خوفا من المياه أو على البر بحيث يكون بعضهم الى جانب بعض . وبعد أن اتفقوا على هذه الأمور وعلى كل ما يجب أن يفعلوه وما يمكن أن يكون محتملا ، اذ الضرورة هى التى الجأتهم الى ذلك[١] وجعلت من الصعب على من يسمع هذه الرواية أن يصدقها أو أن يصدق أنهم كانوا يستطيعون الهروب بأية طريقة . ولما عبر الملك مع اتباعنا النهر من الجهة الخلفية واستعد الجميع للعودة الى دمياط[٢] حسبما جرى الاتفاق من قبل ، لحهم الاتراك وعبروا بنفس الطريقة فرع تنيس[٣] وطاردوهم بسرعة كبيرة بعد أن ظلوا يضربون المهماز فى خاصرة خيولهم . وبدأوا يصيحون ويصفرون ويدقون الطبول وينفخون البوق وكثيرا ما كانوا

(١) بمعنى أن الضعف الشديد الذى كانوايعانونه بسبب انقطاع الزاد والمياه عنهم من دمياط وما فعله المسلمون من قطع الطريق الموصل اليهم من دمياط فلم يبق لهم صبر على المقام . راجع العينى : عقد الجمان فى تاريخ اهل الزمان (٦٤٨/٦٦٥ هـ) تحقيق د. محمد أمين ، القاهرة ١٩٨٧ ص ١٧ ، ابن تغرى بردى : المصدر السابق جـ ٦ ص ٣٦٤ (المترجم) .

(٢) رحلوا يوم الأربعاء ٣ محرم عام ٦٤٨ هـ الموافق ٧ ابريل عام ١٢٥٠ م راجع العينى : المصدر السابق ص ١٧ــ١٨ (المترجم) .

(٣) جاء فى النجوم الزاهرة أن الفرنج عملوا جسرا عظيما من الصنوبر على النيل فسهوا عن قطعة ، فعبر المسلمون فى الليل الى برهم ، راجع جـ ٦ ص ٣٦٤ (المترجم) .

يحدثون هذا الضجيج خلفهم . وعندما لحقوا بهم حاصروهم من كل جانب ، ووضعوا فى المقدمة عقبات كبيرة لمنع اولئك الذين كانوا يرغبون فى الهرب . وتحركت خمسون مركبا كانت فى النهر بسرعة كبيرة ضد الذين كانوا يبحرون شمالا فى النهر . أما اتباعنا الذين كانوا يعتقدون أنهم سيموتون فقد تشجعوا كثيرا ورغبوا فى أن يبيعوا حياتهم بثمن غال فظلوا طوال فترة اقتراب الاتراك يجرون بشجاعة كبيرة هنا وهناك ليتمكنوا من فتح طريق واسع يمر منه الصليبيون . وكان الملك قد أمر أن لا يتركوا المصابين والجرحى بسبب ضربات الاتراك ، وإنما يحملوهم الى المراكب أو على عربات من المعسكر . واستمر الاتراك يتقدمون نحو الصليبيين ويضربونهم بكل الطرق وبكل ما يستطيعون مما أدى الى نقص اعداد رجالنا ، بينما كان الاتراك يزدادون عددا . وكانت اسلحتهم من رماح وسهام تسقط على اتباعنا كالمطر فتصيب الذين كانوا على ظهور الخيل أو اولئك المشاه حتى كانت تغطينا جميعا . وكم كانت خيبة أمل الصليبيين ، وكان المسلمون انفسهم فى دهشة كبيرة مما يجرى على الرغم من أن الملك ظل يشجع اتباعنا وينصحهم باجادة العمل ليدافعوا عن انفسهم . ولسوء حظهم لحهم السلطان[١] بعد أن اقتربوا من دمياط

---

(١) توارنشاه (المترجم) .

١٢٥٠ سنة

وغدوا على بعد خمسة مراحل منها[١] . وفى الوقت الذى كان يعتقد فيه أن الملك ورجالنا لن يتمكنوا من الهرب فأرسل الى كل المدن حول المنصورة التى مر بها اتباعنا ثم رحلوا ، واستدعى الرجال ليأتوا اليه مشيا على الاقدام أو على ظهور الخيل حتى لا يتمكن(الكلاب الخونة) ـــ على حد تعبيره ـــ من الذهاب أو الهرب . فوصل الرجال من كل ناحية ، وتحدث السلطان اليهم والى من معه ، ومن كانوا فى معسكره فقال لهم :

« انه لمن العار الكبير ، والرذيلة الكبيرة أن يكون فى جيشنا عدد كبير من الأمراء الأقوياء والفرسان الشجعان المهرة وذوى الخبرة الكبيرة التى اكتسبوها من الحروب التى خاضها المسلمون وتساءل الناس كثيرا كيف اننا نملك زهرة الشباب والرجال الشجعان وكل الأراضى ويظل الصليبيون صامدون طويلا امامنا وهم اولئك الضعفاء وسيىء الحظ الموجودون فى هذا المكان ويعانون من الجوع والمرض والضعف والفشل (أولئك الذين يمشون على الأرض وقد خارت قواهم) . واضاف السلطان اننى اعتقد أن ذلك بسبب اخطائنا وأن محمدا حزينا جدا منا ومن اخطائنا[٢] ويجب أن نتذكر جيدا أن اراضى المسلمين دمرت فى مرات عديدة وقتل الأباء والأمهات والأولاد وكان

٦١٤ ص

(١) خمسة اميال .

(٢) هو رسول الله ﷺ (المترجم) .

يمكنهم[١] أن يفعلوا اكثر من هذا لو استطاعوا أن يتغلبوا علينا اولئك الكلاب والخونة الذين يعتقدون أن محمدا وشريعته لا قيمة لها . ولو استطاع الصليبيون أن يصلوا الى دمياط فلن نتمكن من صدهم لأن المدينة لهم وبداخلها عدد كبير من اتباعهم . وسوف يكون هناك خطر كبير علينا وخسارة فادحة على كل امة محمد ان هربوا منا » .

هذه الأمور وغيرها كان السلطان يقولها لأتباعه معاتبا . وكان يتجول وهو على جواده فى الطرق الكبيرة الخاضعة للمسلمين ، ويحثهم على العمل الجيد ، وكان الجميع يصيحون مؤمنين بكلام السلطان . ونفس الشيء كان السلطان يقوله للموجودين داخل المراكب الخمسين . وكان يمر على البحارة بداخلها ويطمئن على المصابين والجرحى وكل الذين كانوا فى حاجة الى المساعدة . ويستبدلهم بآخرين أشداء . وبدا له أن هناك فئة من المسلمين ينبغى العمل على زيادتهم . وكانت البلاد كلها مملوءة بالاتراك اذ كانوا يأتون من كل جهة كالمطر المنهمر . ولذلك أكد الذين كانوا هناك وشاهدوا ذلك أن جيش السلطان بلغ حينئذ نحو ٣٠٠ ألف من الاتراك المسلمين . ولذلك فان الحرب سوف تبدأ من حتما من جديد . فما لبث الاتراك أن حاصروا اتباعنا من كل جهة فوجدوا اتباعنا فى حالة يرثى لها من سوء الحظ . وقد

(١) المقصود بهم الصليبيين (المترجم) .

سنة ١٢٥٠

خارت قواهم وضعفوا حتى اصبح كثير منهم لا يستطيع الوقوف على اقدامه . فتقدم الاتراك باندفاع كبير من كل جهة فتساقط القتلى من الجانبين وإن لم يتمكن اتباعنا من المقاومة طويلا لكثرة عدد المسلمين المهاجمين الذين كانوا يهاجموننا الواحد تلو الآخر . واستمر الاتراك يقتلون ويطعنون حتى غطت جثث القتلى الأرض وراحت الدماء تسيل . وفعل المسلمون ما شاءوا بالصليبيين حتى سقط معظمهم قتلى[١] ووقع البعض الآخر فى الأسر وسيقوا الى السجن . ووقع الملك وأخواه الاثنين فى الأسر[٢] . وكذلك

ص ٦١٥

---

(١) طبقا لأبى المحاسن مات فى هذا اليوم أكثر من ثلاثين الف صليبى . وقال سعد الدين أن عدد الأسرى تجاوز عشرين الفا والذين غرق وقتل سبعة آلاف نفس . ويضيف قائلا « انى شاهدت القتلى وقد ستروا وجه الأرض من كثرتهم وكان يوما مشهودا ولم يقتل فى ذلك اليوم من المسلمين سوى مائة نفس » . وسعد الدين هذا هو بن مسعود بن تاج الدين عبد الله بن عمر بن محمد بن حمويه بن شيخ الشيوخ . راجع ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، جـ ٦ ص ٣٦٥ (المترجم) .

(٢) كان الملك لويس ممتطيا المهر الصغير وعليه بردعة حريرية ، ولم يبق من فرسانه سوى جوفرى دى ساراجين الذى كان يدافع عنه دفاعا مميتا وكلما اقترب المسلمون من الملك استل جوفرى رمحه ورفعه الى ذراعه واندفع عليهم ، وظل هكذا حتى قبض على الملك . راجع جوانفيل : ترجمة د. حسن حبشى ص ١٤٧ . ويذكر ابن تغرى بردى أن الملك التجأ الى قرية صغيرة اسمها « منية ابى عبد الله » على الشاطىء الشرق لفرع دمياط ، وأحدق المسلمون بالفرنج وأبادوهم ولم يبق منهم سوى فارسين فرموا انفسهم فى النيل فغرقوا ، وقبض المسلمون على القديس لويس وحبسوه فى المنصورة بدار ابن لقمان . راجع جـ ٦ ص ٣٦٥ــ٣٦٦ (المترجم) .

كونت بواتييه وكونت دانجو وكونت دى فلاندرز وكونت دى بريتانى وكونت دى سواسون وعدد كبير من الرجال الآخرين من الكبار لا نعرف اسماؤهم على وجه التحديد .
وهرب عدد كبير أيضا من الصليبيين ناحية مراكبنا معتقدين أنهم يستطيعون الهرب ولكن المراكب كانت قد ابحرت . فلما وصلوا الى هناك القوا بأنفسهم فى المياه وغرقوا . وهكذا فقدنا جميع رجالنا الذين كانوا عازمون على الاستيلاء على البلاد . وكان البعض يردد أنه لم يتمكن من الهرب من هذه المعركة الا واحدا فقط ، ولم يبق من اتباعنا الا المرضى والمصابون وكانوا فى المراكب فى طريقهم ليعبروا نهر النيل الا أن المسلمين لحقوا بهم وقتلوا الكثير منهم ، واغرقوا الآخرين ، وكانوا يدمرون المراكب ويغرقونها فى النيل . وكانوا يدفعون مراكبهم بقوة التجديف فى نهر النيل وراء مراكبنا التى كانت تهرب ، ويقومون بقذف النيران على مراكبنا ، وبهذه الطريقة كانوا يحرقون المراكب فى النهر بما فيها من المرضى المصابين وبعض الصليبيين الآخرين . وهكذا فقدنا كل اتباعنا الذين كانوا عازمون على العودة عبر النهر ، ولم تفلح ايا من مراكبنا فى الهرب . وكان ذلك مثيرا للدهشة . وعندما رأى مندوب كنيسة روما السيد ايدى دى كاستل راؤل Eude de Chastel Raoul

وبطريرك بيت المقدس[١] واساقفة وقساوسة آخرين الذين كانوا فى المعسكر مع الملك الارتباك الكبير للصليبيين دخلوا الى المراكب باذن الملك ثم هرب المندوب والبطريرك ، وقتل اسقف لونجرز[٢] وآخرين داخل مراكبهم أما اسقف سواسون[٣] الذى لم يكن الملك يرغب فى تركه فلا نستطيع أن نعرف اذا كان قد قتل أم وقع فى الأسر . وبهذه الطريقة خسر الصليبيون الذين اجتمعوا سويا لمحاربة اعداء ديننا وتقدموا فى البحر والبر وقتلوا بطرق مختلفة . وغنم المسلمون خيامهم ومساكنهم فضلا عن الخيول والسلاح والمراكب والملابس وكؤوس القداس والكتب بالإضافة الى ذهب وفضة وأموال وأشياء أخرى كانت مع الملك . وغدا أعداء المسيحيين اغنياء كثيرا فى الوقت الذى أصبح فيه المسيحيون الهاربون فقراء . وعقب هذه الأحداث المؤلمة التى حدثت للصليبيين أودع السلطان

---

(١) هو روبرت ، وقد حصل على لقب بطريرك بيت المقدس عام ١٢٤٤ م . وحضر مؤتمر ليون المنعقد عام ١٢٤٥ . وقد جاء الى مصر للمساهمة فى تخليص القديس لويس من الأسر . راجع : Ducange, op. cit., p. 729 (المترجم) .

(٢) هيو الثالث دى روش — كوربون كان رئيسا لدير كلونى عندما انتخب اسقفا لمدينة لونجرز عام ١٢٤٤ م . وساهم فى مؤتمر ليون عام ١٢٤٥ م ، ومات فى دمياط ١٣ ابريل عام ١٢٥٠ م .

(٣) جاى ابن راؤل كونت قلعة بورسيان ، اصبح اسقفا لسواسون عام ١٢٤٥ وتبع ملك فرنسا فى حملته الصليبية .

الملك وكل الآخرين فى السجن[١] وأرسل بعضهم الى القاهرة ، والبعض الآخر الى بابليون والى مدن مصر الجميلة . وهكذا اصبحت البلاد مملوءة بكل هؤلاء الأسرى .

لفصل السابع والستون

صيغة الهدنة التى ابرمها الملك والسلطان

بعد وقت قصير من اسر الملك ارسل له السلطان رجاله ، الذين طالبوه بعنف وتهديد ضرورة تسليم دمياط فى الحال الى السلطان فى حالة جيدة وبكل تحصيناتها وعلى نفس الحالة التى دخلها الصليبيون أول مرة . وأن يتحمل الملك كل النفقات والتكاليف التى تحملها هو وأبوه فى

---

(١) اعتقل لويس وأخواه كونت انجو وكونت بواتييه بدار كاتب الانشاء القاضى فخر الدين ابن لقمان بمدينة المنصورة . وكان هذا المنزل حكوميا ينزل فيه هذا القاضى كلما جاء الى المنصورة لعمل يتعلق بوظيفته ولم يشر أحد المؤرخين الى أنه سجن بدار ابن لقمان التى بالقاهرة الا ابن تغرى بردى . وأصدق دليل على هذا ما رواه شاهد عيان هو جوانفيل . وفضلا عن ذلك فأن لجنة الآثار العربية عند تسلمها الدار وضعت على بابه لوحة من الرخام مكتوب عليها أن هذه الدار هى التى سجن بها القديس لويس . راجع ابن تغرى بردى : المصدر السابق جـ ٦ ص ٣٦٦ ح ١ (المترجم) .

الحرب طالما أن الصليبيين وصلوا الى مصر[١] وكذلك يعيد كل الأسرى المسلمين القدامى والجدد سواء فى مدينة دمياط أو فى مملكة بيت المقدس . وكل الخسائر التى لحقت به وبأبيه[٢] فى الحروب التى شنها الملك[٣] . وبعد مناقشا طويلة عقدت هدنة بين الملك والسلطان طبقا لهذه الشروط[٤] على أن يحرر السلطان كل الصليبيين المرضى الموجودين فى كل اراضيه وكل الأراضى الخاضعة لنفوذه والذين تم اسرهم من ساعة وصول الملك الى مصر وفى كل الاماكن الاخرى منذ عقد الهدنة بين الكامل وجده الامبراطور فردريك[٥] . وفى اية ارض تم اسرهم فيها سواء

(١) ميناء دمياط (المترجم) .

(٢) الصالح نجم الدين ايوب (المترجم) .

(٣) لويس التاسع (المترجم) .

(٤) طلب السلطان تورانشاه من الملك لويس أن يسلم له بعض المعاقل اللاتينية فى الأراضى المقدسة أو تلك التى تتبع الفرسان الداوية والاسبتارية . ولكن لويس رفض ذلك موضحا أن هذه البلاد ليست من املاكه بل تخص الملك كونراد ابن الامبراطور فردريك الثانى وليس من حق أى فرد أن يتخلى عنها سوى الامبراطور . فتنازل السلطان عن مطلبه . راجع جوانفيل : ترجمة د. حسن حبشى ص ١٥٧ ، جوزيف نسيم : المرجع السابق ص ٨٣ وكذلك : Run ciman, op. cit., t. III, p. 325 (المترجم) .

(٥) تمت هذه الهدنة فى ١٨ فبراير عام ١٢٢٩ م وسميت بمعاهدة يافا ، واعتبرت اتفاقا شخصيا بين السلطان الكامل محمد والامبراطور فردريك الثانى ، وتضمنت ثمانية عشر بندا ، كان فى مقدمتها أن يتسلم فردريك بيت المقدس راجع بقية البنود عند : Philip of Navare, op. cit., pp. 36-37 (المترجم) .

كانوا فقراء أو اغنياء وأن يكون الملك واخوته وكل البارونات فى المقدمة وبمقتضى هذه الهدنة نفسها يعيد الصليبيون جميع الأراضى التى فى حوزتهم فى مملكة بيت المقدس منذ وصول الملك الى مصر بدون دفع اية غرامات وهى : بعض المدن والقلاع والحصون ومدينة دمياط أما كل المتعلقات والأشياء التى تركها الملك والصليبيون داخل مدينة دمياط فيمكنهم حملها وفقا لرغباتهم . وكل الأشياء التى يرغب الصليبيون فى تركها داخل دمياط سوف تظل تحت حراسة ودفاع السلطان حتى يرسلها الى أى مكان يرغبون وفى أى وقت يشاؤون برا أو بحرا . أما الصليبيون المرضى فى دمياط الذين ينتظرون بيع متعلقاتهم أو وصول المراكب فجرى الاتفاق أن يظلوا فى أمان داخل المدينة . وجرى التأكيد على ذلك بل ويمكنهم الرحيل مع متعلقاتهم برا أو بحرا ويلتزم السلطان بقيادتهم جميعا حتى اراضى الصليبيين . ويجب على السلطان أن يتمسك بكل الشروط والا يمتنع عن تنفيذ بنودها أو ينقض هذا الاتفاق بل يلتزم باتمامها . أما الملك فهو مجبر على الانسحاب من دمياط واعادتها الى السلطان . ودفع ثمانى اقساط كل منها قدره ألف بيزنط عربى لاطلاق سراحه . وتنفيذ كل الشروط الأخرى التى حددناها من قبل وتعويضا عن كل المصاريف والخسائر التى تكبدها السلطان ووالده وجميع الذين اشتركوا فى هذه الحرب . وكان الملك مضطرا ايضا لاطلاق سراح المسلمين

١٢٥٠
سنة

عنده من الأسر اولئك الذين تم اسرهم فى مملكة القدس منذ ايام الهدنة المنعقدة بين الملك الكامل جد السلطان والامبراطور الرومانى فردريك . فضلا عن الذين وقعوا فى الأسر فى مصر منذ وصول الملك الى ميناء دمياط . وأقسم السلطان على أن يتمسك بهذه المعاهدة على النحو الذى أوضحناه حسب تعاليم محمد واسلوبه . وأقسم الملك بنفسه بأن يتمسك بهذه الاتفاقية ويلتزم بشروطها وفق ما أقسم عليه المسيحيون . ودفع الملك الى السلطان نصف فديته ومقدارها ٤٠٠ ألف بيزنط ، وعندما تأكدت الهدنة هكذا من الطرفين[١] جاء السلطان مع كل جيشه وصحب معه الملك واخوته والبارونات واتجهوا جميعا ناحية دمياط لتنفيذ كل الشروط كما ارتضاها الجانبان من قبل . فأقاموا يوما على مقربة من دمياط . وفى الصباح تناول السلطان طعام الافطار ، وهناك تقدم تجاههم بعض فرسان المسلمين وفقا لاتفاق معظم افراد المعسكر الإسلامى بطريقة هجومية ، ولكننا لا ندرى بالتأكيد لما حدث ذلك ؟ وأرجع البعض ذلك بسبب طمعهم فى

٦١٨
ص

---

(١) بدأت المفاوضات منذ اليوم الأول لأسر الملك لويس ، ولم تنته تماما الا بعد موت السلطان تورانشاه . انظر حول هذا الموضوع رينو : مقتطفات من المؤرخين العرب ص ٦٤ ، ٧٢ وتاريخ هرقل ص ٤٣٨ .

فدية الملك ورغبتهم فى اخذها[١] . وعندما رأى السلطان تقدمهم ادرك وجود خيانة ، فخرج فى الحال من خيمته وحاول الهرب ، فطارده معظم الأمراء المسلمين هناك وضربوه بسيوفهم بقسوه وقطعوه اربا[٢] . وتم هذا فى الحال بغضب وحنق كبيرين ، واتجه عدد كير من المسلمين المسلحين الى خيمة الملك وكان يبدو عليهم الرغبة فى أن يقبضوا عليه هو والصليبيين الآخرين ويقتلوهم جميعا كما قتلوا سيدهم . ولكنهم حينما وصلوا حيث كان الملك ، لم يظهروا نوايا الشر ضده بل طلبوا منه أن يعقد معهم هدنة جديدة وتحالفا مثلما فعل مع السلطان ويحرر لهم مدينة دمياط فى الحال .

(١) لم يكن بسبب هذه الفتنة الرغبة فى الاستحواز على فدية الملك كما يدلى هذا المؤرخ وإنما افاضت المصادر فى ذلك وعللت سببها بمعاملة تورانشاه للمماليك بطريقة جافة وعدائية (المترجم) .

(٢) كان ذلك يوم ٢ مايو ، راجع قصة اغتياله فى مقتطفات المؤرخين العرب ص ٤٦٨ وما بعدها . وكان السبب فى قتله أنه بدلا من اعترافه بالجميل الى مماليك ابيه وأمرائهم قبض على عدد كبير منهم وجردهم من وظائفهم وقرب اليه حاشيته التى وصلت معه من حصن كيفا وصار اذا سكر جمع الشمع وضرب رؤوسها بسيفه حتى تنقطع ويقول « هكذا فعل بالبحرية » كما أنه أخذ يسيىء الى زوجة أبيه شجر الدر ويهددها فأضطرت الى الالتجاء الى الامراء البحرية الذين كانوا منحازين اليها لحمايتها من بطش السلطان فعقدوا النية فيما بينهم على التخلص منه قبل أن يفتك بهم . وحدث ذلك فى محرم ٧٤٨ هـ راجع العينى المصدر السابق ص ٢٤ ، جمال الدين الشيال : المرجع السابق جـ ٢ ص ١٣٥ (المترجم) .

الفصل الثامن والستون

كيف قتل المسلمون السلطان ؟
وكيف أعادوا عقد الهدنة من جديد بين الملك ومائة واثنين وعشرين أميرا[٢]

عندما تحدث الملك والأمراء[١] معا حول هذه الأمور اقسموا كثيرا وأكدوا بأنهم سوف يتمسكون بالهدنة وما جرى الاتفاق عليه بين الملك والسلطان . واخيرا اتفق الملك والصليبيون الذين معه على الصيغة الآتية : أن يقسم جميع الأمراء فى معسكر المسلمين وعددهم مائة واثنين

٦١٩
ص

أما عن مقتله فقد اقتحم أحد الامراء البحرية خيمته وضربه بسيفه فالتقاه السلطان بيده فقطع بعض اصابعه ثم صعد الى البرج المقام بجوار خيمته ، ولكن سرعان ما اجتمع عليه مماليك ابيه ونادوا عليه لينزل لهم . وعندما رفض النزول اشعلوا النيران فى البرج فالقى السلطان بنفسه فى ماء النيل والبحرية تلاحقه حتى غرق فمات جريحا حريقا غريقا . راجع ابو شامة : المصدر السابق ص ١٨٥ ، العينى : المصدر السابق ص ٢٥ــ٢٧ ، ابن تغرى بردى : المصدر السابق جـ ٦ ص ٣٧١ ، وكذلك سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك ، القاهرة (ن .ت) ص ٢٠١ ، ومن المصادر الأجنبية راجع : Eracles, op. cit., p. 439 (المترجم) .

(١) على الرغم من أن الشق الأول من هذا العنوان يتصل بالنص السابق وليس بالنسبة للفصل الجديد الا أننا مع ذلك نميل الى تركه فى هذا الموضوع المحدد له فى المخطوط (المترجم) .

(٢) المقصود بهم امراء المماليك (المترجم) .

وعشرين اميرا على شريعة محمد[١] بأنهم سوف يتمسكون تماما بالهدنة المبرمة مع الملك والصليبيين وبكل الاتفاقات التى سبق ابرامها . وكذلك أقسم الملك وجميع البارونات معه مثلما فعلوا مع السلطان . وحددوا فى هذه الهدنة الأخيرة اليوم المؤكد لتسليم دمياط الى الأمراء . وأن جميع الضعفاء من كلا الجانبين سوف يطلق سراحهم . وفى اليوم المحدد سلم الملك دمياط الى الامراء . وبالمثل اطلق الأمراء سراح الملك واخويه كونت دى بواتييه وكونت دانجو ، وكذلك كونت دى فلاندرز وبيير موكلير الذى كان كونتا لبريتانى ، وكونت سواسون وبارونات آخرين . وفرسان مملكة فرنسا وبيت المقدس وجزيرة قبرص وبلاد أخرى . وعندما تم ذلك اعتقد الصليبيون مع الملك وتأكدوا أن الأمراء سوف يتمسكون حتما باليمين الذى اقسموه للملك فيما يختص بالهدنة وكل التفاصيل الأخرى . ولهذا ترك الملك مندوبين عنه مع الأمراء لاستقبال الأسرى بينما رحل هو من دمياط . أما الملكة زوجته وكونتيسة دانجو[٢] اخت الملكة ، وكونتيسة دارتوا[٣] ، وكونتيسة بواتييه[٤] ، ودوق بورجوانى[٥] ، وجميع

(١) المقصود به القرآن الكريم (المترجم) .

(٢) بتريكس ، كونتيسة المقاطعة وزوجة شارل دانجو ملك صقلية

(٣) ماتلدا زوجة روبرت الأول كونت ارتوا ، وقد تزوجت فيما بعد من جاى دى شاتيون .

(٤) جانيت دى تولوز .

(٥) هيو الرابع .

سنة ١٢٥٠

الفرسان الآخرين رجالا ونساء فقد كانت لديهم الرغبة فى العودة ومعهم كل متعلقاتهم . واذ كانت المراكب قليلة العدد ولا تسعهم جميعا فقد تم الاتفاق على أن يبقى منهم فى البلد ، بينما صعد الملك الى ظهر مركبه . وكذلك كل من تمكن أن يجد له مكانا على المركب ، ورحلوا جميعا من ميناء دمياط وابحروا متجهين مباشرة الى عكا[١] . وخرج الصليبيون فى عكا لاستقبال الملك ، ولقوه بحفاوة كبيرة ، وكان الشمامسة يرتدون الملابس الرسمية حاملين المباخر وأدوات اخرى تخص الكنيسة المقدسة . وكذلك الفرسان والبارونات والسيدات والأنسات وأناس آخرين كانوا فى أبهى حللهم على قدر استطاعتهم . ودقت أجراس كنائس المدينة واستمرت تدق أياما . وعندما لمحو الملك من بعد فى عرض البحر توجه كثير من النبلاء اليه لاستقباله فى الميناء التى وصل اليها . وصحبوه ومن معه ، واتجهوا الى كنيسة المدينة الكبرى . وكان كثير من الناس يبكون فرحا عندما وجدوا الملك وأخويه معه ، وقد اطلق سراحهم بعد المحن الكبيرة التى نزلت بالصليبيين . وبعد ذلك صحبوا الملك الى المكان المخصص له ، وأتى له كل الرجال الكبار فى المدينة لتقديم الهدايا القيمة والغالية اليه .

ص ٦٢٠

---

(١) ٨ مايو .

الفصل التاسع والستون

كيف نقض الأمراء الهدنة بطريقة سيئة ؟

بعد وصول الملك الى عكا بادر بارسال رسله الى مصر وبصحبتهم مراكب عديدة لنقل الضعفاء والمصابين من دمياط بسبب المرض ونوازل اخرى . وعندما وصل الرسل الى دمياط ، كان الأمراء الموجودون هناك قد رحلوا ، فتبعوهم الى بابليون وطلبوا منهم عن لسان الملك أن يطلقوا سراح الضعفاء ويسلموا الأشياء الأخرى التى كانت تخص الملك والصليبيين حسب شروط الاتفاقية التى اقسموا على احترامها . فأعطاهم الامراء الامل فى أنهم سوف يطلقون سراح الاسرى وخصصوا لهم مكانا واسعا فى بابليون يقيمون فيه . وظل رسل الملك يستحثونهم كل يوم بشجاعة كبيرة على تحرير الضعفاء والمرضى والمصابين ، وأن يحافظوا على قسمهم . وبعد أن طال انتظار الرسل لم يسلم الامراء لهم من الضعفاء سوى اربعمائة فقط هم ممن كانوا لا يملكون القدرة على تقديم المساعدة للفرنج بسبب ضعفهم وسنهم ومرضهم . وقد مات بعضهم بعد وقت قصير متأثرين بآلامهم وما قاسوه من البؤس وخداع الامراء لنقضهم الهدنة التى اقسموا اليمين على احترامها امام الملك والصليبيين . وكان هؤلاء الاربعمائة اسير من جملة الاسرى

ص ٦٢١

وعددهم اثنا عشر الف أسير . وبقى فى حوزتهم كل الأشياء التى تخص الملك والصليبيين . أما الذين بقوا فى دمياط بعد رحيل الملك فكان مصيرهم السجن مع الضعفاء ولم يطلقوا سراح الا من هم اكثر ضعفا . وكانوا يضعون السيوف على رقابهم وعلى اجسادهم ليجبروهم خوفا والما على ترك الديانة المسيحية(١) . ويعتنقوا شريعة محمد ولكن ظل كثير منهم يدافعون عن سيدنا يسوع المسيح ومتمسكين تماما بإيمانهم وعقيدتهم . ولم يتمكن الامراء من تحويلهم عن ايمانهم بالمسيحية ببث الخوف وتجرع الآلام . فانتهت حياتهم فى هذا القرن كشهداء ممجدين . أما اولئك الذين بقوا فى دمياط ولم يتمكنوا من الرحيل مع الملك لقلة المراكب ، والذين ظلوا من اجل بيع متعلقاتهم أو بسبب مرضهم ، وكذلك العاجزين عن الحركة فكان مصيرهم جميعا القتل بقسوة . وروى بعض الناس أنهم كانوا يحضرون أكياسا ويدخلون الصليبيين فيها ويربطونهم بشدة ويشعلون النيران فيها ، فيحرقونهم بقسوة وعنف . وقالوا أيضا بأن المسلمين احضروا كل بارونات المدينة(٢) وجثث القتلى الصليبيين ، وبعض من تبقى على

---

(١) هذه اكاذيب من نسج خيال المؤرخ قصد من ورائها تمجيد بنى جنسه كشهداء وقديسين ، وفى نفس الوقت تشويه صورة المسلمين. وسبق أن أوضحنا ذلك فى المقدمة راجع ص ٣٦ــ٣٧ . (المترجم)

(٢) دمياط (المترجم) .

قيد الحياة منهم واخذوا يسحلونهم على الأرض الى مكان حصين فى المدينة ثم يشعلون فيهم النيران حتى يصبحوا رمادا كما كانوا يأتون ببعض الصليبيين ويربطونهم بحبل متين مع الصليب وصليب الصلبوت الذى كان بمدينة دمياط ثم يسحلونهم بسخرية كبيرة واستهزاء ويضربونهم ويقطعونهم ويمشون عليهم بأقدامهم بوحشية[١] . وأكد كثير من الناس أنه لو ظل الملك والذين معه مقيمين فى دمياط وتأخروا قليلا لما تمكن أحدهم من الهرب ولأصبح مصيرهم القتل والتقطيع . وعندما علم رسل الملك بهذه الأمور القاسية اخذوا طريقهم مع الاربعمائة اسير الذين تسلموهم من المسلمين بعد أن تحدثوا كثيرا بشأن الأمور الأخرى . ولكن لم يكن بوسعهم عمل شيء ، ولهذا ادركوا أنهم لن يستطيعوا استعادة شيء فاستقلوا مراكبهم مع ذويهم من الأسرى ، وعادوا الى الملك بعكا وأخبروه بكل ما حدث لهم . فاصابته الدهشة الشديدة وكل من كان معه . فلم يعرفوا ماذا يقولون . وفى الوقت الذى حضر فيه هؤلاء الرسل من مصر يحملون هذه الأخبار كان الملك قد جهز مركبه وامدها بالتموينات استعدادا للعودة الى فرنسا فى شهر

(١) لاشك أن هذا ادعاء كاذب ويدل على تحامل المؤرخ ضد المسلمين ، وتحيزه التام الى بنى جنسه والدليل على عدم صدقه أن المصادر الإسلامية والغربية معا لم تشر الى ذلك الوصف البشع الذى لا يمكن أن يصدر من اصحاب كتاب سماوى اعتادوا على الفضيلة والعفو والسماح منذ حركة الفتوحات الإسلامية ايام الخلفاء الراشدين (المترجم) .

اغسطس الذى اقترب قدومه ، ولكنه عندما رأى أن الأمراء نقدوا الهدنة والاتفاقات التى اقسموا أن يتمسكوا بها وفقا لشريعة محمد اعاد النظر فى امر رحيله عن عكا بدون أن يتلقى النصيحة[١] . فارسل فى استدعاء جميع بارونات فرنسا الموجودين هناك فنصحوه بأن يرسل رسلا الى الأمراء[٢] . ليعيدوا الى الملك رجاله وليأكدوا احترامهم لقسمهم له فابلغ الامراء المسلمين هذا الامر الى السلطان[٣] . فاقسم بمجرد علمه بهذه الاخبار أنه لن يبرم هدنة على الاطلاق مع الصليبيين . وعندما علم الملك لويس بهذا طلب ابداء الرأى فى هذه الأمور التى حدثت ، فتوحدت كلمة الجميع تقريبا على أن يطالبوا الملك بعدم العودة الى فرنسا طالما أن الأمراء المسلمين قد نقضوا الهدنة حتى لا يترك الأرض والبلاد والصليبيين تحت أيدى ومشيئة المسلمين ، ويترك الضعفاء وغير المبصرين يموتون جوعا ، والمعذبين فى السجون ، فيفقدون بذلك الأمل فى

(١) اتفق حنا دابلين كونت يافا وجوانفيل على ضرورة حث الملك على أن يمد اقامته فى فلسطين ، بينما جاءت نصيحة جاى مالفوازان ، على عكس ذلك فكان يضغط على القديس لويس بضرورة الرحيل الى فرنسا ، وقد تقاسم فى الرأى كل من اخويه وكونت انجو وكونت بواتييه وكونت فلاندرز وشخصيات اخرى كبيرة . وتم ذلك فى ١٩ يونيو من نفس العام . راجع تيلمونت ص ٤٨٩ .

(٢) المسلمين (المترجم) .

(٣) عز الدين ايبك (١٢٥٠ــ١٢٥٧ م/٦٤٨ــ٦٥٥ هـ) (المترجم)

اطلاق سراحهم . فاذا رحل الملك فى ظل هذه الظروف سوف تفقد الأرض كلها وينتهى الموجودون فى السجون وغيرهم . فيتم بذلك موت كل الرجال العظام فى الحرب الكبيرة بمصر . والتى عانى الصليبيون فيها من الضعف الشديد والبؤس والألم . وان ظل بعض الصليبيون فى البلد فلن يتمكنوا من الاستقرار فى الأرض أو الدفاع عنها . وكذلك رؤا أنه اذا اقام أحدهم فى هذه البلاد فسوف يكون مصيره القتل أو الأسر ، وكانوا يقولون أيضا فيما بينهم لو بقى الملك هناك فترة من الوقت فى تلك الأرض[١] حيث يوجد الضعفاء والمصابون لأصبح من الممكن أن يطلق سراحهم ، ولامكن فى نفس الوقت استرداد المدينة والقلاع وانقاذ الصليبيين[٢] . بينما ردد البعض الآخر القول أنه ليس من المفضل أن يظل الملك مدة أكثر من ذلك فى اراضى ما وراء البحر لأن بقاءه فيه خطر كبير . وحينما سمع الملك الرأى القائل أنه اذا ترك بلاد ما وراء البحر على هذا الحال فسوف يكون سببا فى فقدان كل البلاد ، أجاب بأنه لن يترك الأرض المقدسة على هذا الوضع

ص ٦٢٣

(١) المقصود بها مدينة دمياط (المترجم) .

(٢) اراد المؤرخ أن يوضح لنا أن بقاء الملك فى دمياط بعض الوقت ، وعدم رحيله الى عكا كان سيعود على اسرى الصليبيين بالفائدة الكبيرة لأن المماليك كانوا سيلتزمون بتنفيذ ماجاء بالهدنة المنعقدة بينهم وبين القديس لويس . ولكن تسرع الملك فى الرحيل اتاح الفرصة لأمراء المماليك لنقض الهدنة بالصورة التى اوضحناها (المترجم) .

وسوف يبقى فترة اخرى إما يموت مع كل الصليبيين بها أو يعيش الى جوارهم . وقال أيضا بأنه لا يرغب فى الحياة فى هذا القرن[١] فقد كان سببا فى ضياع الأرض[٢] ، ولن يترك الأرض المقدسة وسط هذه الأخطار . وتأثر كثير من الناس عندما سمعوا الملك يتكلم بهذه الطريقة ، فأحسوا بالشفقة عليه وانخرطوا فى البكاء وكان الملك قد ارسل أخوته الى فرنسا ، وبواسطتهما وعني طريق بعض الخطابات التى ارسلها معهما بخاتمه الجديد نقلت الأخبار الحسنة والسيئة على حد سواء . وطلب الملك من أولئك الموجودين فى فرنسا كبارا وصغارا فقراء أو أغنياء ليساعدوه وليساعدوا الأراضى المقدسة حاثا اياهم على ذلك ومعاتبا . فرغب الكثيرون فى العمل حسب رغبة سيدنا المسيح ومن أجل محبته تسابقوا الى الحروب الصليبية وتركوا الأرض وتركوا فرنسا وتوجهوا الى الأراضى والبلاد الاجنبية . وهكذا اقام الملك لويس فى بلاد ما وراء البحر وعاد اخوة الملك والبارونات الآخرين الى ارض فرنسا . وهذه صورة للحياة التعسة وسوء الحظ الذى صادف الصليبيين لأن المسيحيين كانوا قد فقدوا للمرة الثانية[٣] مدينة دمياط

---

(١) القرن الثالث عشر الميلادى (الترجم)

(٢) المقصود بها دمياط وعدم تحقيق أمل الصليبيين فى الاستيلاء على مصر (المترجم) .

(٣) كانت المرة الأولى اثناء الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٨ــ١٢٢١ م/٦١٥ــ٦١٨ هـ) (المترجم) .

العظيمة المحصنة ، وكان ذلك فى شهر مايو ١٢٥٠ من ميلاد سيدنا يسوع المسيح ، وكان البابا فى روما هو انوسنت الرابع[١] ، ولويس هو ملك فرنسا وهنرى هو ملك انجلترا[٢] . أما ملك المانيا فقد توج وانتخب امبراطور لروما وهو وليم كونت هولندا[٣] . ورئيس اساقفة رينز جول Rainz Joel[٤] الذى كان رئيسا لاساقفة تور .

الفصل السبعون

سوء الحظ الذى حدث للصليبيين فى نفس العام والامور الاخرى التى حدثت لهم فى ارض ما وراء البحر

حضر بعض الرسل الى الملك اثناء اقامته فى عكا واخبروه أن التركمان المسلمين دمروا مرتين وفى وقت قصير

(١) تولى منصب البابوية فيما بين عامى ١٢٤٢ــ١٢٥٤ (المترجم) .

(٢) هنرى الثالث (١٢١٦ــ١٢٧٢) (المترجم) .

(٣) ظل امبراطورا فيما بين عامى ١٢٤٧ــ١٢٥٦ م (المترجم) .

(٤) كان رئيس اساقفة تور عندما استدعاه البابا انوسنت الرابع فى حصار ريمز عام ١٢٤٤ قبل ذلك وقد مات فى شهر ديسمبر عام ١٢٥٠ م . فيما يختص بتنظيماته الاسقفية ، راجع غاله المسيحية جـ ٩ ، وعمود ١١١ــ١١٣ وكذلك مارلوت : تاريخ ريمز .

ارض انطاكيا المحصنة وذات الحصون القوية[١] . وأتى اليه رسل اخرى من ارمينيا واخبروه أن المسلمين دمروا ارض ارمينيا واصبحت تقريبا خربة واخذوا اخا للملك ارمينيا وصحبوه الى السجن . وقال له آخرون أن صليبى طرابلس[٢] ذهبوا لمحاربة المسلمين ، ولكنهم هزموا وفقد الصليبيون كثيرا من اتباعهم واسلحتهم وخيولهم . وقال له البعض الآخر أن الرسل التى كان قد ارسلها من قبل الى المسلمين والتتار عادوا ، ولكنهم كانوا قد وقعوا فى يد المسلمين . فوضعوا فى السجن بمدينة حلب . وارسل ايضا شيخ الجبل وسيد الحشيشية[٣] رسله الى الملك ولكننا لا نعرف لماذا فعل ذلك[٤] وكذلك ارسل الامراء العظام لجريفون Grifonz وفاتشى Vataiches رسلهم الى

---

(١) ذكر متى البارهزى فى هذا الشأن أن الراهب جوزيف دى كانسى امين خزانة الاسبتارية فى الأراضى المقدسة قد ارسل خطابا من عكا الى احد الأخوان الدومنيكان فى انجلترا يخبره أن التركمان قاموا بغارة شديدة بايعاز من الناصر يوسف صاحب الشام على المناطق المجاورة لانطاكية مما دفع سكانها الى الفرار طلبا للنجاه . راجع Matthew Paris, op. cit., t. II, p. 501 (المترجم) .

(٢) كان يحكمها عندئذ بوهيمند الخامس صاحب انطاكية (١٢٢٣ــ١٢٥١ م) (المترجم) .

(٣) لم تسعفنا المصادر فى معرفة اسم شيخ الجبل فى هذه الفترة الزمنية حيث توجد فجوة كبيرة فى اسمائهم فى فترات مختلفة (المترجم) .

(٤) كان الغرض من هذه السفارة ارهاب القديس لويس ومطالبته بتقديم فروض الولاء والطاعة لشيخ الجبل ، واعفاء الاسماعيلية من دفع الجزية المفروضة عليهم من قبل جماعتى الفرسان الداوية ــ

الملك . ولكننا لا نعرف لماذا فعلوا ذلك . ولكن الملك ارسل رسائل الى فاتيشى وعجوز الجبل مع رسلهم أنفسهم . أما الرسل الآخرين الذين كانوا عظاما فقد اتوا الى عكا مرتين فى وقت قصير من طرف فردريك الذى اصبح امبراطورا على روما مطالبا ومبديا رغبته فى وضع نوابه وسرجنديته داخل مدينة عكا وفى القدس بلد المسيحية[١] . وقد وصل آخرون وقالوا للملك أن ملك قبرص كان متزوجا من ابنة امير انطاكية[٢] . وسر الملك لكل هذه الأخبار وما جرى من احداث .

ـ والأسبتارية . واستقبل الملك المندوب الاسماعيلى استقبالا حسنا . وكان رئيس الوفد يجلس فى المقدمة ويرتدى زيا حسنا ودرعا كاملا ومن خلفه شاب آخر يمسك فى يده ثلاثة خناجر يتداخل بعضها فى بعض ، ووقف خلفه شاب ثالث ومعه قطعة قماش لفها على ذراعه وتدل على انها كفن الملك اذا رفض مطالب شيخ الجبل أو فكر فى معاداته ، ولكن لويس رفض تلبية هذه المطالب ، راجع جوانفيل : ترجمة د. حسن حبشى ص ٢٠٣ــ٢٠٥ وكذلك : Michaud, op. cit., t. II, p. 487; Défremery, op. cit., p. 476; Grousset, op. cit., III, p. 516 (المترجم) .

(١) ذكر جوانفيل أن الامبراطور فردريك ارسل هؤلاء المندوبين للعمل على اطلاق سراح الاسرى الفرنج ، واطلعوا الملك لويس على الكتب التى بعث بها الامبراطور الى السلطان الصالح ايوب فى هذا الشأن دون أن يعلم نبأ وفاته . راجع ترجمة د. حسن حبشى ص ٢٠٠ (المترجم) .

(٢) الاميرة بليزانس Plaisance راجع جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٣١٥ (المترجم) .

سنة ١٢٥٠

ثم حضر رسل أمراء مصر الى الملك وطلبوا منه التمسك بالهدنة المبرمة بينه وبينهم كما كان الحال من قبل . فأجابهم الملك بأنهم نقضوا الهدنة بالطريقة التى اخبرتكم بها من قبل ، وما لبث الملك أن ارسل رسله الى الأمراء فى مصر[1] ولكننا لا نعرف ماذا فعلوا . وحضر آخرون وأخبروا الملك باندلاع الحروب الأهلية بين المسلمين أنفسهم[2] فعندما علم سلطان حلب[3] أن أمراء مصر قتلوا سيدهم السلطان[4] جهز فى الحال قواته من المشاه والفرسان وبعث الى كل اصدقائه ليأتوا لمساعدته ، فحضروا مع كل قواتهم مسلحين واستولوا على دمشق وعلى كل المدن والحصون تقريبا[5] فى أراضى سوريا وبيت

ص ٦٢٥

(١) ارسل القديس لويس حنا دى فالنز Jean de valence

(٢) راجع ابو الفدا فيما يختص بهذه الحروب التى بدأت عام ١٢٥٠ م . وقد ذكر جوانفيل أن الملك الناصر صلاح الدين يوسف سلطان حلب قد ارسل الى القديس لويس يعرض عليه تسليمه بيت المقدس مقابل أن يستعده ضد سلطان مصر عز الدين ايبك ولكن الملك لويس أجل الرأى فى هذا حتى يرسل الى امراء مصر ويسألهم أن يعوضوه عن الاتفاقية التى كانت بينهم وبينه ونكثوها فان لم يجيبوه نهض لمساعدة سلطان حلب . وقد استجاب امراء مصر لمطالب لويس . راجع ترجمة د. حسن حبشى ص ٢٠٠ ، ٢٠٨-٢٠٩ وكذلك :

. Runciman, op. cit., t. III, p. 290

(٣) الملك الناصر . (المترجم)

(٤) المعظم تورانشاه (المترجم) .

(٥) بعلبك وصرخد وبصرى وعجلون والسلط . راجع ابو شامه . المصدر السابق ص ١٨٦ (المترجم) .

المقدس ، وكانت كلها تحت سيطرة امراء مصر . واعلن سلطان حلب رغبته فى المسير الى مصر بكل قواته لينتقم بشدة وعنف لموت السلطان الذى اغتاله الأمراء هناك . كما الحت عليه رغبة شديدة فى أن يهزم كل ارض مصر لتصبح له ولجيشه . وهكذا كانت الاخبار تتردد وتأتى الرسل الى الملك فى عكا من كل جهة ليحملوا له الأخبار وليبشروه برخاء العيش وتحسن الاحوال . ويبدو كما لو كانوا يقدمون له المساعدات ويظهرون له شجاعتهم .

الفصل الحادى والسبعون

كيف تم تحرير بعض الصليبيين ؟

عندما عاد اخوة الملك والبارونات الآخرين[١] الى فرنسا ارسل رؤساء بابليون ومصر وبعض الامراء الآخرين الى الملك فى عكا عددا من الاسرى الصليبيين الذين كانوا فى السجون هناك ومنهم رئيس الاسبتارية[٢] وخمسة وعشرين فارسا من الاسبتارية ، وخمسة عشر من فرسان الداوية وعشر فرسان من بيت اسبتارية المانيا وكذلك مائة فارس ، وستمائة آخرين من المسجونين بين رجال ونساء . فأرسل

(١) بارونات فرنسا .

(٢) وليم شاتونوف (١٢٤٣ــ١٢٥٨ م) (المترجم) .

الملك رسله وبعض الهدايا القيمة الى ثلاثمائة من المماليك المسلمين من كبار رجال مصر الذى أقاموا احتفالات كبيرة واعادوا الى الملك ما يقرب من اربعمائة وعشرين من الفرسان الصليبيين والفين ومائتى وعشرين من باقى الأسرى من الرجال والنساء . كما ارسلوا ايضا ضمن هداياهم فيلا وبغلا وأشياء أخرى قيمة[1] . وكان الملك يدفع كثيرا لشراء الاسرى الضعفاء من المسلمين الموجودين فى أسر الصليبيين ثم يعيدهم الى رؤساء مصر الذين يقومون بدورهم بأعادة الضعفاء المسيحيين . وقد دفع الملك مبالغ طائلة لأخذ الفرسان ورماة السهام . وبعث رسله وهبات كبيرة الى السلطان فاستقبل رسل الملك بترحاب كبير .

٦٢٦
صـ

١٢٥١
سنة

الفصل الثانى والسبعون

كيف هزم حكام مصر سلطان حلب ؟

تأكيدا لما سبق قوله ، فان سلطان حلب[2] كان قد جمع جيشا كبيرا واستولى على مملكتى دمشق وبيت المقدس عدا المنطقة التى تحت سيطرة الصليبيين ثم بادر

(١) لجأ السلطان عز الدين ايبك الى مصالحة الصليبيين لانه وجد ليس من مصلحة المماليك معاداة لويس قبل أن يؤمنوا ظهورهم تجاه الايوبيين فى الشام (المترجم)

(٢) الناصر يوسف (المترجم) .

بمهاجمة المصريين تدفعه الرغبة الكبيرة فى الانتقام لموت سلطان مصر(١) والاستيلاء على مملكته وضمها لاملاكه ولصالح شعبه فعبر على رأس جيشه الصحراء الواقعة بين سوريا ومصر حتى وصل الى مداخل مصر(٢) ، ولسوء حظه كان البدو قد اغلقوا الطريق فى وجهه فحدثت لديه مجاعة ونقص فى المؤن والزاد ، وفى الحال اجتمع رؤساء مصر باتباعهم وخرجوا لمقابلته على رأس جيش كبير ف المكان الذى عسكر فيه(٣) سلطان حلب وقواته . وفى الصباح الباكر من يوم عيد الشمعة تجهز الطرفان وبدأوا المعركة(٤) وسقط من الجانبين عدد كبير من القتلى والأسرى وانتهت المعركة بانتصار الحلبيين وهرب المصريون(٥) وغنم البدو كثيرا من وراء ذلك . وعندما

(١) مقتل السلطان المعظم تورانشاه (المترجم) .

(٢) خرج من دمشق يوم الأحد منتصف شهر رمضان عام ٦٤٨ هـ/١٢٥٠ م (المترجم) .

(٣) خرجوا من القاهرة فى شهر شوال وعلى رأسهم عز الدين ايبك (المترجم) .

(٤) كان ذلك يوم الخميس عاشر من ذى القعدة (٦ فبراير عام ١٢٥١ م) . راجع العينى : المصدر السابق ، ص ٤٠ (المترجم) .

(٥) رغم هزيمة المصريين وولوا منهزمين الا أن عز الدين ايبك ثبت فى جماعة من المماليك البحرية وانحاز بعض اتباع الملك الناصر الى عز الدين ايبك فحقق انتصارات كبيرة على الصليبيين وهرب الملك الناصر . أما المصريون المنهزمون فى الجولة الأولى فقد هربوا الى القاهرة ، ولم يعلموا بتطورات الأحداث وخطب ذلك اليوم للملك الناصر يوسف صاحب حلب بالقلعة وجامع عمرو بن العاص . =

حان وقت العصر اجتمع المصريون مرة اخرى وأخذوا يلاحقون الحلبيين وهاجموهم مرة اخرى . حتى انهزم الحلبيون بشدة وولوا الادبار . وعندئذ فقد سلطان حلب معظم امرائه تقريبا ومعظم افراد جيشه بين اسرى وقتلى من جملة عددهم البالغ تقريبا اربعة وعشرين الف مقاتل . وخرج البدو عليهم فاستولوا على متعلقاتهم ، وهكذا كسب البدو من كلا المعسكرين(١) .

= وأما القاهرة فلم يقم بجامعها خطبة وتوقفوا ليتحققوا . ووصل معظم العسكر الشامى الى العباسة (فى الشرقية) فى اثر المصريين ولا يظنون الا أن الهزيمة حلت بالمصريين ، وظلوا مدة ينتظرون وصول الملك الناصر ليدخلوا معه القاهرة ، ولكن جاءهم الخبر بما جرى وحاروا فيما يفعلون . راجع ابن ابى الفوارس : المصدر السابق ص ١٨٥ ، ابن الوردى : تتمة المختصر فى اخبار البشر ، تحقيق احمد رفعت البدراوى ، ٢ ج ، بيروت ١٩٧٠ ، جـ ٢ ، ص ٢٦٨ــ٢٧٤ ؛ العينى : المصدر السابق ص ٤٠ــ٤١ (المترجم)

(١) وقد استمر النزاع بين الجانبين ثلاث سنوات انتهى بتدخل الخليفة العباسى المستعصم بالله بينهما وتم الاتفاق فى صفر عام ٦٥٠ هـ/ابريل عام ١٢٥٣ م على أن يتنازل الناصر يوسف الى عز الدين ايبك عن غزة والقدس ونابلس فضلا عن الاعتراف به ملكا على مصر واصبحت باقى بلاد الشام خاضعة لنفوذ الملك الناصر . ولكنه ما لبث أن عاد الصراع من جديد وتدخل الخليفة للمرة الثانية وعقد الصلح بينهما . راجع جوزيف نسيم : المرجع السابق ، ص ١٨٤ــ١٨٥ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ص ١٠٥٢ (المترجم) .

الفصل الثالث والسبعون

كيف تخلص الملك من القسم الذى اداه للامراء بشأن الهدنة ؟

عندما رأى الملك أن المصريين لم يتمسكوا بالهدنة التى عقدوها مع الصليبيين اجتمع مع مبعوث البابا[١] والمطارنة والبارونات والرجال الحكماء وبعض العامة ليعدل من شكل وطريقة الهدنة كما كانت مبرمة بينه وبين سلطان مصر المقتول . ثم مع امراء مصر المائة والاثنين والعشرين . ثم سألهم إن كانوا متمسكين بالهدنة مع الأمراء من عدمه . فتشاوروا معا وأخبروه أن الأمراء لم يحافظوا تماما على الاتفاق المعقود أو على يمينهم ، بل نقضوا الهدنة بشكل محزن ومخادع ، ولم يحافظوا على وعودهم كما ينبغى أن تكون . وإنما كانوا ينقضون إيمانهم كل يوم . وانهم لا يستطيعون أن يتخيلوا أن يخادع الملك فى اتفاقه بأية طريقة طالما كان الواجب يحتم عليه أن يحافظ على وعده . فطلب الملك عندئذ من مندوب البابا أن يحله من قسمه الذى اداه للأمراء . فاستشار المندوب البابوى المطارنة والحكماء وأخذ برأيهم ، فأجابوا أنه مادام الأمراء لم يحافظوا على الهدنة فالملك والصليبيون غير ملتزمين بالمحافظة عليها . وبعد أخذ ورد ونقاش مستفيض حل المندوب البابوى الملك من اليمين الذى أقسمه للأمراء وأعلن بأن الملك

(١) البابا انوسنت الرابع (١٢٤٣–١٢٥٤ م) (المترجم) .

١١٥١
سـنة

والصليبيين غير ملزمين بالمحافظة على الهدنة مع المسلمين لأنهم لم يحافظوا عليها . وبهذه الطريقة اصبح الملك والصليبيون غير مرتبطين بأية هدنة مع المسلمين .

الفصل الرابع والسبعون

الهدنة التى اقامها السلطان الجديد مع الملك ، واطلاق سراح كل الاسرى الصليبيين

بعد هذه الأحداث ، وعندما انتهى فصل الشتاء وحان شهر مارس اجتمع الملك مع اتباعه وذهبوا جميعا الى معسكره فى قيسارية[1] بفلسطين والتى تقع على البحر ، وأقام الملك بها وحصنها بالأسوار والخنادق وأقام بها ستة عشر برجا . وتأكيدا بأنه سوف يقيم هناك أرسل مندوبيه

٦٢٨
ص

(١) تقع على ساحل البحر المتوسط ، وتبعد عن يافا من ناحية الشمال حوالى ثلاثين ميلا ، ومن بيت المقدس من ناحية الشمال الغربى حوالى اثنى وستين ميلا ، ومن عكا حوالى ستة وثلاثين ميلا . تسمى قيسارية الشام تمييزا لها عن قيسارية فيليب . وقيل أنها بنيت عام ٢٣ ق.م. وثمة رأى آخر يقول أن الملك هيرودوت بناها على اسم الملك اغسطس قيصر عام ٧ ق.م. واستولى عليها الصليبيون عام ١١٠١ م/٤٩٥ هـ واستردها المسلمون عام ١١٨٧ م/٥٨٣ هـ .. وبعد ذلك تناوب الصليبيون والمسلمون على تملكها حتى استولى عليها المسلمون نهائيا عام ١٢٦٥ م/٦٦٤ هـ ، راجع : رحلة بنيامين التطيلى ، ترجمه عن الأصل العبرى عزرا حداد ، بغداد ١٩٤٥ ، ص ٩٤ ، ناصر =

الى سلطان مصر الجديد[٢] ليتدارك الاخطاء التى احدثها هو وأمراؤه بالهدنة المعقودة بينهما ثم تلقى الملك فى قيسارية ايضا رسل سلطان حلب يبغون عقد هدنة معه ومع الصليبيين غير أن شروط الهدنة التى تقدموا بها لم تحز على رضى الملك والصليبيين ولهذا فشلت المفاوضات وعاد الرسل دون أن ينجزوا شيئا[٣] .

ويبدو أن سلطان مصر وغيره من سلاطين المسلمين تخوفو من مجيء نجدة كبيرة من الغرب الأوروبى الى الملك الصليبى ربما تحفزه للعودة الى دمياط من جديد وغزو مملكة مصر ومحاولة الاستيلاء عليها . فتشاور المسلمون فيما بينهم

= خسرو : سفرنامه ، ترجمة يحيى الخشاب ، ص ١٩ ، ابو الفدا : المصدر السابق ، ص ٢٣٨ ، الأدريسى : نزهة المشتاق : ورقة ٦٥ وكذلك :

Muller, op. cit., p. 7; Banister, A survey of the Holy Land, London, 1843, p. 217; Taylor, Lasyrie, l'Egypte et la Palestine, Paris, 1839, p. 267.

(المترجم) .

(١) الأشرف مظفر الدين موسى بن الناصر يوسف ابن الملك المسعود بن الكامل بن العادل ايوب ، وقد تولى السلطنة فى جمادى الأول عام ٦٤٨ هـ بدلا من عز الدين ايبك بعد وقوع الاضطرابات فى مصر والمطالبة بضرورة اقامة شخص من بنى ايوب ليجتمع الكل لعى طاعته ، وتم تعيين عز الدين ايبك اتابكه . لمزيد من التفصيلات راجع العينى : المصدر السابق ص ٣٥ ح ٣ (المترجم)

(٢) سبق أن اوضحنا اسباب رفض الملك لويس لشروط الهدنة التى تقدم بها ملك حلب ، راجع المقدمة التحليلية ص ٣٣ من هذا الكتاب (المترجم) .

ثم اتجهوا الى دمياط وقاموا بتدمير كل أسوارها حتى لا يجد الصليبيون ميزة فى استيلائهم عليها . ونقل المسلمون احجارها بطريق النيل الى اماكن اخرى ثم ما لبث أن عاد مبعوثو الملك الذين كان قد بعث بهم الى سلطان مصر الجديد وارسل هذا بدوره رسله الى الملك ، ودارت مناقشات جادة بين الجانبين انتهت باتفاق جديد على الهدنة بين الملك الصليبى من جانب والسلطان الجديد من جانب آخر . وتم بموجب هذه الهدنة الاخيرة اطلاق سراح جميع الصليبيين الفقراء والضعفاء الموجودين فى بابليون والقاهرة وفى كل حصون مصر . ورد السلطان الجديد الى الملك اربعة آلاف بيزنط عربى وقال أن الملك كان قد دفعها كفدية له . تضمنت الهدنة بندا جديدا لم تتضمنه مطلقا اية هدنة سابقة جرى عقدها من قبل بين الصليبيين والمسلمين وجرى ذلك دون اجبار وطبقا لرغبتهم ولم يكن لاية قوة اجبارهم على تقديم مثل هذا البند للملك وللصليبيين[١] . اذ التزم السلطان الجديد بموجب هذه الهدنة بان يسلم بيت المقدس الى الملك والمسيحيين كما .

---

(١) يبدو أن الألفاظ لم تسعف مؤرخنا للتعبير عما حدث بالفعل فالمماليك عندما عرضوا أن يسلموا بيت المقدس الى الصليبيين لم يكن ذلك برضاهم التام وحبهم للصليبيين وإنما كانوا مضطرين الى ذلك طالما أن القديس لويس يتعهد لهم بعدم مخالفة الأيوبيين بل الاشتراك معهم فى القيام بحملة ضد الناصر يوسف الأيوبى سلطان حلب . راجع سعيد عاشور : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٠٤٠ ، ولمزيد من التفصيلات عن بنود هذه الهدنة راجع جوزيف نسيم : المرجع السابق ص ١٧٧ــ١٧٩ (المترجم) .

التزم بتسليم بيت لحم وارض ابراهيم المقدسة ومدينة نابلس وكل اقليم الجليل وكل الأراضى حتى نهر الأردن باستثناء بعض المدن التى كانت محصنة والتى تمسك بها السلطان لضمها الى مملكة دمشق . وبعد هذا عاد الملك مع كل جيشه الى يافا واقام تحصينات واسوار وابراج وخنادق .

ص ٦٢٩

الفصل الخامس والسبعون

عدم تنفيذ الهدنة وعودة لويس الى فرنسا

انعقد الامل الكبير لدى الملك والمندوب البابوى والصليبيين على أن تعود اليهم ارض الميعاد المقدسة فى وقت قصير مثلما اشرنا من قبل ، غير أن المسلمين لم يسلموا اليهم شيئا فارسل الملك رسله الى السلطان الذى قام بدوره بارسال مندوبيه الى الملك ولكن لم يكن هناك اية فائدة من ذلك ، ولم يحافظ السلطان على الهدنة التى عقدها مع الملك لاعادة الأراضى المقدسة كما اتفقوا من قبل . وعندما ادرك الملك والصليبيون أن السلطان عاد فخرق اتفاقه معهم هاجوا واضطربوا خاصة وأن الملك لم يكن معه حينئذ اتباعه ليعيد بهم التوازن الى نفسه والهدوء الى الصليبيين فى الوقت الذى لم تأت اخبار تفيده بقرب وصول اية نجدات لمساعدته ، ولهذا استشار الملك المطارنة والبارونات الآخرين الموجودين هناك فاتفقوا على أن يظل

سنة ١٢٥٢ــ١٢٥٤

السيد جيفروا دى سارجين Jeuffroide Sargines فى الشرق ويدفع له الملك نفقات بقاء الفرسان ورماة السهام والمشاة لمساعدته ضد الصليبيين وفى هذه الحالة يعود الى فرنسا طالما لم تأت اليه نجدة من اية جهة وما لبث الملك أن استعد للرحيل واستقل مركبة مع زوجته الملكة التى كانت حامل ومعها طفلان[١] وضعتهما فى أراضى ما وراء البحر ، احدهما وضعته فى دمياط والثانى ولد فى عكا .

وهكذا عاد الملك الى فرنسا فاستقبل هناك فى اليوم السابق لعيد سيدتنا أى فى سبتمبر[٢] فى احتفال مهيب وصفوف منتظمة لأنهم هناك كانوا يعتقدون انه فقد . وجرى ذلك عام ١٢٥٤ من ميلاد سيدنا المسيح . وكان البابا فى روما حينئذ هو انوسنت الرابع ، وملك فرنسا لويس الذى سبق الحديث عنه ، وملك المانيا هو كونت هولاندا ، وملك انجلترا هو هنرى ، وملك نافار كونت دى شامبانيا ، وثيبو سيد دى برى Brie ونيفليون دى بازوش[٣] Nevelon Basoches اسقف سواسون وجيروم

٦٣٠
ص

(١) الاول هو حنا ترستيان Jean Tristan ولد فى دمياط عام ١٢٥٠ ومات عام ١٢٧٠ فى المعسكر امام تونس ، والثانية طفلة اسمها بلانش ولدت فى يافا عام ١٢٥٢ راجع تاريخ هرقل ص ٤٦٩ حاشية "d" .

(٢) الاثنين ٧ سبتمبر عام ١٢٥٤ .

(٣) انتخب اسقفا لسواسون عام ١٢٥٢ م ، وهو ابن نيقولا الثانى سيد بازوش واجنس ، مات عام ١٢٦٢ .

دى كوانسى[١] رئيس دير سان مارك وحنا كونت سواسون[٢] .

الفصل السادس والسبعون

١٢٥٥ سـنة

كيف عقد الصليبيون الهدنة مع السلطان عندما عاد الملك الى فرنسا ؟ وكيف خرقوها ؟

عندما رحل الملك من أرض ما وراء البحر كما روينا من قبل عائدا الى فرنسا لم يتبق الا السلطان الجديد لبابليون ومصر وسلطان دمشق والمسلمين من جانب ، وسيد الأراضى الصليبية[٣] والداوية والاسبتارية من جانب آخر . فاتفق الجانبان فيما بينهما على عقد هدنة لمدة عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام . مع استبعاد يافا من الهدنة[٤] . واجتمع السيد جيفروا دى سارجينس مع عدد

(١) انتخب لمنصبه عام ١٢٥٣ ومات ١٢٧٠ .

(٢) حنا الثانى دى نسل Nesle كونت سواسون .

(٣) المقصود به الوصي على مملكة بيت المقدس وهو حنا دى ابلين الثانى حاكم يافا لأن الملك الأسمى هو كونراد بن كونراد الرابع الذى لم يتجاوز عمره عندئذ عامين (المترجم) .

(٤) لم يتردد كل من سلطان مصر ودمشق فى عقد هذه الهدنة لأن كلاهما أدرك الخطر المغولى ولم يعد لهما رغبة فى قتال الفرنج . وكان سبب استبعاد يافا من الهدنة يرجع الى رغبة حاكمها فى اتخاذها ميناء لأقليم فلسطين التابع له ، راجع :
Runciman, op. cit., t. III, p. (المترجم) .

تورون . ومكن ذلك الصليبيون فى يافا من التحرك حتى اسوار القلعة . أما الذين كانوا داخل القلعة ذاتها فلم يكن بوسعهم الحركة بسبب قلة عددهم من ناحية وخوفهم من أن يتعرضوا لكمائن المسلمين من ناحية اخرى فيستولى المسلمون على القلعة . ولما تأكد المسلمون من أن الصليبيين لا يغامرون بالخروج من القلعة ارسلوا فرقة من رجالهم الى الأراضى الصليبية المجاورة فصادفت بعض الجماعات الصليبية الذين لم ينتبهوا الى ما كان يحدث والذين اعتمدوا على وجود هدنة عقدت مع المسلمين فيتجولوا ذهابا وايابا دون خوف فسارع امراء القدس بأخذ كل الاسرى معهم وكانوا مائة صليبى من الدواية والاسبتارية وغيرهم . فضلا عن اربعين الفا من الماشية من الصغار والكبار ولم يحاولوا ارسالها الى السلطان لأنهم كانوا يعتقدون انه سوف يعيدها الى صليبى هذا البلد لسابق الهدنة معهم وبدافع الرغبة فى عدم نقض الصلح .

الفصل السابع والسبعون

كيف تغلب الصليبيون ـ الذين لم يحافظوا على الهدنة ـ على المسلمين امام يافا ؟

عندما حدث هذا ، كان المسلمون ما يزالون يذهبون ويجيئون حتى اسوار يافا . اما الصليبيون داخل يافا كانوا يقولون فيما بينهم ، بانهم لن يتعرضوا لاية معاناة اذ انهم وضعوا داخل الحصن حامية قوية للدفاع عنه اثناء ذهابهم لمحاربة المسلمين . وفى يوم الجمعة السابق لمنتصف فترة الصوم زحف المسلمون الى يافا وتقدموا نحوها وكان الصليبيون قد اعدوا انفسهم تماما وتجهزوا للحرب . فما لبثوا أن فتحوا الابواب وخرجوا جميعا للاشتباك مع المسلمين وراحوا يصيحون بشجاعة كبيرة صيحات عالية قائلين : الى الموت .. الموت .. الى الموت ، وحدثت معركة كبيرة اثارت الدهشة فتراجع المسلمون عندما فقدوا كثيرا من رجالهم ، ولم يستطيعوا التحمل أكثر من ذلك . وذكر بعض الناس أن معظم المسلمين وقع بين قتلى وأسرى والبعض الآخر لاذ بالفرار . ولكن السيد جيفروا دى سارجينس طاردهم حتى مساكنهم على الرغم من أن الفرسان الصليبيين ظلوا يلحون عليه بالعودة لخوفهم الشديد وشكوكهم فى أن ينصب المسلمون كمينا لهم .

١٢٥٦
ســنة

٦٣٢
هـ

ولكن السيد جيفروا ومن معه من الصليبيين عادوا الى يافا سالمين . وقيل أنه سقط فى تلك المعركة عدد كبير من القتلى والاسرى نحو ألفين من المسلمين وعشرين فارسا وسرجنديا من الصليبيين . ولم يكن عدد الصليبيين فى هذه المعركة يزيد عن مائتى فارس وحوالى ثلاثمائة من رماة السهام والنبال ، وبعض الجنود الآخرين ، وقتل فى هذه المعركة أميرا بيت المقدس وبيت لحم فضلا عن عدد آخر من المسلمين . وأخبر المسلمون سلطان دمشق بهزيمتهم وبأن الصليبيين اخذوا رأس كل من أمير بيت المقدس وأمير بيت لحم . فأرسل السلطان الى أحد امراء المسلمين يطلب منه أن يشترى رأس امير القدّس . فأرسل الأمير فى الحال الى سيدى جيفروا دى سرجينس وطلب منه أن يبعث له برأس أمير القدس مقابل أن يرسل له جواد كونت يافا وعشرة آلاف بيزنط ، ولكن السيد جيفروا رفض أن يعيد له ما طلب حتى اذا ملأ له برجا بالخيول والبيزنط . فبعث الأمير بهذا الرد الى سلطان دمشق الذى حزن كثيرا لهذا . وعندئذ أقسم بأنه لن يعقد هدنة على الاطلاق مرة اخرى مع الصليبيين .



الفصل الثامن والسبعون

كيف غنم البدو مرتين من المسلمين وأعيدت الهدنة ؟

حينما سمع البدو الموجودون فى الجبال أن المسلمين غنموا كثيرا من الغنائم من الصليبيين أبدوا رغبتهم فى النزول من الجبل والذهاب الى معسكر المسلمين حيث توجد الغنائم . وقالوا لأميرهم أن السطان عين رؤساء المعسكر الذى يرغبون الرحيل اليه وبوسعهم التحدث اليهم ، فأجابهم بعدم الموافقة على ذهابهم لأنهم لم يساعدوا فى الحصول على هذه الغنائم . فما كان من البدو إلا أن زحفوا الى معسكر المسلمين وقاتلوا وصحبوا معهم بعض الماشية . وقتل فى هذه المعركة كثير من المسلمين والبدو ما يقرب من ثلاثة آلاف قتيل أو أكثر . فأستشار الصليبيون بعضهم البعض وبعثوا رسلا الى السلطان فى دمشق وطلبوا منهم أن يرد اليهم كل الخسائر التى فقدها الصليبيون وأن يعود الى التمسك بالهدنة التى خرقها ويلتزم بها وبنفس تفاصيلها السابقة ، واذا رفض فسوف تكون الحرب بينهما . وجرت مفاوضات شاقة وتبادل الرسل بين السلطان والصليبيين ، وفى النهاية اعيد عقد الهدنة بين السيد جيفروا دى سارجينس وكونت يافا[1] والسادة

(١) يوحنا دابلين (١٢٤٧–١٢٦٦ م) (المترجم) .

سنة ١٢٥٦

الآخرين فى الأراضى الصليبية والداوية والاسبتارية من جانب ، وسلطان بابليون ومصر وسلطان دمشق من جانب آخر[١] . وصدق عليها الجميع كما حدث من قبل على أن يكون أمدها لمدة عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام . وكان ذلك فى عام ١٢٥٦ من ميلاد سيدنا يسوع المسيح .

الفصل التاسع والسبعون

كيف حارب الصليبيون بعضهم البعض ؟

عندما اعيدت الهدنة وتم التصديق عليها ولم تعد ثمة حروب على الأطلاق ضد المسلمين بأستثناء قلعة يافا التى كانت خارج الهدنة . بدأ الصليبيون يحاربون بعضهم البعض بطريقة تثير الألم وتجلب العار لكلا الجانبين اذ شب النزاع بين البنادقة والبيازنة وبولان Poulainz الأرض المقدسة[٢] من جهة ، والجنوية والاسبان وفرسان القديس يوحنا من جانب آخر . وكان هؤلاء الفرسان يؤيدون

سنة ١٢٥٧

(١) كان الصليبيون خلال هذه الفترة يحاولون الاستفادة من المنازعات القائمة بين مصر ودمشق ولكن طالما أن الصلح قد تم بين الايوبيين فى الشام والمماليك فى مصر فقد وجد الصليبيون أن من مصلحتهم عدم معاداة المماليك فى مصر فأسرعوا الى تجديد الصلح حسبما ذكر (المترجم) .

(٢) يطلق هذا الاسم على الاطفال الذين يولدون من زواج الفرنج ومسيحى الأراضى المقدسة ويظل ملاصقا لهم حتى الكبر . راجع : جاك دى فترى ، نشر بونجرز

الجنوية فى سيطرتهم على بيت[١] يقع على البحر بين أراضى البنادقبة والجنوية ، واستمرت الحرب بين الجانبين ما يقرب من عام قتل بعضهم البعض وعملوا فيما بينهم افعالا سيئة مثلما كان يفعلوا مع المسلمون[٢] .

ولما علم امير انطاكية[٣] بما حدث صحب معه ابن اخته[٤] ووصل الى عكا وكان الأمراء يؤيدون ابن الاخت هذا ليكون اميرا وملكا وسيدا على الأراضى المقدسة لأنتسابه الى اسرة الكونت جوتييه دى بريين بطريق

= وكان اهل الغرب اللاتينى يطلقون هذا الاسم على كل لاتينى يدافع عن مصالح الافرنج المستقرين فى الشرق استهزاءا به وتعنى هذه الكلمة ايضا مسيحى الشرق ، راجع جوزيف نسيم : المرجع السابق ، ص ١٠٦ (المترجم) .

(١) كنيسة سانت سابا .

(٢) كان يفصل حى البنادقة عن حى الجنوية فى عكا تل النبى صموئيل الذى كان فى حوزة الجنوية بأستثناء الصخرة التى تعلو قمته والتى يحتلها دير القديس سابا . وزعمت كل من الجالتين الايطاليتين حق امتلاك هذا الدير . وتملكه الجنوية بالفعل فى أوائل عام ١٢٥٦ م . ولما احتج البنادقة على ذلك لم يسلموا من هجمات الجنوية المفاجئة فاشتعلت الحرب بين الطرفين . لمزيد من التفصيلات حول هذه الحرب راجع :

Heyd, W., Histoire du commerce du levant, 2 vols, Paris, 1885-1886; t. I, pp. 344-354.

(المترجم) .

(٣) بوهموند السادس أمير انطاكية .

(٤) هيو الثانى ملك قبرص ، راجع هرقل حاشية "F" .

الوراثة . وصحب بوهيموند ايضا معه والدة الطفل[1] التى كانت ملكة على قبرص لينشر السلام بين الصليبيين على قدر استطاعته وبأية طريقة . وفى عكا طلب امير انطاكية بأسم ابن اخته أن يأتى اليه فرسان المدينة الذين كانوا فى القدس وكبار رجال الدين .

سنة ١٢٥٨

وعندما وصلوا طالبهم أمير انطاكية بأسم ابن اخته الطفل[2] أن يقدموا ولائهم له مثلما يفعلون تماما مع وريث سيد مملكته بيت المقدس . وبعد مناقشات عديدة بين سيد الداوية[3] وسيد اسبتارية المانيا[4] وفرسان البلد الخاضعين للمملكة ومندوب قومون[5] كل من البنادقة والبيازنة اقسموا على أن يحافظوا على كل حقوق الطفل . بينما رفض ذلك كل من سيد فرسان القديس حنا وقومون الجنوية والأسبان الذين أعلنوا أنهم لن يفعلوا هذا ، لأن

(١) هى الملكة بلايسانس ، وقد طالبت بالوصاية على عرش قبرص وبالقوامة الأسمية على مملكة بيت المقدس ، ولكن لم يتم الاعتراف بها نهائيا وصية على بيت المقدس الى أن زارت عكا وفق ما توضح بعاليه . راجع : Runciman, op. cit., t. III, p. (المترجم) .

(٢) راجع الوثائق المتعلقة بوراثة التاج التى عكف على تجميعها كونت يافا ، فصل ٢ ، القانون ، جـ ٢ ص ٤١١ .

(٣) توماس بيرارد (١٢٥٦ـ١٢٧٣ م) (المترجم) .

(٤) أنو سانجرزهاوزن (١٢٥٧ـ١٢٧٣ م) (المترجم) .

(٥) القومون مفرد كلمة القومونات ، وهذه التسمية التى اطلقت على مجموعة من المدن فى العصور الوسطى تعنى المدن ذات السلطات =

الطفل ليس له حق وراثة الأرض[١] وإنما الوارث الحقيقى هو الطفل كونراد[٢] لأنه حفيد الملك حنا حاكم عكا أى ابنا لأبنة هذا الملك والذى اصبح له حق وراثة الأرض . وعندما ادرك الأمراء ازدياد الشقاق بين الصليبيين وأنه لن يستطيع منع الحرب بين الفريقين اقترحوا بأن يجرى تعيين نائب لابن اخت بوهيمند الملك الطفل فاتفق الأمراء على تعيين سيد ارسوف نائبا للملك الطفل[٣] على أن يعاونه الثمانمائة فرنسى الموجودين بالبلد . وجرى الأتفاق على أنه

= السياسية المستقلة . وكان المدافعون عن القومونات من اصحاب الحرف المختلفة أو التجار أظهروا تماسكا فى مواجهة الأمراء الاقطاعيين ، وكونوا اتحادا (قومون) . فبنوا الاسوار حول مدنهم وسنوا القوانين من أجل استقرار الاحوال الاقتصادية والاجتماعية . وكان ظهور هذه القومونات أول الأمر فى ايطاليا ، وبصفة خاصة فى لمبارديا وتوسكانيا فى آخر القرن الحادى عشر الميلادى ، ثم اصبحت لها قوة سياسية عظمى . وامتدت ظاهرة القومونات الى فرنسا والمانيا وانجلترا . أما التزام القومون نحو السلطة السياسية العليا فى الدولة كالامبراطور أو الملك فكانت محددة بمبلغ معين من المال يدفع سنويا ، وجانب من الخدمة العسكرية . وانتقل هذا النظام الى الشرق فى عصر الحروب الصليبية . راجع سعيد عاشور : اوروبا فى العصور الوسطى ، جـ ٢ ، ص ١٠٥—١٠٦ (المترجم) .

(١) المقصود بها مملكة بيت المقدس (المترجم) .

(٢) كونراد الرابع ، الامبراطور ، راجع تاريخ هرقل كتاب ٣٣ ، فصل ١ ص ٣٦٦ ، حاشية "B" .

(٣) هو يوحنا دى ابلين ، وكان يشغل هذا المنصب من قبل . وعندما عينت الملكة بلايسانس وصية على ابنها هيو الذى لم يتجاوز عندئذ الخامسة من عمره رفع اليها يوحنا استقالته بصفة رسمية من وظيفته كنائب للملك ، فأمرت الملكة بتعيينه فى هذا المنصب من =

اذا لم يأت الاسبتارية وممثل قومون جنوا والاسبان ويقرون بالموافقة على ذلك فسوف يعرضون انفسهم لشر مستطير . وبعد ذلك عاد الأمير الى امارته بعد أن اقتنع أنه لم ينجح فى تحقيق السلام بين الصليبيين الذين ظلوا يحاربون بعضهم البعض بطريقة سيئة . وما أن رحل الأمراء من عكا حتى اندلعت الحرب من جديد[١] وبطريقة مدمرة جلبت عارا على الصليبيين لم يحدث من قبل حتى خسر الصليبيون فى تلك السنة التى شهدت هذه الحرب أربعة وعشرين مركبا أو أكثر محملة بثروات طائلة وبضائع كانت فى طريقها الى ميناء عكا ، فضلا عن ستين آلة من آلات قذف الاحجار[٢] التى كانت مصوبة نحو مدينة عكا نحو المنازل والأبراج الكبيرة والصغيرة والتى كانت تهدم العمران وتسويه بالأرض . فضلا عن عشر آلات أخرى ممن كانت تقذف الأحجار الكبيرة والثقيلة على ابراج عكا وحصونها فدمرتها حتى لم يبق من مبانيها سوى العمائر الدينية . وقتل من الطرفين نحو عشرين ألف رجل ، ولاذ بالفرار كثير من الجنوية والأسبان الذين انهزموا برا وبحرا واضطروا الى تسليم كل الأبراج التى كانت فى

= جديد ، ثم عادت بصحبة اخيها بوهيموند الى طرابلس ، ومنها الى قبرص بعد أن اصدرت تعليمات الى يوحنا بضرورة الالتزام بالوضوح والصرامة فى معالجة أمر المتمردين . راجع : Runciman, op. cit., t. III, p. (المترجم) .

(١) بين البنادقة والجنوية فى شوارع عكا (المترجم) .

(٢) المجانيق وهو لفظ اعجمى معرب وهو اله من آلات الحصار فى =

حوزتهم داخل مدينة عكا . وجرى تدمير كل شيء . وتسوية كثير من العمائر بالأرض وجرى قتل كثير من القادمين من البندقية وبيزا . واضطر البعض الآخر للذهاب مشيا على الأقدام الى مدينة صور بسبب ما جرى لمدينة عكا من تدمير تام مثلما تحطمت من قبل خلال الحرب بين المسلمين والصليبيين . وكان ذلك يوافق عام ١٢٥٨ من ميلاد سيدنا يسوع المسيح .

١٢٥٨ــ١٢٦٠
سنــــــــة

الفصل الثمانــون

كيف هزمت القومونات جيش التتار ؟ وكيف أعد الصليبيون حصونهم للدفاع عن انفسهم ضد التتار ؟

ما لبثت الأخبار أن وصلت الى مدينة عكا والبلاد المحيطة بها بأن التتار ارسلوا ثلاثة جيوش[١] اتجه أحدها الى ارض القومونات . وما أن وصلوا الى مشارف هذه الأرض حتى قرر أهلها أن يجهزوا انفسهم لمواجهة التتار . واصطفوا سويا فى صفوف للأشتباك مع التتار . وحدثت المواجهة واندلعت معركة قاسية وعنيفة بين الجانبين . وسقط عدد كبير من الجيشين ، ولم يتبق من الصليبيين

ـــ العصور الوسطى يقوم مقام المدفع الحالى وهو مصنوع من الخشب ، قذائفه من الحجارة فما أصاب شيئا الا أهلكه ، انظر ابن واصل ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٨٠ ، ح ٢ (المترجم) .

(١) حول غزوات المغول انظر تاريخ هرقل ص ٤٤٣ــ٤٤٤ ، وحاشية "I" وكذلك فقرة الترجمة اللاتينية لهايتون .

الا عدد قليل ، ووقع الباقى منهم ما بين قتلى واسرى ، غير أن التتار انهزموا فى النهاية ، وولى بعضهم مدبرين تاركين كل امتعتهم وفارين الى أبعد ما يستطيعون . وفى نفس الوقت كان الجيش الآخر الذى ارسله التتار ناحية سوريا العراق ، قد انتصر وأخضع مملكة فارس[1] لسيطرة التتار ، واستولوا على بغداد[2] تلك المدينة ذات الشهرة الرائعة والتاريخ العظيم ، وكل الأراضى المحيطة بها ، وقتلوا الخليفة[3] الذى كان يسمى خليفة المسلمين ، كما أخضعوا

(١) راجع سانوتو جـ ١٢ ، فصل ٦ ص ٢٢١ ، هايتون وتاريخ هرقل ص ٤٤٣ . ويقصد بمملكة فارس « الخلافة العباسية » (المترجم) .

(٢) انظر منتخبات من ابى الفدا ص ١٣٢ ، وقد جرى غزو بغداد وقتل الخليفة عام ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م .

(٣) هو المستعصم بالله (٦٤٠ــ٦٥٦/١٢٤٢ــ١٢٥٨ م)

وقد دام القتل والنهب فى بغداد اربعين يوما حتى صارت الدماء فى الأزقة كأكباد الابل ، ولم يسلم من ايدى المغول الا من كان صغيرا فأخذ اسيرا . لمزيد من التفصيلات راجع النويرى : نهاية الارب فى فنون الادب ، تحقيق د. سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٨٥ ، جـ ٢٧ ص ٣٨٠ــ٣٨٣ ، العينى : المصدر السابق ص ١٧٣ــ١٧٤ .

وينسب ابن الوردى سبب هذه المأساة الى الوزير العباس مؤيد الدين بن العلقمى اذ كاتب هولاكون واطمعه فى بغداد معتقداً أن الأمر يتم له ويقيم خلافة علوية . وعندما نزل التتار على بغداد من الجانب الشرق ، خرج ابن العلقمى اليهم وتوثق منهم لنفسه وعاد الى الخليفة وقال له : « ان هولاكو يبقيك فى الخلافة ويريد أن يزوج ابنته من ابنك ابى بكر » واخذ يحسن له الخروج لملاقاة ــ

آشور وكليديا والترك ورودس[١] وحلب[٢] وحماه[٣] وحمص وقيسارية العظيمة وأراضى شيخ الجبل[٤] ، وأراضى اخرى عديدة ومقاطعات وأراضى جورجيا وأرمينية ومدينة انطاكية[٥] التى كانت خاضعة للصليبيين ولم تخل اراضى قريبة أو بعيدة فى تلك المناطق من عبث التتار اذ دمروها وهزموها وإن كانت هناك اراضى عديدة لم تخضع لهم اكتفوا بأن تسلموا من أهلها اموالا كثيرة وذهبا وفضة

= هولاكو فخرج اليه المستعصم وجمع من اكابر اصحابه والفقهاء وأخذ ابن العلقمى يوهم طائفة بعد الأخرى بضرورة خروجهم لحضور عقد الزواج . ولما تكامل عدد كبير قتلهم هولاكو عن آخرهم واستولى على بغداد . راجع ابن الوردى : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٨٢ــ٢٨٥ ؛ ابن الجزرى : تاريخ ابن الجزرى مخطوطة مصورة ، لوحة ٣٦٧ــ٣٦٨ (المترجم) .

(١) حدثت هذه الانتصارات عام ١٢٥٨ و ١٢٥٩ ، راجع ابو الفدا ص ١٣٣ .

(٢) سقطت حلب فى ايديهم عام ١٢٦٠ ، راجع ابو الفدا ص ١٣٤ ومنتخبات من المؤرخين العرب لرينو ص ٤٧٨ .

(٣) سلمت حماه على أثر الاستيلاء على حلب .

(٤) هو ركن الدين خورانشاه ، وقد نجح التتار فى اغتياله مع باقى افراد اسرته ، ولكنه نجح فى تهريب ابنه شمس الدين محمد الوريث الشرعى له لأمامة الاسماعيلية . وكان جماعة الاسماعيلية قد احسوا بالخطر المغولى قبل ذلك بعدة سنوات .كما احست به دول اوروبا فأرسل الاسماعيلية الى انجلترا وفرنسا عام ١٢٣٩/٦٣٧ هـ يرجوهما العمل من اجل الوقوف فى وجه هذا الخطر ولكن طلبهم لم يلق اذنا صاغية . راجع اسامة زيد : الصليبيون واسماعيلية الشام ص ٣٠٦ (المترجم) .

(٥) لم يرد ذكر استيلاء التتار على انطاكية عند كل من سانوتو وهايتون . راجع تاريخ هرقل ص ٤٤٤ .

الفصل الحادى والثمانون

كيف هزم المسلمون التتار هزيمة ساحقة واجبروهم على الهرب ؟

انتاب الخوف سلطان بابليون ومصر[١] ، ودمشق وكل المسلمين الذين سمعوا باخبار هذا الغزو وجهز السلطان كل قواته المسلحة تجهيزا جيدا وترك بعضهم فى ارضه لحراستها على الرغم من انه كان يظن أن الاخلاص فى أحد امرائه وثبت له غير ذلك فى النهاية[٢] . ونظرا لانزعاج

(١) هو سيف الدين قطز . بعد أن حدث الغزو المغولى للعراق وسقوط بغداد تم عبورهم نهر الفرات لغزو بلاد الشام . فضلا عن طلب الملك الناصر يوسف صاحب الشام النجدة من مصر . ورأى قطز أنه لا يتسنى ابعاد خطر المغول عن البلاد ومصر يحكمها سلطان صغير ضعيف الشخصية لا يستطيع القيام بواجب الجهاد ضد العدو . فجمع الامراء وذوى الرأى فأشاروا عليه بالموافقة على تعيينه سلطانا على البلاد . فقام بالقبض على الملك المنصور بن المعز ايبك وخلعه من السلطنة واعتقله بالدور السلطانية فى قلعة الجبل وبويع قطز بالسلطنة يوم السبت السابع عشر من ذى القعدة عام ٦٥٧ هـ/نوفمبر ١٢٥٩ م ، راجع : العينى ، المصدر السابق ص ٢٢٠ ، وكذلك فايد عاشور : المرجع السابق ص ٣٨ـــ٣٩ (المترجم) . وكان التتار قد ارسلوا الى مصر خطابات تهديد ووعيد إن امتنعت عن التسليم اليهم ، وعندئذ جمع قطز امرائه وشاورهم فى الأمر وقرر قطز قتل الرسل ثم علق رؤوسهم على باب زويلة . راجع : نص هذا الخطاب عند القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٨ ، ص ٦٣ (المترجم) .

(٢) المقصود به ركن الدين بيبرس الذى عين فيما بعد سلطانا باسم الظاهر بيبرس (المترجم) .

السلطان بسبب هجمات التتار المتتالية فقد بادر بعبور الصحراء الواقعة بين مصر وسوريا ووصل الى دمشق . أما المسلمون الآخرون الموجودين حوله اجتمعوا معه والتف حوله رجاله وكبار امرائه ومن انضم اليهم من امراء المسلمين وقيل انهم اصبحوا خمسة سلاطين فتشاوروا فيما بينهم واستقر رأيهم على أن يطلبوا من الصليبيين أن يحاربوا الى جانبهم ضد التتار[1] ، ووافق معظم الصليبيين على ذلك غير أن سيد اسبتارية نوتردام المانيا رأى أن هذا الأمر ليس فى صالح الصليبيين لأنه سبق أن اختبر الصليبيون المسلمين مرات عديدة وثبت أنهم لا يحافظون على ما يعقدونه من اتفاقات مع الصليبيين ، وثبت أنهم مخادعون فى كثير من المرات . ولو حارب الصليبيون مع المسلمين ضد التتار ، وانهزم التتار فسوف يصبح الناجون من الصليبيين فى هذه الحرب مجهدين كثيرا هم وخيولهم ولا يستبعد عندئذ أن يتقدم المسلمون لمهاجمتهم . فيكون

سنة ١٢٦٠

(١) هناك اختلاف فى الرأى بين المصادر الاسلامية والاجنبية حول موقف الصليبيين من أمر التعاون مع قطز فذكرت المصادر الاسلامية أن الصليبيين هم الذين عرضوا على قطز التحالف ضد المغول ولكنه شكرهم وطلب منهم أن يكونوا على الحياد والسماح له فقط بعبور اراضيهم . ولا شك أن المؤرخين الغربيين تحاملوا أكثر على المسلمين فى هذا الشأن وادعوا كذبا أن السلطان ابدى رغبة فى التحالف مع الفرنج ضد المغول ارضاءا لكبريائهم وغرورهم خاصة عندما رفض السلطان قطز عرضهم ورفض التحالف معهم . راجع : المقريزى ، المصدر السابق جـ ١ ق ٢ ص ٤٢٩ــ٤٣٠ (المترجم) .

سنة ١٢٦٠

مصيرهم القتل أو الوقوع فى الأسر . وبهذه الطريقة يفقد الصليبيون كل الأراضى التى فى حوزتهم . وعندما سمع ذلك بقية الصليبيين أيدوا هذا الرأى وأرسلوا للسلطان يعتذرون عن تلبية طلبه ، وبأنهم لن يتمكنوا من الحرب مع المسلمين ضد التتار وإنما من الممكن أن يقدموا للمسلمين المساعدات من المؤن والزاد واللحوم ، وتعهد جميع الصليبيين بأحترام هذا الوعد . وعندما علم السلطان بهذا العرض وافقهم تماما على رأيهم وقال أنه من الأفضل فعلا ألا يحارب الصليبيون معه لأنه يملك جيشا قويا . وما لبث أن استعد ورتب صفوفه واتجه على رأس قواته مباشرة تجاه التتار حيث كانوا معسكرين قرب صيدا . وعندما اقترب المسلمون من التتار نظموا صفوفهم واتخذوا مواقعهم من أجل بدء المعركة وهاجموا التتار بشجاعة كبيرة . وكان التتار ايضا يحاربون بمهارة عظيمة . وبالقاء نظرة على الجانبين المتحاربين تثور دهشة عظيمة فقد كانت المعركة طويلة ومملة . وتساقط كثير من القتلى من الجانبين وأسفرت المعركة فى النهاية عن هزيمة التتار بعد أن استمرت المعركة ثلاثة أيام وفى مواقع ثلاثة انهزم التتار فى جميعها[١] . وبلغ

ص ٦٣٨

---

(١) حدثت هذه الهزيمة فى ٢٥ رمضان عام ٦٥٨ هـ/٨ سبتمبر عام ١٢٦٠ م طبقا لابى الفدا والذى لم يتفق فى هذا مع سانوتو ومع النص الذى قدمناه . راجع تاريخ هرقل ص ٤٤٤ . حاشية "e" ويطلق على مكان المعركة طبقا لأبى الفدا اسم « عين جالوت »

وكان بيبرس البندقدارى قد تقدم بفرقته لاستطلاع اخبار التتار =

عدد القتلى فى هذه المعارك الثلاث ما يقرب من مائة الف تترى . وبعد المعركة الثالثة انسحب التتار وولوا الادبار ولا يعرف احد ماذا حدث لهم . ذكر البعض أنهم هربوا الى مكان بعيد وسرعان ما نقلوا خبر هذه الهزيمة الى سيدهم(١) ليرسل لهم نجدة لانهم كانوا على وشك الهلاك التام .

= ومناوشتهم حتى يصل السلطان قطز ببقية الجيش . ويبدو أن الهدف من تقدم بيبرس هو ايهام العدو بقلة عدد المسلمين ثم يصل السلطان بالجيش الرئيسى فجأة فينهزم العدو . وتقدم بيبرس فعلا حتى التقى بطلائع التتار وكتب الى السلطان يخبره بذلك . واستمر يناوشهم الى أن وافاه السلطان عند عين جالوت تلك البلدة الصغيرة الواقعة بين بيسان ونابلس من ارض فلسطين وكان التتار قد اجتمعوا فى ذلك المكان حيث تم اللقاء الأول مع التتار ، وفى البداية رأى قطز ضعف جبهته فالقى خوزته عن رأسه الى الأرض وصرخ بأعلى صوته « واسلاماه » فاشتدت عزائم المسلمين وكان بيبرس قد اعد كمينا للتتار واحاطهم من ثلاث جهات وقاتلهم من الفجر حتى منتصف النهار فانهزم التتار شر هزيمة وولوا الادبار .

وقد حاول التتار أن يلموا شملهم من جديد فجمعوا قوتهم عند بيسان حيث نشبت معركة ثانية اشد من سابقتها وانتصر المسلمون ايضا بخلاف وقعة ثالثة منى فيها التتار بالهزيمة على يد الظاهر بيبرس عندما وجدهم قد جمعوا فلولهم فى افاميه فطاردهم الى حارم . ولمزيد من التفصيلات راجع ابو شامة : المصدر السابق ص ٢٠٧ . ابن الجزرى : المصدر السابق لوحة ٣٧٢ ؛ الهمذانى : جامع التواريخ ، ترجمه عن الأصل الفارسى محمد صادق نشأت وآخرون ، المجلد الثانى ، جـ ١ ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٣١١ــ٣١٤ ؛ المقريزى المصدر السابق جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٩ــ٤٣٢ ، ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، جـ ٧ ، ص ٧٩ــ٨٠ ، العينى : المصدر السابق ص ٢٤٣ــ٢٤٤ وكذلك فايد عاشور المرجع السابق ص ٥١ــ٥٣ (المترجم) .

(١) هولاكو (٦٥٤ــ٦٦٣ هـ/١٢٥٦ــ١٢٦٥ م) (المترجم) .

الفصل الثانى والثمانون

كيف قتل المصريون سيدهم السلطان وعاد الصليبيون يندبون حظهم السيء ؟

عندما أصبحت البلاد خالية من التتار رحل المسلمون الى بلادهم ورحل سلطان بابليون الذى أتم هذا العمل بجهوده الخاصة الى مصر . فتآمر الأمراء فيما بينهم وقتلوه(١) . وعينوا سلطانا آخر(٢) . وقالوا انهم اقاموا سيدا

(١) بعد أن اعاد قطز الامن الى نصابه فى جميع المدن المخربة واقيمت الخطبة له فى جميع انحاء البلاد من حلب والفرات وقع فريسة حسد بيبرس فاغتاله هذا عند عودته الى القاهرة . ويرجع السبب فى ذلك الى أن قطز قد حال دون تحقيق رغبة بيبرس فى ولاية حلب وكان قد وعده بها ، فلم يف بوعده واعطاه الى علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ فاثار ذلك الحقد والضغينة فى نفس بيبرس وزملائه على قطز منذ مقتل فارس الدين اقطاى بمعرفة عز الدين ايبك مولى قطز فاضمروا له السوء . وحث بيبرس جماعة من الامراء فى قتل قطز فاغتالوه فى السابع عشر من ذى القعدة عام ٦٥٨ هـ الموافق للخامس والعشرين من ديسمبر عام ١٢٦٠ م . ولمزيد من التفصيلات راجع جمال الدين سرور ، الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عهده ، القاهرة ١٩٣٨ م ، ص ٥٠ـ٥١ ، وكان قطز ابن اخت جلال الدين خوارزمشاه واسمه محمود بن مودود وقد اسر فى حروب التتار ضد الخوارزمية وتم بيعه فى دمشق لعز الدين ايبك ثم انتقل الى مصر واصبح فى مقدمة مماليكه وكان متدينا وورعا يتسم بالشجاعة . ولمزيد من التفصيلات راجع : ابو شامة المصدر السابق ص ٢١٠ ، المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ٢ ص ٤٣٥ ، العينى المصدر السابق ص ٢٥٥ـ٢٦٠ (المترجم)

(٢) بيبرس البندقدارى واجمع المؤرخون انه ولد ببلاد القفجاق وقضى بها =

١٢٦٠ــ١٢٦١ سنـــة

٦٣٩ صــ

عليهم من بين اولئك الامراء انفسهم وهو نفسه الذى قتل السلطان السابق ولهذا لم يعد الصليبيون مقيدين باتفاق هدنة مع هذا السلطان الجديد لأنه باغتيال السلطان السابق سقطت الهدنة والغيت كل الاتفاقات واصبحت كل بلاد الصليبيين فى حالة حرب مع المسلمين ، وأصبح فى عداد المفقودين اولئك الذين ذهبوا للحج الى القدس وكذلك كل متعالقاتهم لأنهم الامراء المسلمين الذين اسند اليهم حماية المدينة أغلقوا أبوابها بمجرد سماعهم نبأ اغتيال السلطان ووضعوا حامية قوية للحفاظ على الأمن . فلم يتمكن أحد الدخول أو الخروج الا بتصريح . وعندئذ لم يتمكن المسيحيون الذين دخلوا المدينة بقصد الحج من الخروج ، فبقوا داخل المدينة ، وإن سمح لهم فى النهاية بالرحيل بعد أن اصابتهم خسائر كبيرة . وعلى الرغم من الاخطار التى احاطت بهم فقد توجهوا بقدر ما وسعهم الجهد الى الأراضى الخاضعة للصليبيين ، خاصة المدن المطلة على البحر بعد أن تعرضوا للهجوم مرات عديدة وهم فى الطريق ، ففقدوا كثيرا من اتباعهم ومتعلقاتهم . وكانوا يرددون أن هذا الهجوم والمضايقات التى تعرضوا لها

= شطرا من حياته الأولى الى أن بيع لاحد تجار الرقيق على أثر هجوم المغول على هذه البلاد عام ٦٤٠ هـ/١٢٤٢ م وقد اشتراه الامير علاء الدين البندقدارى مملوك الملك الصالح نجم الدين ايوب واقام فى خدمته ثم اخذه منه الصالح وتولى سلطنة مصر بعد مقتل السلطان قطز وظل بها حتى وفاته عام ٦٧٦ هـ/١٢٧٧ م ، راجع جمال الدين سرور : المرجع السابق ص ٢٨ــ٣٢ (المترجم) .

كانت بالتأكيد بناء على أوامر أمير القدس الذى اذن لهم بالخروج بعد أن دفعوا له اموالا طائلة . وعلى الرغم من أنهم كانوا ذاهبين الى القبر المقدس لغرض طيب الا أنهم عادوا لسوء الحظ بآلام كبيرة . وعندما شاهدهم الصليبيون وسمعوا المغامرات التى حدثت لهم شكروا كثيرا سيدنا يسوع المسيح ومجدوه . وهكذا انقضى عام ١٢٦١ من ميلاد سيدنا يسوع المسيح .



قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر الأصلية :

ــ ابن ابى الفوارس (محمد بن ابراهيم) .
تاريخ دولة الاكراد والاتراك ، ميكروفيلم بقسم الوثائق بدار الملك عبد العزيز بالرياض ، رقم ٦١ .

ــ ابن الأثير (ابو الحسن ابى الكرم الملقب عز الدين) .
الكامل فى التاريخ ــ ٩ ج ــ بيروت ١٩٨٦ .

ــ ابن تغرى بردى (جمال الدين ابو المحاسن) .
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ــ ٩ ج ــ القاهرة ١٩٤٢ .

ــ ابن الجزرى (محمد ابراهيم بن ابى بكر)
تاريخ ابن الجزرى ، ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ١٤٥٠ .

ــ ابن الجوزى « سبط » (ابو المظفر شمس الدين يوسف) ،
مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ــ جـ ٨ ، حيدر آباد ١٩٥١ .

ــ ابو حوقل (ابن القاسم النصيبى) .
صورة الأرض ــ ليدن ١٩٢٨ .

ــ ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) .
مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب ، جـ ٤ ، ٥ نشر وتحقيق د. حسين محمد ربيع ، القاهرة ١٩٧٣ ، ١٩٧٧ .

ــ ابن الوردى (ابو حفص الدين عمر) .
تتمة المختصر فى اخبار البشر ، ٢ ج ، تحقيق احمد رفعت البدراوى ، بيروت ١٩٧٠ .

ـــ ابو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين ابو الفدا اسماعيل) .
ـــ المختصر فى اخبار البشر ـــ ٤ ج ، بيروت (بدون تاريخ) .
ـــ تقويم البلدان ـــ باريس ١٩٨٠ .

ـــ ابو شامة (عبد الرحمن اسماعيل بن عثمان بن شهاب الدين) .
تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين . تحقيق عزت العطار ، القاهرة ١٩٤٧ .

ـــ الأدريسى (الشريف محمد بن عبد العزيز) .
نزهة المشتاق فى ذكر الامصار والاخطار والجزر والمداين والآفاق ، نسخة خطية بمكتبة البلدية بالاسكندرية .

ـــ البغدادى (صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الخالق) .
مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع نشر وتحقيق على محمد البجاوى ، المجلد الثانى ، مكة المكرمة ١٩٥٤ .

ـــ بنيامين التطيلى (ابن يونه النبارى الاندلسى) .
رحلة بنيامين ، ترجمه عن الأصل العبرى عزرا حداد ، ١٩٤٥ .

ـــ الحنبلى (ابو البركات احمد بن ابراهيم) .
شفاء القلوب فى مناقب بنى ايوب ، تحقيق ناظم رشيد ، بغداد ، ١٩٧٨ .

ـــ العينى (بدر الدين ابو محمد محمد بن احمد بن موسى) .
عقد الجمان فى تاريخ اهل الزمان (٦٤٨ـــ٦٦٤ هـ/١٢٥٠ـــ١٢٦٥ م) ، تحقيق د. محمد محمد امين ، القاهرة ١٩٨٧ .

ـ القلقشندى (احمد بن على بن احمد عبد الله) .
صبح الأعشى فى صناعة الانشا ـ ١٤ ج ـ القاهرة ١٩١٣ـ١٩٢٠ .

ـ المقريزى (تقى الدين احمد بن على) .
السلوك لمعرفة دول الملوك ـ الجزء الأول والثانى الى ٧٤١ هـ/١٣٤١ م ، نشره وعلق عليه د. محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٣٤ـ١٩٤٢ .

ـ ناصر خسرو (ابو معين الدين) .
سفرنامه ـ ترجمة د. يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥ .

ـ النسوى (محمد بن احمد بن على) .
سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، نشر وتعليق حافظ حمدى ، القاهرة ١٩٥٣ .

ـ النويرى الكندى (شهاب لادين احمد بن عبد الوهاب) .
نهاية الأرب فى فنون الأدب ـ جـ ٢٧ ، تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٩٨٥ .

ـ الهمذانى (رشيد الدين فضل الله) .
جامع التواريخ ، ترجمة عن الاصل الفارسى محمد صادق نشأت ، محمد موسى هنداوى وفؤاد الصياد ، المجلد الثانى جـ ١ ، القاهرة ١٩٦٠ .

ـ ياقوت الحموى (ابو عبد الله ياقوت عبد الله الملقب شهاب الدين).
معجم البلدان ، ٥ ج ، بيروت ١٩٧٩ .

ثانيا : المصادر الأجنبية :

- Augustin, Confessions, London, 1976.
- Chronique d'Ernoul et de Bernard le Tresorier, Paris, 1853.
- Du|Cange, Les Familles d'outre mer, ed, E.G. Rey, Paris, 1869.
- Eracles, L'Eracles Empereur et la conquest de la Terre d'outre mer, Ed. Recueil des Historiens des Croisades-Historiens Occidentaux.
- Les Gestes des chiprois, cf. Recueil des Historiens des croisades-Documents Armeniens, t. II.
- Joinville, Jean de, Histoire de Saint Louis, Text Original de XIV siecle, accompagne d'une traduction en Francais Modern Par M. Nantilis de Wailly, Paris, 1874.

رجعنا الى الترجمة العربية لهذا الكتاب تحت اسم « مذكرات جوانفيل : لويس ، حياته وحملاته على مصر » ترجمة د. حسن حبشي ، القاهرة ١٩٦٨ .

- Matthew Paris, English history, translated by J.A. Gilles, 2 vols, London, 1889.
- Philip of Navare, The wars of Frederick II against the Ibelins in Syria and Cyprus, translated by J.L. Lamonte, Columbia, 1935.



ثالثا : المراجع العربية :

اسامة زكى زيد (الدكتور) :

ــ الصليبيون واسماعيلية الشام فى عصر الحروب الصليبية ، اسكندرية ١٩٨٠ .

ــ الخوارزمية ودورهم فى الصراع الصليبى الاسلامى فى عصر بنى ايوب فصله من مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، العدد ٣٠ لسنة ١٩٨٢ .

ــ الافكار السياسية للقديس اوغسطين حول مدينة الله ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، العدد ٢٩ لسنة ١٩٨١ .

اسمت غنيم (الدكتور) :

ــ زواج التحالف فى العصور الوسطى ، الاسكندرية ١٩٨٦ .

جمال الدين الشيال (الدكتور) :

ــ تاريخ مصر الاسلامية « العصران الأيوبى والمملوكى » ، الاسكندرية ١٩٦٧ .

جوزيف نسيم يوسف (الدكتور) :

ــ العدوان الصليبى على بلاد الشام ، الاسكندرية ١٩٧١ .

ــ العدوان الصليبى على مصر ، الاسكندرية ١٩٦٩ .

ــ حافظ حمدى

الدولة الخوارزمية والمغول ، القاهرة ١٩٤٩ .

حسين محمد ربيع (الدكتور) :

ــ دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، القاهرة ١٩٨٣ .

سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور) :
ــ الحركة الصليبية ، ٢ ج ــ القاهرة ١٩٨٢ .
ــ الايوبيون والمماليك فى مصر والشام ، القاهرة بدون تاريخ .
ــ اوروبا العصور الوسطى ، ٢ ج ، القاهرة ١٩٦٣ــ١٩٦٦ .

فايد حماد عاشور (الدكتور) :
ــ العلاقات السياسية بين المماليك والمغول فى الدولة المملوكية الأولى ــ القاهرة ١٩٧٥ .

محمد جمال الدين سرور (الدكتور) :
ــ الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ، القاهرة ١٩٣٨ .
ــ محمود سعيد عمران (الدكتور)
الحملة الصليبية الخامسة ، الاسكندرية ١٩٨٥ .



رابعا : المراجع الاجنبية :

- Attwater, D., Saints, London, 1978.
- Banister, J., A survey of the holy land Geogrraphy, London, 1843.
- Browne, A Literary history of Persia, cambridge, 1957
- Defremery, M.C., Nouvelles Recherches sur les Ismaéliens ou Bathiniens de Syrie, CF. Journal Asiatique, Se series, t.v, 1805 (pp. 5-76).
- Fedden, R., Crusaders Castels, London, 1930.
- Grousset, R., Histoire de Croisades, 3 vols, Paris, 1948.
- Guyard, M., un grand Maître des Assassins au temps de saladin, cf. Journal Asiatique, 7 series, t. IX, 1877 (pp. 314-489).
- Heyd, W., Histoire du commerce de levant au moyer age, 2 vols, Paris, 1885-1886.
- Jackson, History of the christian church, London, 1909.
- King, E., sThe Kinghts Hospitallers in the holy land, London, 1931.
- Lacroix, P. Lachevalerie et les croisades, Paris, 1887.
- Lamb, H., The Crusades, London, 1931.
- Michaud, M., History of the Crusades, translated from the original by W. Robson, 3 vols, London, 1852.
- Morgan, M.
  - The Rothelin continuation of William of Tyre, cf. outremer, studies in the history of the Crusading Kingdom of Jerusalem, 1982 (PP. 244-259).
  - Chronicle of Ernoul, London, 1983.
- Muller, W., Castles of the Crusaders, London, 1966.
- Prawer, J.
  - Histoire du Royaume Latin de Jerusalem, 2 vols, Paris, 1975.
- Rey, G., Etude ser les Monuments de l'architecteure Militaire de croisés en Syrie et dans l'ile de chypre, Paris, 1871.
- Richard, J., The Latin Kingdom, in Jerusalem, Oxford, 1979.
- Runciman, S., A History of the Crusades, 3 vols, London, 19 .
- Russel, B., History of Western Philosophi, London, 1979.
- Setton, K., (ed), A History of the Crusades, 3 vols, Philadelphia, 1958.
- Stevenson, W., The Crusaders in the East, London, 1907.
- Taylor, La Syrie, L'Egypte, la palestine et el Judéa, Paris, 1839.
- Watson, C., The story of Jerusalem, London, 1912.


مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

فهرس عام

(أ)

(ث)

(ج)

(ح)

(ر)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ظ)

(ن)

رقم الايداع ٢٢٨٨ / ٨٩

مركـز الدلتـا للطباعـة
٢٤ شارع الدلتا ــ اسبورتنج
تليفون ٥٩٥١٩٢٣